نابليون

تأليف

هربرت فشر

وزير معارف إنجلترا سابقاً

ترجمة

محمد نوفل

ليسانسيه فى التربية والآداب

واجازتى التاريخ والجغرافيا من جامعة لفربول

ومدير التعليم بمجلس مديرية الغربية

محمد مصطفى زياده

ليسانسيه فى التربية والآداب

و(B. A.) فى التاريخ طبقة الشرف من جامعة لفربول

ومدرس بالمدرسة العباسية الثانوية

ثمن النسخة ١٥ قرشاً

الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧

المطبعة الرحمانية بمصر

نابليون

تأليف

هربرت فشر

وزير معارف إنجلترا سابقاً

ترجمة

محمد نوفل

ليسانسيه فى التربية والآداب

واجازتى التاريخ والجغرافيا من جامعة لفربول

ومدير التعليم بمجلس مديرية الغربية

محمد مصطفى زياده

ليسانسيه فى التربية والآداب

و(B. A.) فى التاريخ طبقة الشرف من جامعة لفربول

ومدرس بالمدرسة العباسية الثانوية

الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧

ثمن النسخة ١٥ قرشاً

المطبعة الرحمانية بمصر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعدفهذا كتاب نابليون، ألّفه (هربرت فشر) ، أستاذالتاريخ بجامعة شفيلد ، ثم وزير المعارف بانجلترة سابقا . آثرنا ترجمته إلى اللغة العربية : لأنه من الكتب التاريخية ، التى ألّفت عن نابليون بالطريقة العلمية الخالصة — تلك التى تحلل الوقائع السالفة ، وتبتنى عليها حقائق تلتها ، وتستنبط منها وقائع لحقتها ، وتعتمد دائما فى أسلوبها على المنطق التاريخى ، الذى يكوّن من حوادثه حلقات متصلةمتناسقة ، لا شذوذ فيها ولا اضطراب . على أن هذا الكتاب ، مع صغر حجمه ، يعتبر فتحا مبينا في عالم التأليف — تقرأ فى صحائفه المعدودات تاريخ نابليون فتى وشيخا، وإذهو بين الحالين رجل الدنيا وواحدها ، فتقف بذلك على آثاره الجلى فى تاريخ العالم ، وتفهم نفسه الجبارة التى طالما غالبت الحوادث ففازت منها بخير نصيب . وإنما قصدنا إلى نابليون دون غيره من أعلام التاريخ لاعتقادنا أن التاريخ الحديث لمصر، وبعض بلاد الشرق الأدنى ، يبتدئ يوم نزل الجيش الفرنسى مدينة الاسكندرية،

باشراف هذا القائد العظيم ، فسلك مصر بين الدول، ووصل تاريخها بتاريخ العالم ، وبعث فيها حياة علمية تعد بحق الجذوة الأولى لنهضتها الأخيرة .

وأمر آخر ،وهو حرصنا على أن يكون بين أيدى قراء العربية كتاب يشرح جزءا فذا من تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر، كى يستعين به طلبة التاريخ فى زمننا هذا على كتابة المقالات التى يكلفونها، بدل طريقة الاختبار التحريرى القديمة، التى تحصر المعارف في نقط أشبه بالرموز الرياضية منها بالتحليل المعقول الوافى .

وقد توخينا فى الترجمة كل عناية ودقة لخرج كتابنا العربى مرآة صادقة للأصل الانكليزى . وكثيرا ما حملنا أسلوب المؤلف الموجز على شرح كثير من النقط بالحواشى، التى فى أسفل الصفحات، مع خلو الأصل منها جمعاء إلا حاشيتين نسبناها للمؤلف بصفحتي (٢٧١ و٢٨٣) وكذلك أضفنا إلى الكتاب سبع مصورات وثلاث صور ليست بالأصل .

وإنا لنقدم فى الختام جميل شكرنا للأستاذ أحمد الشايب أفندى لتفضله بمراجعة الأصول وللأستاذ مصطفى السقا والأستاذ أحمد الناقص أفندي لمراجعة الصورة التى طبع الكتاب عليها .

ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى ما قصدنا إليه من مجاراة الروح العلمى الحديث بمصر ، وإمداده بما يناسب خطته ويساعد فى نضوجه والسلام

محمد نوفل محمد مصطفى زياده

الإسكندرية فى أول مايو سنة ١٩٢٧

فهرس

كتاب نابليون

فهرس الصور والمصورات

الخطأ والصواب

نرجو أن يصحح القارئ هذه الأخطاء في أماكنها من الكتاب.

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	١٠	التاسع	الثامن
٢٣	٨	النار	الثار
٢٥	٧	جامة	جامدة
٤٠	١٣ح	نابلون	نابليون
٤٢	١٦	يأتنموا	يأتمنوا
٤٧	٨	عليهما	عليها
٥١	٥	Foubert	Joubert
٨٦	١٣	التشريعين	التشريعيين
٨٨	٥	تنهى	انتهى
٩٣	١٨	السياسية	السياسة
٩٨	١	لاضطهاد	الاضطهاد
١٠٣	٨ح	سياسة	سياسته
١١٠	٥	القانونين	القانونيين
١١٣	٥	١٧٧٩	١٧٩٩
١٣٥	١٢	أيلامهما	إيلامها
١٣٦	٩	تولى	يتولى
٢٠٨	٧	أخضاع بلادا	إخضاع بلاد
٢١٠	١١	ارابع	رابع
٢١٥	٨	نرتيبه	برتيبه
٢١٧	٧	إسنج	إسلنج
٢٥٦	١٣	قلفا	قلقا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥٦	١٤	وقنوط	وقنوطا
٢٦١	٦	بى	نيابى
٢٧٩	١٤	حلق	خلق
٢٨٣	٥	إبها	إبْها





نابليون بونابرت

عن صورة كبيرة رسم جريفدون (Grévedon)

تفضل فأعارها لنا الأستاذ محمد رفعت صاحب كتاب « تاريخ مصر السياسي »

نابليـــــون

الفصل الأول

صباه

أذا ذكرنا نابليون بونابرت فكم يحضر الذهن من الأخيلة والذكريات ! من ذا الذى يجهل ملامح أكبر فاتحى العصور الحديثة ، وقائد قوادها ، بجسمه الصغير الذى يكاد يجعله في عداد الأقزام ، ورأسه المستدير ، وخده الزيتونى الشاحب ، وحاجبيه الكثيفين ، وأنفه وشفتيه وكأنها منحوتة مثل أجمل تماثيل القدماء ، وعينيه الغائرتين البراقتين الرماديتى اللون يتطاير منهما شرر كهربائى تارة ، وطوراً يغمرهما تفكير لا يعرف مداه؟ وقوامه لا شك مألوف أيضاً ، كما كانت مألوفة تلك الملابس التى طالما لذ المصورين رسمه بها . من ذا الذى لا يعرف تلك القوة الهائلة التى تتمثل فى صدره وكتفيه ، وتلك الصولة الباهرة التى تنم عليها كل أشارة وحركة منه ، وتلك الأسنان

البيضاء ، واليدين الدقيقتين ، وتلك القبعة المونقة ، والمعطف الطويل الرمادى اللذين طالما سار بهما إلى الظفر ؟ من ذا الذى لم ير صورته بطلا نحيلا صغيرا يقود الطلائع فيواقعة أركولا ، أوأمبراطورا جاثيا أمام محراب كنيسة نتردام رافلا فىالحلل الطويلة الفاخرة التى أعدت لحفل تتويجه ، أوقائداً عابسا على رأس كوكبة فرسان شاحبة تمشى متعثرة على ثلوج الروسيا فىالشتاء المهلك ، أوشبحاً فى عباءة واقفاًعلى ظهر سفينة بكتفين مقوستين وذقن مرتخ ونظرة في الفضاء مملوءة أسى تنبعث من عينين كئيبتين؟ أن الأفكار والعواطف التى تذكو لسماع ذلك الاسم المجيد ، لتشبه فيتباينها وتضاربها ما لقيهنابليون نفسه في أدوار حياته ، كما نراها فى صور المصورين . ومن المتعذر أن نعثر فى التاريخ كله على رجل مثل نابليون أثار عواطف متضاربة ، أو ملك ، وهو على قيد الحياة ، مشاعر الأعجاب فى الناس ، كما ألقى فى نفوسهم الرعب ، فحق عليه غضبهم . ولم يقف الأمر عند المعجبين به ، والناقمين عليه ؛ فأن أكثر النقاد تبصراً لينظرون إلى تاريخ حياته ، لا بآراء متباينة فقط بل بشىء من الحيرة أمام ما حوته من مواقف العظمة والدهاء ، التى كان منها ما هو حقيقى وما هو مزيف . فهو فى نظر هؤلاء الذين يتعبهم الفحص النفسى ، عبارة عن رجل عملى اتى بالمعجزات ، قام ولا جاه له ولا

ثروة ، وارتقى إلى ذروة الأطماع البشرية ، فدحض بذلك الدعوى القائلة : أن السياسة سر لا يدركه ألا قليل من ذوى الأنساب والألقاب . على أن ذلك الرجل الذى قالت عنه مدام دى ستائل[1] أنه "لم يبق لبنى الانسان من مخلفات قوته الهائلة سوى معرفة بعض أسرار جديدة فى فن الاستبداد" ، هو أيضاً وليد الثورة الفرنسية، وأنصع دليل على صحة المبدأ الديموقراطى : الذى نادى به ناصحاً بفتح أبواب الحياة في كل مجتمع لأصحاب المواهب . هذا ، وما دام الناس يقلبون صحائف الماضى بحثاً عما يحرك القلوب من تقلبات الزمن ، أو حبا فى استقراء عظيم حوادث السياسة ، أو رغبة فى

---

(١) ولدت مدام دى ستائل (Madame de Stael) سنة ١٧٦٦ في باريس وهى ابنة نكر (Necker) وزير المالية الشهير في فرنسا قبيل الثورة . نشأت في العز وأعجب رواد صالون أبيها بذكائها وهي في سن الحادية عشرة . ولقد بدأت تشتغل بالأدب والكتابة وهي بنت يافعة ، وتزوجت سنة ١٧٨٦ من البارون ستائل سفير السويد فى باريس فيما بعد . عاشت مدام دى ستائل ملكة صالونات باريس حتى قامت الثورة ، وتطرف زعماؤها فهاجرت مع المهاجرين الى انجلترا . ثم رجعت الى فرنسا سنة ١٧٩٥ واشتغلت بالسياسة والأدب ، لكن حكومة الادارة لم ترض عن مبادئها فهجرت فرنسا ثم عادت سنة ١٧٩٧ حين كان نابليون في بدء حياته العظيمة . الا أن نابليون لم يعجبها فلم تحدث بينهما صداقة ، وانقلب تعارفهما كراهية اضطرت معها الى ترك فرنسا .

رجعت مدام دى ستائل سنة ١٨٠٢ ، فأصبح صالونها بسرعة مجمع الحاقدين على نابليون والساخرين منه ، واستمر كذلك حتى عيل صبر الامبراطور سنة ١٨٠٤ . عند ذلك ابتدأ نابليون يضطهدها ، ولا شك أنه صغر من شأن نفسه باستمراره على ذلك ، إذ طردها غير مرة من فرنسا ، وصادر مرة أحد كتبها . ولما سقط نابليون رجعت الى باريس حيث لقيت كل حفاوة من لويس الثامن عشر غير أنها اضطرت للهروب لما رجع نابليون من إلبا . ولم ترجع مدام دى ستائل الي فرنسا بل ماتت فى ايطاليا سنة ١٨١٧

الاطلاع على أمثلة من أعمال القوة والارادة البشرية ، أو استقصاء لأسرار ذوى العواطف الحارة ، أو جريا وراء أدراك القوى البشرية التى تسيطر على العالم ، فأنهم سيواصلون درس حياة نابليون ، وسيجدون فيها دائماً قصة ، لا تقل في عجائبها عن أساطير الجبابرة والجن ، يظهر فيها أكبر انفجار للقوى البشرية : ذلك الانفجار الذى أحدث فى العصور الحديثة تغييراً كبيراً في حياة الانسان المتمدن.

ولد نابليون فى «أجاكسيو» في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ ، وكان ثانى أولاد شارل مارى بونابرت ومارى ليتيشيارامولينو . وأبوه من أصل فلورنسى له فروع فى بلدتى سار زانا وسان منياتو فيتسكانيا[١]. غير أن أجداد نابليون استوطنوا منذ عام ١٥٢٩ جزيرة قرشقه[٢] ، هناك بين المناظر الساحرة التى أودعتها الجبال الوعرة والغابات الكثيفة الحافلة بشجر الكستناء ، والسماء الصافية ، والبحار الزرقاء ، عاش آل بونابرت موضع احترام جيرانهم . وعلى الرغم من قلة ثرائهم ، فانهم بمحافظتهم على نسبهم ، وبموازنتهم بمستوى من حولهم الضاربين في السذاجة وشظف العيش ، كانوا معدودين أحسن أسرات أجاكسيو حالا . ولقد خدم في مجلس الجزيرة خمسة

(١) انظر مصور رقم ٣ ايطاليا

(٢) أنظر مصور رقم ١ جزيرة قرشقة للتحقق من مواقع البلاد الواقعة فى تلك الجزيرة والمذكورتهنا فى هذا الفصل من الكتاب

من آل بونابرت فى أوقات مختلفة ، غير أن الأدلة تثبت أن سلف نابليون من جهة الأم كان أكثر مقدرة من سلفه من جهة الأب. نعم كان أبو نابليون رشيقاً ذكياً ميالا إلى الشعر والبلاغة ، شأن كل أيطالى ، لـكنه كان مسرفاً مضطرباً فى أحواله المالية ، مغامراً للحصول على ما يريد من المال . أما أم نابليون فكانت امرأة مقطوعة النظير ، وكانت جميلة حفظت لآخر عمرها جمال وجهها وهيبتها ، اللذين كانا يكسبانها أعجاب الناس في كل مكان . وكانت ذات عقل سليم خال من الرياء والتصنع . وظلت تلك المرأة طول حياتها لاتتكلم الفرنسية ، أو تنطق بها ، بدون أن تغلط غلطات فاحشة . وكانت مقتصدة لدرجة الشح ، وعلى خلق قويم راسخ كطود من الصوان ؛ فقابلت تكاليف الحياة أول أيامها بثبات، ولم يغيرها ما وجدت نفسها فيه من العز فيما بعد . وليس أدل على كل ما تقدم من أن باؤولى [1]

---

(١) باسكال باؤولى (Pasquale Paoli) بطل تاريخ جزيرة قرشقة . ولد فيها سنة ١٧٥٥ وكان زعيم حركة تحريرها من حكم جمهورية جنوا . ثم ابتاعت فرنسا الجزيرة سنة ١٧٦٨ . ولقد أبى باؤولى تسليم الجزيرة للفرنسيين حتى غلب على أمره عام ١٧٦٩ . عند ذلك فر الزعيم الى انجلترا ثم عاد الى وطنه سنة ١٧٨٩ أبان الثورة الفرنسية . بيد أن أعمال الحكومة الفرنسية لم ترضه ، ونفرته من وظيفة الحاكم العام ، فنظم ثورة غرضها سلخ الجزيرة عن فرنسا وضمها الى انجلترا . ثم أخفق فى مسعاه وعاد ثانية الى انجلترا سنة ١٧٩٦ كسير القلب ، ومات قرب لندن فى سنة ١٨٠٧ . وقد نقل رفاته الى قرشقة عام ١٨٨٩ . هذا وسيمر القارى بكثير من اخبار باؤولي مفصلة فى متن الكتاب

دعاها فى سنة ١٧٩٣ . باسم كورنيليا (١) ، مشيراً الى أن تلك المرأة الريفية الحسناء ذات الذكاء والعزم ، خليقة بأن تكون أماً للأبطال.

فى منتصف القرن الثامن عشر كان من الشرف أن يكون الانسان من أهل قرشقة . وكان كل شغوف بالحرية يتتبع أخبار النضال المجيد الذى قام به سكان الجزيرة الصغيرة ، أولا ضد حكم جنوا الممقوت ثم ضد سلطان فرنسا . فى تلك الآونة كان اسم پاسكال پاؤولى — بطل حرب استقلال الجزيرة وزعيم الأمة وواضع شرائعها — مشهوراً فى كل عواصم أوربا . وكانت أوصاف الجزيرة البعيدة ، موضع إعجاب السياح والسواس الذين أثار بعدها فى خيالهم أخبار بطولة أهل العصور القديمة . لذا كانت قرشقة فى نظر أوربا كاليونان فيما بعد وهى تحارب الأتراك ، أو كجمهوريات البوير فى جنوب أفريقية وهى تقاوم الأمبراطورية البريطانية . أما نابليون الذى ولد فى تلك السنه التى انضوت فيها الجزيرة إلى فرنسا نهائياً ، فان سنى حداثته كانت مملوءة بحوادث ذلك النضال ، ولا بد أن أخبار مخاطرات تلك الحرب الطاحنة كانت تترى عليه من كل ناحية . من تلك أن أباه كتب مرة منشورا ثوريا لأهل قرشقة ، وأن

(١) كورنيليا (Cornelia) امرأة أحد مشاهير قواد الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى قبل الميلاد . ولقد خلفت من زوجها ابنين وابنة وترتكز شهرتها على حسن تربيتها لأولادها الذين خدموا روما خدمات جليلة بعد أبيهم

أمه ، قبل ميلاده بايام ،طوردت فى الغابات والجبال ، حيث شاركت الجيش الوطنى فى مخاطراته . إنما كان باؤولى فى أثناء تلك الفترة المثل الأعلى فى عين نابليون ، ولذلك كان أقصى أحلامه أن يكتب تاريخ الجزيرة مسقط رأسه ، أو أن يكون سبب تحريرها من الفرنسيين

اشتهر أهل قرشقة بالرزانة والشجاعة والاقدام ، وكان كره العدو عند القرشقى فضيلة ، والانتقام واجبا ، والعفو عاراً ، وكان يشعر بواجبه نحو عشيرته ، كما يشعر به ساكن الجبال فى اسكتلندا ، أو الالبانى أو الزولو (١) . وكان يتيه فخراً وثقة . وكان ذا حذر وفراسة فى حكمه على أخلاق الناس ، داهية فى التصنع ألا إذا أثيرت حفيظته فأفسدت كل شيء . وكان شرفه يمنعه من السرقة ، ويأمره بالكرم وحسن معاملة المرأة لكدها فى المنزل والحقل معا ، فالقرشقى بوجه عام كان شديد العزم ، رزيناً لاينغمس فى الملاهى ، وقد يجلس ليلعب الورق فلا ينبس ببنت شفة ، ويتحمل التعذيب دون أن يظهر ضجراً . لكنه كان مع ذلك أذا استهواه الحديث ينطلق بالكلام كالسيل ، مما يدل على تلك الهمة النزاعة الوثابة التى لاتطيق صبراً ، والتى كانت حلية القوم كلهم . بتلك الصفات ، وبعض صفات أخرى ، كان نابليون قرشقيا لحما ودما .

---

(١) الزولو فرع من جنس البانتو المنتشرة فى جنوب افريقية

قضى نابليون معظم أيام المدرسة فى فرنسا، فلم ير مسقط رأسه، ولا وجه أمه لمدة سبع سنوات وتسعة أشهر : غادر أجاكسيو فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٧٨ ليتعلم اللغة الفرنسية فى أوتان (Autun) [1] بفرنسا وكان عمره إذ ذاك تسع سنين ؛ ولما رجع إليها بأجازة فى سبتمبر سنة ١٧٨٦ كان عمره سبعة عشر عاما، وضابطا فى آلاى من آلايات المدفعية . مع ذلك كان غيابه الطويل مثيراً لوطنيته، مذكيا لنار الحماسة في فؤاده . والسبب أنه كان يشعر دائما أيام تلمذته في برين (Brienne) وأيام أن كان طالبا بالمدرسة الحربية فى باريس، أنه فى أرض معادية، يتكلم بلغة غير لغة أهله، ويضطر لمخاطبة صبية يحتقرونه للكنتة الاجنبية وماله القليل وحسبه المعدوم . أدى به ذلك الشعور بالغربة الى التفكير فى سريرته كثيراً، حتى أنه بعد أن كان أيام طفولته عربيداً مشاغباً، أصبح عبوساً غير محبوب بين زملائه «وجافا كالقضيم»، — كما قال هو عن نفسه — تجيش فى صدره الأطماع .

لم يكن نابليون قديراً فى حذق اللغات ؛ لكنه أظهر منذ طفولته ميلا للعلوم الرياضية شحذه فيه أساتذته الفرنسيون . كان أبوه يريد من أول الأمر أن يلحقه بالبحرية، لكن الفكرة تغيرت — وربما

(١) انظر مصور رقم ٢ فرنسا للتحقق من مواقع البلاد الفرنسية المذكورة في فصول الكتاب

كان هذا نزولا على رغبات نابليون نفسه — قبل أن ينتهى من حياته الدراسية فى برين . وقر الرأى على أن يدخل المدفعية ، لانها الفرع الوحيد من فنون الحرب الذى ترجح فيه كفة الذكاء وحب العمل كفة ضآلة الشكل والجسم . ولقد أظهر نابليون من أيام طفولته ميلا للحياة الحربية ، فكان وهو فى طريقه إلى المدرسة الصغيرة فى أجاكسيو يستبدل بخبزه الابيض خبزا أسمر خشنا من جرايات المعسكر ، قائلا أنه يروض نفسه على حياة الاجناد .

أما الدلائل التى تشهد على نموه العقلى والخلقى في ذلك الطور من حياته ، فانها مقنعة فى ذاتها على رغم قلتها . من تلك أن رسائله إلى أهله من المدرسة كانت جدية جلية . أليك مثالا مما كتبه وهو فى الرابعة عشرة ، يصف أخلاق أخيه الأكبر يوسف قال ما معناه : إن ولعه بالهزل لايهيئه لحياة الجيش فليكن قسا . ولما علم بموت والده ، كتب وهو في الخامسة عشرة خطابا مملوءاً شعوراً ناضجا قال ,, ولقد فقد البلد مواطنا فطينا متنوراً أمينا ، لكن هكذا قدر المولى تعالى ،، . أمام ذلك الجد وتلك الرزانة نسائل أنفسنا هل كان نابليون صبيا أيام صباه — أيام رأى أن مهنة الحرب ليست مجال المظاهر الخلابة ، بل أنها العلم الذى يحتاج استيعابه إلى الانهماك فى الدرس حتى ينال صاحبه العظمة السياسية . لذلك كانت دراسة التاريخ

والجغرافيا أحب الاشياء إليه ، وطالما خيل أليه أنه أحد أبطال قصص بلوتارك[1]، وكان كتاب "بحث في تاريخ العالم"، الذى كتبه بوسيوه[2] وسرد فيه تاريخ تعاقب الدول، أول ما حرك في نفسه الأطماع.

في ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٨٥ ترك نابليون المدرسة الحربية في باريس ليلتحق بآلاى لافير الذى كان مرابطا عند ڤالنس. وكان إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره، لايملك مالا ولا أصدقاء، ولا يعرف أحداً من ذوى النفوذ يستعين به على الرقى في الجيش. مات أبوه، ومات كذلك ماربو وبوشبورن الموظفان الفرنسيان في قرشقة، اللذان كانا يتعهدان بالعناية أسرة نابليون بعد وفاة عائلها. وضاق بأمه الحال بينا كان راتبه الاسبوعي وهو في وظيفة ملازم ثان، لايتجاوز الخمسة والثمانين قرشا مصريا، فاذا قعد نابليون أمام تلك الحال ساكنا فانه ينتظر ست سنوات حتى يصبح ملازما أول، وستا أخرى حتى يصير يوزباشيا. وإذا استمر على ذلك المنوال فقد يجد نفسه، وهو في مقتبل العمر، من المحالين على الاستيداع، وحينئذ لا يكفى راتبه

---

(١) بلوتارك (Plutarch) كاتب يوناني عاش في القرن الأول الميلادي وأشهر كتبه "الموازنة بين العظماء" الذي يحتوي على تراجم كثير من مشاهير اليونان والرومان في العصر الذى قبله.

(٢) ولد جاك بوسيوه (Jacque Bossuet) في فرنسا سنة ١٦٢٧ ودرس العلوم الدينية ونبغ فيها. ثم ذاع صيته حتى استدعاه لويس الرابع عشر للوعظ في كنيسة اللوفر سنة ١٦٦١. وبقى بوسيوه في باريس، وعين استاذا لولى العهد، ويقال أنه كتب من أجل تعليمه كتابه المذكور الذى يعتبر فخر مؤلفاته.

الجسد رمقه . لكن ذلك المستقبل المظلم شدد من عزمه ، فاستعان على حاله بالقصد فى المعيشة ، ولما كان غير قادر لقلة ما بيده على الانغماس فى الملاهي الدنيئة أكب على الدرس والمطالعه . وصف نابليون فيما بعد تلك الأيام قال : ,, كنت أشعر دائما أن الوقت من ذهب حتى فى الاوقات التى كنت فيها خلواً من العمل ،، .

كان فى فرنسا فى ذلك الوقت مجموعة من الأدباء ، امتازت كتابتهم على ما سبقها في تاريخ الأدب الأوربى بدقة وسمو مراميها ، واستهوائها القارىء للاستزادة مما حوته من الجمع بين الأمل والعواطف والفكاهة . أولئك الكتاب هم الفلاسفة الفرنسيون فى القرن التاسع عشر ، الذين قاموا ينادون بتحكيم العقل والانسانية فى أمة بدأت تشعر أنها تعيش تحت أنظمة هي فى الحقيقة بقايا غير صالحة من أزمنة همجية تسودها الأوهام . هاجم أولئك الفلاسفة كل ركن من أركان النظام الفرنسى ، مستعينين بأوسع المبادىء ، موجهين استفهامات محرجة ، شارحين للملأ ماذا يكون فى الحياة من سعادة لو قضى على ظلام النظام القائم واستعيض عنه بنظام مسير بحزم وتفكير . ولقد جاد كل كتاب العصر على اختلاف مذاهبهم وأمزجتهم على تلك الحركة الأدبية ، وأليك ڤولتير وأسلوبه الممتع وكتابته الرشيقة ، وترجو وسياسته الفلسفية الرصينة ، ورينال

وموهبته فى الأسلوب الخطابي ، وروسو ومقدرته الفذة على أن يكتب بلغة موسيقية اعترافات نفس حساسة وتصورات عقل منطق . لا جرم أن مطالعة كتب أولئك الأدباء فى الغرفة الحقيرة الموحشة ، التى كان يسكنها نابليون ، وهو ملازم ثان فقير معدم ، كانت بمثابة تربية عقلية واسعة النطاق . ولا غرابة أن يفتتن نابليون ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، بأمثال روسو ورينال ، وأن يراض على الترحيب بثورة سياسية فى فرنسا .

أتيح لنابليون مدة السبع السنين الأولى فى الجيش فرص كثيرة للمطالعة ، إذ كانت أعماله قليلة وأجازاته كثيرة طويلة . وكان يتأجج فى قلبه نار حب الاستفادة ، شأن الذين تنشرح صدورهم لأول مرة . كتب لأمه يصف حياته فى ذلك الوقت قال : " ليس لدى ما يشغلنى غير عملى . وأنى أنام قليلا ، إذ أذهب إلى مضجعى الساعة العاشرة مساء ، وأصحو الساعة الرابعة صباحاً ، وآكل مرة واحدة في الساعة الثالثة كل يوم " . نتج عن كثرة مطالعة نابليون لكتابات الفلاسفة المتقدمين أن أصبح يحتقر الرهبان ، ويكره الملوك ، ولا يؤمن بمذاهب الديانة المسيحية . غير أن الفلسفة لم تصادف هوى فى نفسه ، ولم تستهو أخلاقه ، لأن عقله من الصنف الذى لا تؤثر فيه العلويات ، يلذه قراءة الوقائع والأرقام ، ويمعن في مطالعة

كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات ، ابتغاء معرفة الحال السياسية في العالم الذي يعيش فيه . هذا ويظهر من كراساته المدرسية كيف كان ماهراً في علم الحساب ، ألا أن ولعه بالملموس كانت تشوبه عواطف روحية ، غير مقصورة على ما يخالج ضمائر الشباب الثائر ، بل حاوية لما تصبو اليه أفئدة ذوى الأغراض والمطامع . لذلك كانت حاله أشبه بمن يحلم بالعظمة ويصبو أليها ، وهو لا يزال كلفا بمواجهة الحقائق ورؤية الأشياء واضحة والرجال على أشكالهم المجردة . فكان يرى فى أوسيان[1] وفرتر[2] مثلين في حب التعمق فى أسرار الكائنات وما وراءها ، وفى كورنى وراسين[1] كيف يبلغ الفرد أوج عظمته المدنية . كما رأى أن التاريخ ليس دائرة معارف وحقائق فقط ، ” بل أساس العلوم الوضعية ومنارة الحق والعامل على قطع دابر التحيز “ ؛ لذلك كان مطمحه أن يضع تاريخ بلاده ، ليشهد العالم على ما ثارت

---

(١) شاعر أرلندى قديم نظم قصائد فى وصف أبطال الجنس العالى الذى نزح من اسكتلندا ألى ارلندا وسكنها لأول مرة فى الأزمنة القديمة . وقد ترجمت قصائد أوسيان الي الانجليزية سنة ١٧٦٣

(٢) آلام فرتر قصة ألفها الكاتب الألمانى جيته سنه ١٧٧٢ ، ترجمها ألى العربية الاستاذ أحمد حسن الزيات افندى . والقصة نفسها تعطى صورة واضحة عن الحركة الأدبية فى أوربا فى القرن الثامن عشر .

(١) كان كورنى وراسين (Corneillle, Racine) اكبر الكتاب المسرحيين فى فرنسا فى أواسط القرن السادس عشر ، وظلت رواياتهما حية حتى منتصف القرن التاسع عشر .

ضده من الاستبداد الذي ترسف في أغلاله. أراد ذلك ولو أنه شحذ قلمه غير مرة في كتابة مقالات وقصص صغيرة، شأن من يدرب نفسه على كتابة الروايات الخيالية. وفي سنة ١٧٨٧ شرع يكتب «رسائل عن قرشقة»، وبعد ذلك بقليل جمع معلومات كثيرة وهو في أجاكسيو، ليؤلف تاريخاً مفصلا عن الجزيرة.

جاءت الثورة الفرنسية، ففتحت أبواب الأمل لكل فقير ومحروم في فرنسا. أما نابليون فلم يحلم ألا بقرشقة، وظن أن اقتربت الساعة لتحرير بني وطنه من ربقة البيروقراطية[1] الفرنسية. لذلك حصل على أجازة في سبتمبر سنة ١٧٨٩، وذهب مع أخيه الأكبر يوسف إلى قرشقة، وأوغل في ثورة القرشقيين[2]، فخطب في الاندية، وألف عرائض ثورية مهيجة، وساعد على إنشاء حرس أهلي، حتى أصبح في أجاكسيو بلدة الصيادين رأس الحركة ضد القساوسة والاشراف. وفي سنة ١٨٩٠ نجح بوسائل غير مشروعة في انتخابه قائداً ثانيا لفرقة من المتطوعين القرشقيين، معتقدا أن الانتخاب لايتضارب مع وظيفته في الجيش الفرنسي. ولقد وقف

---

(١) البيروقراطية والارستوقراطية والاتوقراطية والديموقراطية كلمات صاغتها اللغات الغربية للدلالة على انواع مختلفة في حكم الامم. والبيروقراطية معناها نظام الحكم القائم على المركزية المدرجة التي يكون فيها الموظف مسئولا أمام رئيسه المباشر فقط.

(٢) قامت الثورة الفرنسية في الجزيرة ايضا باعتبارها من ولايات فرنسا التي ثارت ضد النظام القديم

نابليون بحكم وظيفته الجديدة على أسرار قيادة الجيوش غير النظامية ؛ أنما طرأ تغيير على أفكاره السياسية حينما ألغى النظام الحكومى فى قرشقة (٣٠ نوفمبر سنة ١٧٨٩) ، وأصبحت الجزيرة مديرية من مديريات المملكة الديموقراطية الجديدة فى فرنسا ، بعد أن كانت مستعمرة من مستعمرات التاج . ذلك أن حبه القديم لقرشقة لم يتغير ، بيد أن عداءه لفرنسا أخذ يزول ، ولا سيما أن الجمعية الاهلية فى باريس اعترفت بمزايا مواطنيه ، وأذنت لباؤولى بالعودة إلى بلاده ورخصت بتمثيل قرشقة في النظام النيابى الذى اعتزمته فرنسا .

لكن أبى القدر أن يكون نابليون حاكم شعب من رعاة الاغنام ورواد التلال الخضراء . وذلك أنه لما نشبت الحرب بين أوربا والثورة ، وأصبحت الحكومة فى باريس فى أيدى اليعقوبيين ، اتهم باؤولى زعيم القرشقيين ، (وكان من أول أمره من دعاة الملكية الدستورية ومدينا لانجلترا لاكرامها إياه أيام نفيه) بأنه من حزب المعتدلين الممالئين لانجلترا . قوى تلك التهمة خيبة حملة بحرية فرنسية أرسلت ألى مادالينا وهى جزيرة صغيرة على مقربة من سردينيا[1] ؛ أذ اتهم باؤولى بأنه السبب فى فشلها ؛ لتهاونه وفتوره في قيادتها ، مع أن السبب الحقيقى حدوث فتنة بين البحارة . انتهز تلك الفرصة لوسيان

---

(١) انظر مصور رقم ١ جزيرة قرشقة

بونابرت أخو نابليون ، الذى رفض باؤولى مرة أن يعينه ناموسا له ، وكان سنه أذ ذاك ثمانية عشر ربيعا ، وقال ان باؤولى خائن ، وكتب لليعقوبيين أن زعيم قرشقة لايصلح ألا للمقصلة . قبلت الحكومة فى باريس بدون تمحيص قول ذلك الشاب الثورى ، وقررت فى ابريل سنة ١٨٩٣ القبض على باؤولى ، وعهد لمندوبى المؤتمر الأهلى فى باستيا [١] فى أنفاذ القرار . قامت قيامة أهل قرشقة عند وصول أخبار تلك الاهانة التى لحقت برجل يعتبرونه أبا لهم وزعيما حقبة من الدهر . أما باؤولى فانه احتمى بحصن كورت [٢] الجبلى ، حيث التف حوله المخلصون من رجاله الرعاة ، وأعلن استعداده لملاقاة كل ما تنويه فرنسا نحوه : عند ذلك أضحت الجزيرة على باب فتنة داخلية ، وأصبح مركز آل بونابرت حرجا بسبب الفعلة الطائشة التى أتاها لوسيان .

أما نابليون فقد تغيرت حماسته الأولى نحو الثورة الفرنسية ، لأنه مضى صيف عام ١٧٩٢ في باريس ، وشاهد الهجوم على قصر ألتويلرى فى ٢٠ يونيه من السنة نفسها ، ومذبحة الحرس السويسرى فى ١٠ أغسطس ، فكبر على تربيته العسكرية أن ترى الغوغاء تعيث فساداً ، وأن ترى فرقة منظمة تمزق ، لعدم وجود

(١) و (٢) انظر مصور رقم ١ جزيرة قرشقة

قائد حازم مقدام . قال دهشا لصديقه بورين [1] بينما كانت الجموع تتدفق نحو قصر الملك في ٢٠ يونيه : ”ما أجبنهم ! (يعنى القائمين بالدفاع عن القصر) كيف يسمحون لهؤلاء الرعاع بالدخول ؟ أليس في مقدورهم القضاء على أربعمائة أو خمسمائة من تلك الجموع بقوة المدافع فتلوذ البقية بالفرار ؟ “ وفى أثناء مذبحة ١٠ أغسطس ذهب إلى حدائق التويلرى ، وتمكن مصادفة بعبارة خلابة أن يقف أحد أهل مرسيليا عن ذبح رجل قائلا : ”أى رجل الجنوب ! جدير بنا أن نخلص هذا التعيس “ . بالجملة شفت تلك المناظر نابليون من أحلامه الأولى ، فكتب إلى أهله أن اليعقوبيين قد أصابهم جنون ، وأن الحكم بيد شرذمة من الدساسين السفلة ، وأن الناس إذا فحصنا عن أعمالهم وجدناهم لا يستحقون الجهود التى تبذل لأرضائهم . في وسط

---

(١) لويس بورين (Louis Bourrienne) زميل نابليون فى المدرسة الحربية فى برين . التحق بالخدمة فى الوظائف الدبلوماتية ، وفى سنة ١٧٩٥ رجع بورين ألى فرنسا فوجد نابليون قائداً فى الجيش الفرنسى وحاكما حربيا على باريس ومن ذوي النفوذ فيها . وفى سنة ١٧٩٦ طلب نابليون من صديقه ان يكون ناموساً له فقبل ، وبقى مستودع اسرار نابليون حتى بعد ان أصبح امبراطوراً . ثم عزل لاتهامه بالتلاعب فى الاعطية الخاصة بميرة الجيش . وفى سنة ١٨٠٧ عفا عنه نابليون وعين ملحقا سياسيا لسفارة هامبورج ، غير انه ارتكب جريمة التلاعب ثانية ، فأعيد الى فرنسا ، وحكم عليه بدفع مليون فرنك غرامة للخزينة الفرنسية . لم يغفر بورين لنابليون ذلك الحكم القاسى ، وبقى من ذلك الحين حتى مات سنة ١٨٣٤ من أشد أعداء نابليون واسم نابليون . ولقد كتب بورين مذكراته فى عشر مجلدات طبعت فى باريس سنة ١٨٢٩ ، وصف فيها نابليون فى جميع ادوار حياته ، وذكر دخائل أطماعه .

ذلك الأرهاب ، وجد نابليون سلوة فى دراسة علم الفلك الذى اعتبره "العلم السامى" .

رجع نابليون إلى قرشقة في خريف سنة ١٧٩٢ برتبة يوزباشى ، وعلم أن اسرته مغضوب عليها من باؤولى ملك قرشقة غير المتوج ، الذى حال دون انتخاب يوسف بونابرت للمؤتمر الأهلي في باريس ، لأن باؤولى سياسي قديم لا يعتقد فى كفاية شبان أسرة بونابرت اليعقوبيين الذين أعانوا عليه أعداءه . وعلى الرغم من ذلك لم يقطع نابليون علاقته بالرجل الذى ظل زعيم الناهين من أهل الجزيرة فتولى تحت زعامته قيادة المدفعية فى تلك الحملة التعسة إلى ما دالينا . ولما حملت الأنباء إلى أجاكسيو قرار القبض على باؤولى كتب نابليون عريضة للمؤتمر الأهلى في باريس ، يحتج بلهجة شديدة على المعاملة السيئة المجحفة بوطنى عظيم شريف مثل باؤولى . بيد أن الفتنة التى قامت فى قرشقة كانت أشد من أن تهدئ ثائرتها رسالة مهما تبلغ عبارتها من الحماسة ، لأن البونابرتيين كانوا أصدقاء ساليتشى (Salicetti) حاكم الجزيرة من قبل فرنسا ، وأنهم بذلك أعداء باؤولى . ولما شاع خبر طيش لوسيان فى بلدة كورت ، استحال بذلك عمل أى ترضية ، وأصبحت المسألة حرباً بين أهل بونابرت ومن يمالئونهم وبين أهل الجزيرة . حدث فى أثناء تلك الشحناء أن أخذ نابليون أسيراً فى قرية

بوكونيانو (Bocognano) الجبلية ، ثم تمكن من الهرب ، واختفى في أجاكسيو ، ومنها فر إلى شمال الجزيرة . وحدث ذات ليلة ، بعد ذلك بقليل ، أن أوقظت أم نابليون في جوف الليل ، لتهرب بأربعة من أولادها ألى وادى الزيتون الجميل قرب بلدة ميللى (Milelli) ، ومن هناك الى حصن كابيتلو على البحر . وحدث أن أنصار باؤولى صبوا جام غضبهم على آل نابليون والمنتمين إليهم ، فأحرقوا لهم ستة بيوت وطاحوناً وبستانين ، فما كان من نابليون أزاء تلك المطاردات ، ألا أن سافر هو وأسرته على ظهر سفينة ، قامت من ميناء كالفى في ١٠ يونيه سنة ١٧٩٣ ، ووصلت طولون بعد ثلاثة أيام . كل تلك الحوادث يمكن استيفاء تفاصيلها من بطون الكتب الكثيرة ، أو من أحاديث أهل الريف الحالين في منازل قرشقة الحجرية .

كان ذلك الصيف حافلا بالحوادث في فرنسا : ففى الغرب قام الملكيون فى وجه الحكومة ، وفي نورمنديا قام الجيرونديون [1]

---

(١) انقسمت الأحزاب فى الجمعية التشريعية من بادئ الأمر الى ثلاثة ، وهى الحزب اليعقوبى المتطرف ، وأشهر أعضائه جماعة الجيرونديين ، نسبة ألى اقليم الجيروند الذى انتخبوا عنه . وكان الحزب اليعقوبى حزب اليسار ، ينقم على الدستور الفرنسى الجديد ، بعكس حزب الفويان الذى كان يعاضد الدستور ولذلك كان هو حزب اليمين . أما الحزب الثالث فكان اسمه حزب الوسط اشتمل على أفراد عرفوا بالحذر والتردد فكانوا يخدمون الحزب بعد الآخر دون اتخاذ خطة سياسية معينة ، اللهم الا خطة الميل للأغلبية ، وهذا اضعف الأيمان في السياسة.

(Girondins) أيضاً ، كما قاموا فى بردو ومرسيليا ؛ وفى ليون قامت ثورة خطيرة . واسترد الحلفاء بلجيكا ، وأجلوا الفرنسيين عن مراكزهم الحربية على الحدود مثل ماينس وكونديه وڤالنسين ، فأصبحت فرنسا مهددة بزحف جيوش الحلفاء إلى داخلها . وفى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٣ وصل طولون ، الميناء الحربية المهمة على البحر الأبيض المتوسط ، أسطول انجليزى يخفق عليه علم لويس السابع عشر . لم تشهد الحكومة وقتاً أشد خطراً على كيانها ، وعلى وحدة فرنسا ، من ذلك الوقت الذى ترك المعتدلين المتوسطين حيارى لا يعرفون أى منقلب ينقلبون ، أذ كانوا بين عوامل متضاربة : حكومة ملطخ اسمها بقتل الملك ، وبتجاوز الحد فى أحكامها العرفية ، وعلم أبيض يخفق رمزاً للرجعية ، وجيوش للحلفاء تتقدم وتتوغل في البلاد تحمل لها الاهانة والعار .

لم يجد نابليون صعوبة فى تخير طريقه : رأى من صالحه أن ينضم للحكومة القائمة رغم احتقاره لساسة باريس القابضين على زمام الأمور ، فأعلن فى صراحة ، أن حياة فرنسا متوقفة على حزب الجبليين (١)

---

(١) لما انعقد المؤتمر الأهلى بعد الجمعية التشريعية فى سبتمبر سنة ١٧٩٢ كانت الأحزاب المبينة فى الحاشية السابقة قد تغيرت أوضاعها ومبادئها : أذ أصبح الجيروندبون حزب اليمين وأصبح بقية الحزب اليعقوبي حزب اليسار . وكان فى الحزب ثلة شديدة التطرف أخذت مقاعدها فى أعلى شرفات المجلس فلقبوا بالجبليين (Montagnards) وكان بين حزبى اليمين واليسار حزب ثالث عرف اعضاؤه باسم السهل (La Plaine) وكانوا يتبعون رأى الفريق الأقوى .

بعد ذلك بقليل ، اى فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٣ : التحق عملا بنصيحة صديقه القرشقى ساليتشتى كقائد للمدفعية بجيش الجمهورية المعسكر أمام طولون ، حيث ظهرت صفاته العسكرية لأول مرة . ذلك أنه رأى قبل أن يخطر ببال أحد أن نجاح الحصار يتوقف على أرغام الأسطول الانجليزى على ترك الميناء الداخلية ، وأن أحسن وسيلة للوصول ألى ذلك الغرض هو حصن ليجيات (L' Eguillette) الواقع في نهاية الطرف الغربى من رأس كير (Caire) . وبعد مضى ثلاثة أشهر قضاها نابليون بعزيمة لا تكل وشجاعة لا تفل توجت أعماله بالنجاح التام ؛ أذ دخلت جيوش المؤتمر الاهلى طولون ظافرة فى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٣ ، وأتت من أعمال الانتقام الشنيعة ما أنسى الناس فظائع أيام الحصار . لاجرم أن الحكومة — وعلى رأسها روبسبير [1] — أصبحت مدينة للضابط الشاب الذى تسبب فى ذلك الانتصار الباهر ، فى وقت ما كان أحوج الحكومة أليه . لذلك كافأته بالترقية ألى رتبة لواء ، وفى ربيع سنة ١٧٩٤ أوفدته — بناء

---

(١) ولد مكسمليان روبسبير (Maxmilian Robspierre) سنة ١٧٥٨ فى باريس وتربى فى كلية بها حيث تعرف بدءولان (Desmoulins) التى كان له بعدئذ شأن كبير فى الثورة الفرسية . وفى سنة ١٧٨١ أصبح روبسبير محاميا ، وانتخب سنة ١٧٨٩ لمجلس طبقات الأمة ، وصار بسرعة أحد زعماء حزب اليسار ، وظل نفوذه يزداد حتى أيام المؤتمر الأهلى وحكم الأرهاب ، حين عين عضوا فى ”لجنة الأمن العام“ ، ثم انفرد بالسلطة ، وأصبح الحاكم المطلق فى فرنسا لمدة ثلاثة شهور من ابريل ألى يوليه سنة ١٧٩٤ .

على طلبه – إلى جنوا بحجة المخابرة لتوريد مواد غذائية ، والغرض الحقيقى درس الجهة تمهيداً لأعلان الحرب .

لايخفى أن حياة أى قائد من قواد جيش الجمهورية ، مهما يكن إخلاصه وقدره ، كانت متوقفة على وشاية واش أو كيد كائد . مثل ذلك أن نابليون كان صديقا لروبسبير ، والرسول السرى لحكومة الأرهاب (١) ، ومع ذلك اشتبه في اشتراكه فى ثورة ترميدور (٢) ؛

(١) بعد أن حوكم لويس السادس عشر ملك فرنسا ، وحكم عليه بالاعدام فى ١٧ يناير سنة ١٧٩٣ ، رأى زعماء الثورة أنه قد تحتم عليهم المضى فيما شرعوا فيه من الارهاب ، سواء أرغبوا فى ذلك أم كرهوا ؛ حتى لاتسنح الفرصة للرجعيين وانصار الملكية بالثأر منهم . وكانت الظروف كلها قد تهيأت لهم لتحقيق اغراضهم فقد أحاطت بالبلاد اذ ذاك أخطار عدة نشأت عن حالة الفزع التى أوجدها قتل الملك فى داخل البلاد وخارجها .

(٢) تفصيل ثورة ترميدور انه لما خاف كثير من أعضاء المؤتمر الأهلى على ارواحهم من فتك روبسبير الذي أصبح الحاكم بأمره فى فرنسا ، وبدأوا يحسون ألا حاجة للارهاب واراقة الدماء ، تآمروا على روبسبير وانتهى الامر بأرساله الى المقصلة في ٢٩ يوليه سنة١٧٩٤الموافق ١٠ترميدور بحسب تقويم الحرية الفرنسية .

هنا يجدر ذكر شىء عن تقويم الحرية الفرنسية ، الذى وضعه المؤتمر الأهلي ، ليحل محل التقويم الجريجورى ، على ان يكون مبدؤه تاريخ اعلان الجمهوريه فى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ . وقد وضعت فى التقويم أسماء جديدة للأيام والشهور والفصول ، ومحى نظام الأسابيع : فقسمت السنة الى اثنى عشر شهرا وهى فندمير وبرومير وفريميرونيفوز وبليفوز وفنتوزوجرمينالوفلوريال وبريرال ومسيدور وترميدور وفريكتيدور . والمتأمل فى معانى تلك الأسماء فى اللغة الفرنسية يجد أنها تدل على المواسم الزراعية والجوية المختلفة فى فرنسا . وكان كل شهر بحسب ذلك التقويم يحتوى على ثلاثين يوما ، مقسمة الى ثلاثه أقسام ، كل قسم منها عشرة أيام . وكانت أسماء الايام عددية ومبنية على اللاتينية ، وكان اليوم العاشر دائماً يوم عطلة ليحل محل يوم الأحد فى التقويم الجريجوري . ولكي يوفق بين سنة تقويم الحرية الفرنسية والسنة الشمسية اتفق على اضافة خمسة أيام فى آخر كل فركتيدور ليكتمل عدد أيام السنة ٣٦٥ ، على ان تكون تلك الخمسة الأيام عطلة .

ولما رجع من جنوا مزوداً بالمعلومات الجغرافية ، اتهم بأنه كان الرأس المفكر لروبسبير ، ونزعت منه درجته الحربية ، وزج في أعماق سجن حصن كاريه (Carré) قرب أنتيب (Antibes) في ١٢ أغسطس سنة ١٧٩٤ غير أن أوراقه لم يوجد بينها ما يثبت عليه التهمة ، لأنه كان يتجنب التدخل في الأمور مع ذلك الحاكم الراحل . يثبت ذلك أنه لما عرض عليه مكسمليان روبسبير قيادة الجيش الداخلي في باريس رفض اعتقادا منه أن ليس لأى عنق نجاة من المقصلة في تلك المدينة ، وأن آونة اكتساب أكاليل النار فيها لم تحن بعد . أفاد ذلك الحذر نابليون ، إذ لم تثبت عليه التهمة الموجهة أليه ، فأطلق سراحة في ٢٠ أغسطس ، وأعيد ألى رتبته الحربية بعد ذلك بقليل . وسرعان ما برهن نابليون من جديد على عظم مواهبه ، لما شنت عن بلدة ديجو (Dego) ، في ٢١ سبتمبر ، شمل فرقة من النمسويين ، حاولت قطع المواصلات بين فرنسا وجنوا ، وكان الفضل في ذلك للحركات الصائبة التى دبرها بصفته قائد المدفعية .

منذ ذلك الوقت أصبح نابليون شغفا بتولى قيادة الجيوش في أيطاليا ، لألمامه بطبيعة أرضها ، ولأنه كان قد رسم خطة يمكن بتنفيذها القضاء على الجناح الأيسر للتحالف الأوربى ضد فرنسا . لكن الحكومة حالت بينه وبين ذلك ، واستدعته ليذهب مع الجيش

المكلف بأخماد الثورات فى غرب فرنسا برتبة أمير لواء المشاة . راى نابليون أن لوأطاع الأمر ، فأنه سيلقى عملا لايدرى مداه ، وأنه سيخوض غمار حرب أهلية كلها مخاطر ، ليس من ورائها فائدة ، ضد عصابات غير نظامية من الأشراف والفلاحين الملكيين . ولذا ذهب إلى باريس ، وامتنع بجرأة عن تنفيذ ما كلف به ، بحجة المرض ، معتمدا على معاضدة بارا (Barras) وفريرون (Fréron) زعيمى حزب الأغلبيه ، اللذين شاهدا بأعجاب مقدرته فى حصار طولون. ظل الحظ باسما لنابليون فترة من الزمن ، فاستشارته لجنة الأمور الحربية ليرسم خطة جديدة للقتال فى إيطاليا ففعل ، وقبلتها الحكومة ، وبعثت بها لتنفذ فى ميدان القتال . غير أن المقادير شاءت أن يحال دولسيه بونتكولان (Doulcet Pontecoulant) على المعاش ، وكان ظهير نابليون وصديقه فى الدوائر الرسمية . بذلك أصبح نابليون ولا عضد له ، وتنبهت وزارة الحربية لمعاندته القديمة ، وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٥ بينما كان ينتظر أن يوفد إلى القسطنطينية لتنظيم قوات المدفعية فى جيش السلطان ، شطب اسمه من قائمة القواد .

أنقذ نابليون من تلك السقطة قيام ثورة فى باريس : ذلك أن المؤتمر الأهلى الذى أصبح مكروها بحق من كل المنتمين للملكية ، ومن كل المعتدلين ، أثار غضب الناس لما قرر أن يكون ثلثا الأعضاء

فى الهيئة التشريعية المقبلة تحت نظام حكومة الأدارة الجديدة من أعضائه . أخذ الناس يقولون إن قرارا كهذا ، ليدل على أن كل ماعمل للخلاص من حكم الأرهاب ، ولمنح فرنسا حكومة منظمة محترمه ، ليس ألا كلاما لاقيمة له . وقالوا أيضاً مافائدة الدستور الجديد ومجلس الأدارة الخماسى ، ومجلس الشيوخ ، ومجلس الخمسمائة ، وما إلى ذلك من الاحتياطات التي اتخذت لمنع تسلط الغوغاء — إذا ظلت دفة الأمور فى يد تلك العصابة التى وقفت جامة أمام مذابح سبتمبر [1] ، والتى نفذت حكمى اعدام الملك والملكة ، والتي حولت باريس ألى مجزرة ، والتى أزهقت روح ولى العهد بأيداعه سجن الهيكل بضع سنين ؟ عزم الحرس الأهلى المؤلف من ثلاثين ألفا على الانتقام من تلك الهيئة التى قررت « قانون الثلثين » المقوت ؛ ولما كان الجيش الموالى للمؤتمر لا يزيد على خمسة آلاف ، باتت الحكومة فى خطر شديد .

تخلص المؤتمر من ذلك المازق الحرج يوم ٥ اكتوبر سنة ١٧٩٥ بفضل مدافع القائد نابليون ، الذى عين ثانياً بوساطة بارا الذى لم ينس

---

(١) كانت أواخر أيام الجمعية التشريعية . أغسطس سنة ١٧٩٢ أياما عصيبة فى فرنسا لاقتراب الأعداء من الحدود . لذلك قررت الجمعية القبض على الأشراف حتى يأمنوا شر الخيانة فامتلأت بهم السجون . ولما وافت الأخبار بسقوط فردان فى يد الأعداء لستولى الجزع على الجميع وطافت بالسجون عصابات مسلحة وأودت بحياة كل من كان فيها . استمرت هذه المذابح حتى ٥ سبتمبر وبلغ عدد من قتل اثناء نحو ١٥٠٠ ، لذلك لقبت بحق (مذابح سبتمبر) .

صداقته ومقدرته، والذى عين في الليلة السابقةقائداً لجيش باريس . ولما لم يكن بارا جندياً ، فقد آل أمر الدفاع عن المؤتمر ألى نابليون الذى أبلى بلاء حسناً . قال تيبو يصف نابليون في هذه الحادثة : «وكان نشاطه يدهش الألباب ، حتى خيل ألينا انه حاضر في كل مكان فى وقت واحد . وقد أدهش الناس بأوامره الوجيزة السريعة الواضحة ، حتى أعجب الكل بنشاطه في عمله ، وتحول أعجابهم ثقة به ، وثقتهم حماسة لعمل ما يأمرهم بأدائه ». ولما كان نجاح حرب الشوارع متوقفا على المدفعيــة ، فان مجيء مورا [1] بالمدافع من ميدان السابلون حقق النصر للمؤتمر . ذلك أن الجموع كانت كلما تقدمت من ميدان كنيسة سان روش نحو قصر التويلرى حصدتهم نيران المدافع حصدا ؛ وسرعان ما انجلت الواقعة عن انتصار جيوش المؤتمر ، وكانت خسائر الطرفين لاتتجاوز المائتين من النفوس .

لاشك أنه لو جاءت النتيجة على عكس ذلك لهوت فرنسا من

---

(١) ولد يواقيم مورا (Joachim Murat) سنة ١٧٧١ . وهو من أكبر قوادنابليون وأخلصهم له ؛ تزوج كارولين اخت نابليون وعين سنة ١٨٠٨ ملكا على نابلي . وقد رافق مورا الامبراطور نابليون فى الحملة الروسية سنة ١٨١٢ وكان قائد الخيالة فى موقعة ليبزج سنة ١٨١٣ . بيد أنه حصل تنافر بين نابليون ومورا حوالي ذلك الوقت . فخابر مورا الحلفاء فى الانضمام اليهم ، بشرط الاعتراف به ملكا على نابلي . ولما رفض الحلفاء طلبه ، عاد مورا الى نابليون وحارب معه فى فترة « المائة يوم » ، ألا أنه هزم فى ايطاليا ، كما هزم نابليون فى واترلو وخسر كل منهما جيشه وتاجه .

جديد إلى حضيض الفوضى والفتنة الأهلية . هذا ومهما تكن صحائف المؤتمر سوداء ، ومهما تكن أعماله شنيعة ، فانه كان لايقل في شرف أغراضه عن كثير من مناوئيه ، بل يزيد عليهم ، لأنه كان يمثل المصالح الكبيرة في فرنسا ، ويعمل للمحافظة على ثلاثة أمور كانت تصبح في خطر لو قضى عليه في ڤندمير [1] : تلك الأمور الثلاثة هي التسوية العامة التي أنتجتها الثورة ، واتحاد الأمة ، وحماية الحدود من الغزو الاجنبي . كوفىء نابليون بتعيينه قائدا للجيش الداخلي ، ولا يخفى أنه بأنقاذه المؤتمر لم ينقذ لفرنسا نظامها الاجتماعي الجديد القائم على المساواة فقط ، بل أنقذ حكومة ملوثة يدها بدم الملك ، وعازمة على مواصلة القتال ضد المغيرين على حدود بلادها .

في تلك الآونة التي زها فيها الحظ ، وقع نابليون أسير حب امرأة من أصدقاء بارا وتاليان [2] ، وهي أرملة المركيز اسكندر بوهارنيه الذي كان قائدا في جيش الجمهورية ، والذي دقت المقصلة عنقه أيام حكم الارهاب ، كما دقت أعناق كثير من الابرياء والمخلصين مثله . ولدت جوزفين بوهارنيه في جزيرة مارتينيك من جزائر الهند الغربية

---

(١) ڤندمير أول شهور السنة في تقويم الحرية الفرنسية ، وقد وقعت الفتنة المذكورة في اليوم الثالث عشر منه .

(٢) ولد جان لامبير تاليان Jean Lambert Tallien في باريس سنة ١٧٦٩ . وهو حدز عماء الثورة في اول ادوارها ، ويرجع اليه الفضل في تدبير المؤامرة التي انتهت بأعدام روبسبير .

سنة ١٧٦٣ ، وكانت على جانب عظيم من الرقة والجاذبية شأن سكان الجنوب ذات صوت خافت رنان ، هيفاء القد ، حلوة اللسان ، رشيقة الحركة . وكان حسن ذوقها فى المحافل ، لايقل عن حسن محياها . وكانت قادرة على إخفاء ما نقص من تربيتها العقلية والمدرسية ، حتى لم يك فى مقدور أكبر رواد الصالونات تأنقا أن يعيب عليها شيئاً .

أما نابليون القائد الشاب ، الذى لم يكن في اصفرار وجهه وقصر قامته وخشونة مظهره ما يحبب النساء فيه . فانه وقع فى حب تلك الأرملة الأرستوقراطية التى زادت عليه بست سنين . ولم يثنه عن حبها فقر تشكوه وطفلان تعولهما ؛ لأن صداقتها المتينة مع بارا ذى النفوذ الكبير ، رجحت على كل الاعتبارات الأخرى ؛ هذا أذا سلمنا جدلا أن للتفكير والتقدير مجالا مع الحب المبرح .

أما جوزفين فكانت من الرزانة والروية بحيث ملكت عواطفها؛ غير أنها لم تلبث أن خضعت إرادتها لتلك الشجاعة والثقة بالنفس وسعة العقل ، ولتلك النظرة المتغلغلة التى كأنما ينبعث منها شرر تخشع منه الأبصار ، ولتلك النار الكامنة فى طيات ذلك الحب المبرح . وكيف تعجز جوزفين أمام كل ذلك عن أدراك أن الأيام تكن مستقبلا زاهراً لنابليون ؟ تم الزواج آخر الامر فى ٩ مارس سنة ١٧٩٦ ؛ وقبل ذلك بيومين عين نابليون قائداً للحملة الأيطالية بناء على اقتراح

كرنو [1] فى مجلس الخمسمائة ؛ أذ أدرك ذلك الرجل المجرب ، الذى كان المحور الأكبر في انتصارات الثورة فى الخارج ، قيمة الخطة التى وضعها نابليون فى صيف السنة السابقة ، وقدمها إلى لجنة الأمور الحربية ، وأشار بأن يعهد ألى الجنرال بونابرت أنفاذ الخطة التي وضعها.

---

(١) ولد لازاركرنو (Lazarre Carnot) علم ١٧٥٣ ، ودخل الجيش الفرنسي مهندسا سنة ١٧٩١ ، وانتخب عضواً في الجمعية التشريعية وفى المؤتمر بعدها حيث كان من المتطرفين الذى صوتوا فى جانب اعدام لويس السادس عشر . وفى تلك الاثناء عين كرنوفى ""لجنة الأمن العام "" ونيط به ادارة الشؤون الحربية . ولا يكاد التاريخ يعرف لذلك الرجل مثيلا فى قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش وتجهيزها ، ولم يحل الحول على تعيينة حتى كانت هزائم فرنسا قد انقلبت انتصارات .

الفصل الثانى

الحملة الايطالية

ظلت الحرب قائمة بين الثورة الفرنسية وملوك أوربا نحو أربع سنين كانت الجيوش الفرنسية فى أولها تعبث بها آفات الجبن والفتنة. ثم مالبثت أن أدهشت العالم بشجاعتهـا وإقدامها ؛ ففتحت بلجيكا وهولندة وسافوى ونيس ، وغزت غير مرة بلاد الألمان ، وفازت فى عهد العلم ذى الثلاثة الألوان بما كانت تحلم به ـ ولا تناله ـ فى زمن علم الملكية البربونية الأبيض . وبلغ مجد فرنسا شأوا جعلها تعتبر استرداد حدود الغال القديمة[1] الممتدة الى الرين وجبال الألب شرطا جوهرياً فى سياستها لايقوم للسلام قائمة بدونه . لم يكن السبب في ذلك التغالى التحقق من تفوق الجيوش الفرنسية فقط ، أو كمال المعدات التى جعلتها أحسن جيوش أوربا ، بل حماسة الأمة الفرنسية التى بدأت تتدرج فى مضمار الحرية . لذلك السبب وجدت

(١) الغال هو الاسم الذى كان يطلق على بلاد فرنسا الحالية من بحر المانش وخليج بسكاى الى نهر الرين وجبال الألب قبل دخول قبائل الفرانك فى القرن الخامس الميلادى وتسميتهم تلك البلاد باسم مشتق من اسمهم اى فرنسا .

الملكيات القديمة ، الشحيحة بدماء جيوشها المرتزقة ، نفسها قبالة دولة مستعدة لتضحية آلاف من أبنائها كل أسبوع ؛ ووراءها ذلك البذل الذى فاق ما بذله فردريك الأكبر ملك بروسيا من النفوس فى مواقعه . فنتج عن ذلك أن أخذ تحالف ملوك أوربا [1] يتفكك ، نظراً لتكاثر الصعوبات فى وجهه ، فضلا عن أن التحالف نفسه لم يكن من أول الأمر وثيقاً . لذلك انسحبت بروسيا من الحرب سنة ١٧٩٥ ، وجرت وراءها كل شمال ألمانيا ، وحذت اسبانيا حذوها . أما الروسيا فبقيت معادية ، ولكنها لم تحرك ساكنا لاشتغال جنودها في بولندا ، ولمرض القيصرة مرضاً قضى على حياتها .

لم يبق إذا من الدول الكبرى في حالة حرب مع فرنسا سوى انجلترا والنمسا ، اللتين أصرتا على عدم الاعتراف بالحدود الفرنسية الجديدة . لذلك أصبح استمرار الحرب البرية متوقفا على موقف النمسا ومقدرتها . أما انجلترا فلعلمها أن الثورة قد أفسدت نظام البحرية الفرنسية ، رأت أن فى استطاعتها الاستيلاء على مستعمرات فرنسا والتربص بأساطيلها التجارية ، وأرسال جيوش للاغارة على ممتلكاتها ولا جرم أنه كانت هناك صعوبات متنوعة فى محاولة فرنسا الحصول على اعتراف رسمى من هاتين الدولتين بحدودها الجديدة ؛ لأن

---

(١) هذا التحالف معروف فى تاريخ اوربا اثناء الثورة الفرنسية باسم « التحالف الأول » .

الاعتراف بنظرية الحدود الطبيعية معناه أن تصبح فرنسا حاكمة بلجيكا بما فيها نهر الشلت ، ذلك المجرى المائى ذى الأهمية التجارية العظيمة ، الذى طالما أثاره الغيرة بين هولنده وانجلترا ، حتى أدى الامر إلى عدم استعماله للملاحة ، فضلا عن أن بلجيكا فيها أيضاً ثغر أنفرس العظيم الذى اذا استولت عليه دولة قوية ، أمكنها مزاحمة لندن في سيادتهاالتجارية . ثم انه كان يستحيل أن تتخلى النمسا عن أرضها البلجيكية لفرنسا بدون تعويض ، فوق أن انجلترا تستهين بالحرب عشرين سنة عن أن ترى العلم الثلاثى الألوان يخفق على أنفرس . على أن مسألة البلجيك ، التى كانت موضع اهتمام الوزارة الانجليزية ، لم تك موضع الخلاف الوحيد بين فرنسيس الثانى أمبراطور النمسا وبين الجمهورية الفرنسية ؛ لأن ذلك الأمبراطور الشاب العنيد القصير النظر ، كان عاقداً العزم بصفته ابن أخى مارى انطوانيت [1] وحليف ملوك بربون ، على أن ينتقم لما حل بأسرته من الأذى ، وبعقام الملوك من الاهانة، ولما له من الحق فى حماية المصالح الألمانية على نهر الرين بصفته أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ولما عليه من واجب المساعدة لسردينيا التى انتزعت منها سافوى ونيس ، إذ أن ملك سردينيا يعد حارس أبواب إيطاليا الغربية ، وليست إيطاليا نفسها

(١) زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا ، قتلت بعد زوجها فى أكتوبر سنه ١٧٩٣ .

إلا من لوازم النمسا ، ومصلحتها فى أن تكون أيطاليا بعيدة عن تأثيرات الثورة الفرنسية أكثر من مصلحتها فى المحافظة على أنفرس أو حماية نهر الرين ، أو الانتقام لضحايا المقصلة من الملكيين .

كان يهم نابليون أن يفوز فى أيطاليا ويحصل على صلح شريف . وقد رسم الخطة لذلك فى مذكرة بديعة ، كتبها في يولية سنة ١٧٩٤ لروبسبيير — الذى كان أصغر منه سنا — أشار فيها إلى ضرورة اتخاذ خطة الدفاع على الحدود الأسبانية وخطة الهجوم العنيف على الحدود الأيطالية . أما وقد أصبح بيده قيادة الجيش فى أيطاليا ، فأن خطته كانت أن يسير من سهل الرڤيرا عابرا جبال الأبنين ، ليقطع حلقة الاتصال بين الجيوش النمساوية والسردينية المنتشرة على الممار الواقعة شمال بلدة ساڤونا ، حتى إذا تم له فصلهما أمكنه إخراج النمساويين من إيطاليا وعبور جبال التيرول إلى باڤاريا ، أو التقدم من عند تريستا شمالا حتى يتصل بالجيش الفرنسى عند الرين ، ثم يتقدم ظافراً بالجيشين نحو ڤينا فيملى شروط الصلح عند أسوارها .

من المعلوم أن فن الحرب متمش مع التقدم العلمى والمادى : ففى القرن السابع عشر لما كانت البنادق تحشى من فوهاتها ، ومدفعية الميدان ثقيلة الحمل صعبة الاستعمال — حتى أن اثنى عشر مدفعاً كانت تعتبر كافية للجيش ، وست قذائف كافية لأى ملحمة — فى ذلك الزمن

كانت الغلبة فى الحرب للسيف وأسنة الحراب . وكانت الملاحم على ندرتها قصيرة حاسمة . وفى تلك الملاحم كان تعيين مراكز حملة الحراب وحملة البنادق ورجال المدفعية والخيالة يستغرق معظم اليوم، كما كان تغيير المراكز عند الحاجة يستغرق ساعات كثيرة . أمام كل تلك الظروف لم يكن فى مقدور أى قائد حازم أن يقسم القوى التى تحت إمرته ، أو يخاطر بالاشتباك مع جيش يفوق جيشه عدداً ؛ كذلك كان من المستحيل أن يرغم أى جيش، مهما يكن متفوقا، جيشاً آخر على الاشتباك معه ، مادام الآخر لا يريد ذلك ؛ وكان فى مقدور القائد الحازم أن يخفى مركز جيشه لمدة أسابيع ، وأن يقوم بعمل مناورات بدون أن يشتبك فى موقعة لقرابة سنة .

شهد القرن الثامن عشر ثورة فى فن الحرب بإدخال سلسلة من التحسينات فى الأسلحة النارية : فما وافت سنة ١٧٢٠ حتى كانت بندقة الجندى فى فرقة المشاة تصلح لإطلاق أكثر من طلقة واحدة فى الدقيقة ؛ ثم اختُرِعَ مدفع للميدان خفيف الحمل سهل الاستعمال ؛ ثم جاءت المدفعية التى تجرها الخيـل (المدفعية الراكبة) . وأخيراً جاء اختراع جريبوڤال (Gribeauval) عام ١٧٦٥ ، وكان ضابطاً فى جيش لويس الخامس عشر ، وهو عبارة عن مدفع للميدان عظيم المنفعة ، خفيف الوزن . ولم تقتصر نتيجة تلك التحسينات على المدفعية ، التي

أصبحت على جانب عظيم من الأهمية في الحرب إذ صار المدفع لأول مرة عاملا مهماً في حركات المشاة ، بل تغيرت كل قوانين خطط القتال وتدابيره ، حتى أصبح من الممكن تجزئة الجيوش إلى فرق ، ما دام فى استطاعة الفرقة الواحدة أن تدفع عن نفسها ضد قوة متفوقة إذا كانت فى موقع حسن ، أو أن تَسْلَمَ بنفسها على الأقل إذا وقعت فى مأزق بسلسلة حركات ساقية . ومن ثَمَّ أصبحت مسألة المسائل أمام رجال الحرب كيف يستفيدون من تلك الطريقة الجديدة ، وهي سهولة القيام بمناورات حربيــة على طول الخط الأمامى بقوة يمكن تغيير أوضاع فئاتها تدريجاً . وكذلك انقضى نظام إبقاء الجيش كتلة واحدة ، ونظام اصطفاف الجيوش للقتال ؛ وصار فى مقدور القواد تسيير الجيوش من نقط متباعدة إلى خطوط النار ، وإرسال فرقة لشد أزر القوى المغلوبة أو لتحويل نظر العدو عن نقطة الهجوم الحقيقية . وأصبح من الضرورى معرفة طبيعة الأرض وانحدار الطرق حيثما كثرت وحدات الجيش . وبات من الممكن كسب موقعة باستخدام المصورات والبوصلة ، وتقرير مصير معركة بانقضاض فرقة واحدة على جيش مختل مفلول الكتائب ، بشرط أن تظاهر الفرقة المهاجمة نيران المدفعية مجتمعة .

أدرك الكتاب الحربيون الفرنسيون الذين عاشوا قبــل الثورة

مبادئ فن الحرب التى بنيت على التغيرات المتقدمة ، وأوضحوها فى كتاباتهم ، ووفوها حقها من البحث ، قبل أن تسنح فرصة لتجربتها فى ميادين القتال . مثـل ذلك أنهم عرفوا قيمة الحركات الهجومية ، وضرورة السرعة فى تواصل فئات الجيش قبـل القتال ، واستخدام المدفعية كتمهيد لهجوم الكتائب كتلة واحدة . وعرفوا أيضاً أهمية المدفعية الراكبة في نجاح الحركات الساقية ؛ بل ونصحوا فى كتاباتهم بضرورة خفة حركة الجيوش ، ذلك الأمر الذى يستلزم الاستغناء عن فرق لنقل المؤن والذخائر ، وإرهاق القرى والبلاد المجاورة للمعسكرات بما يحتاجون إليه . وبالجملة فقد كانت كل أصول فن الحرب : مثل وجوب مضايقة العدو باستمرار ، وإخراجه من استحكاماته القوية ، ومفاجأته تحت جنح الظلام ، وإرباكه بهجمات عنيفة على مواطن ضعفه — كل تلك الأصول كانت معروفة لكل من درس مؤلفات الكتاب الحربيين جيبير (Guibert) وجريبوفال وبورسيه (Bourcet) ودى تِىْ (Du Teil) . وعلى ذلك كان بونابرت ملما إلماماً تاماً بكل القواعد الجديدة في فن الحرب ؛ إنما يرجع له الفضل فى تطبيقها ، وإثبات أثرها الفعال .

اتبع نابليون تلك القواعد الجديدة ، على أنه لم يزد عليها ؛ وليست الجيوش الفرنسية مدينـة له إلا بأنه هو الذى قادها للنصر

المبين: ذلك أنه لم يخترع آلة حربية جديدة، ولم يبتكر نظاماً جديداً، ولم يضع قواعد جديدة لحركات الهجوم والدفاع، بل انتهج ماوضعه غيره من طرق التسليح وتدريب الجنود، وطرق الحرب التى كانت متبعة فى الجيش الفرنسى القديم، الذى قضى فيه أيامه الأولى. إنما كان نابليون يفضل من طرق الهجوم النظام المزدوج، الذى أوصى به جيبير، للجمع بين تأثير نيران الخطوط الأمامية وتأثير قوة الكتائب المتراصة الهاجمة، باستخدامها بالتعاقب. لكنه لم يتبع تلك الطريقة دائما، بل كان يقصرها على ذلك الجزء من الميدان الذى يريد تطويق العدو فيه، حتى إذا ما سنحت الفرصة للانقضاض عليه نيط الهجوم بكتل متراصة. ومع ذلك فكان نابليون يترك لضباطه إثارة الخطط الفرعية، أما «الخطط العامة» – كما سماها – المختصة بتوزيع الفرق على الميدان، واختيار نقط الضعف فى صفوف العدو التى يجب مهاجمتها، وتصويب كل نيران المدافع نحوها، فكانت من اختصاصاته، وفي تلك قلما طاش سهمه. غير أن طريقة هجوم الكتائب المتراصة التى اتبعتها جيوش الثورة الفرنسية، كان نجاحها متوقفاً على عدم ثبات الصفوف التى تهاجمها؛ لأنه يشترط أن يدب الخلل فى صفوف الجيش المواجه لها بفعل المدافع أو مناورات الطلائع، حتى يكون لمفاجآت الكتائب أثر فعال. أما إذا كانت جيوش العدو مكونة

من رماة لا يعرف الروع لنفوسهم سبيلا ، تحميهم من نيران المدفعية طبيعة الأرض المرابطين بها ، ففي تلك الحالة لا يجدى هجوم الكتائب شيئاً ، لأن نيران الرماة تحصد جبهة الكتيبة فتضيع الواقعة قبل أن تتمكن قوة تلك الكتيبة من الانهيال بأجمعها على خصمها ؛ وهذا سر انتصار الجنرال ستيوارت الإنجليزى فى موقعة ميدا سنة ١٨٠٦ ، وانتصارات ولنجتون فى حرب شبه الجزيرة (١) . غير أنه لا يفوتنا أنه لما تسلم نابليون قيادة الحملة الايطالية سنة ١٧٩٦ كانت طريقة هجوم الكتائب المتراصة غير معروفة القيمة ، لأنه حتى تلك السنة لم يقف أى جيش أمام القوات الفرنسية ، وأظهر الثبات والسداد فى ضرب النار اللازمين للتحقق من مزاياها .

يلاحظ أن الجيش الفرنسى ، الذى كان أحسن جيوش أوربا في أواخر عهد لويس السادس عشر ، بلغ درجة أعلى من القوة بسبب الانقلابات السياسية التى حدثت فى فرنسا . ذلك أنه على الرغم من مهاجرة كثير من ضباطه ، ظلت قوته الحربية كامنة فيه لبقاء معظم رجال الجيش الملكى من مدفعيين ومهندسين في خدمة العلم الثلاثى الألوان ؛ فضلا عن أن جيش الوطن والشعب أصبح لا يجزع للتضحية مهما تعظم ، وقادراً على خفة فى الحركات الحربية التى لم

(١) سيأتى الكلام على حرب شبه جزيرة اسبانيا والبرتغال فى الفصل التاسع .

تكن معروفة من قبل . ولا غرابة فقدأصبحت أبواب الرقى مفتوحة لكل جدير بها ، بعد أن كانت موصدة إلا فى وجه الاشراف ، حتى صار من الممكن لرجل قادر أن يصبح فى بضع سنين فى مصاف عظماء القواد . زد على ذلك أن النفوس رخصت في سبيل الوطن ، وأصبح الجيش ذخراً فى الملمات ، بعد أن كان معتبراً متاعا للملك يجب المحافظة عليه ؛ وسرت حمية الأمة إلى ثكنات الجيوش ، فأصبح كل جندى مستعداً لملاقاة الصعاب وتذليلها فى سبيل ذلك الجهاد الذى لم يسبق أن وقفت أمة حياتها لنيله .

لما تولى نابليون القيادة في إيطاليا ، لم يكن معروفا لدى كبار ضباطه الذين زعموا أن ذلك الشاب الصغير ، ذا الوجه النحيف ، والقامة الضئيلة ، والذى أبرز اليهم صورة عروسه مفاخراً بها ، لا يمكن أن يكون تعيينه إلا نتيجة المحاباة وتدبير المكايد. ،، لكنه بعد أن وضع قبعة القيادة ، ظهر كأنما زاد فى الطول قدمين ،، ، كما لاحظ مسينا[1] الذى قال عنه أيضاً : ،، بدأ يناقشنا فى مراكز فرقنا وفى الروح المعنوية

---

(١) ولد أندريه مسينا (Andrea Masséna) فى سنة ١٧٥٨ من أبوين فقيرين . بدا حياته جنديا أبان الثورة وارتقى بسرعة، وأبلى بلاء حسناً فى الحرب الايطالية حتى لقبه رئيسه نابليون (Enfant cherie de la victoire). وظل مسينا يكسب لنفسه الفخار حتى اصبح مارشالا سنة ١٨٠٤ ، وبقى يعمل فى ميادين القتال حتى أيام حرب شبه الجزيرة حين غضب عليه نابليون . ولما رجعت الملكية البربونية دخل مسينا فى خدمتها حتى مات سنة ١٨١٧ .

والقوة الحربية السائدة فى كل فرقة ، ثم رسم لنا الخطة التى نسير عليها . بعد ذلك أعلن أنه سيقوم فى الغد باستعراض الجيش ، وأنه سيبدأ مهاجمة العدو في اليوم التالى بعده ». كان مسينا وبرتييه[1] وأوجيرو[2] أكبر من نابليون سناً؛ لكن القائد الجديد كان يتكلم بتؤدة ووقار وروية ، حتى أقنع كل من سمعه بأنه جدير بقيادة الابطال . وكانت الأمة المتأججة فيها الحماسة ، التى أثارها فيها حب نصرة الشعوب مستعدة للسير وراء قائد مثله ، ذى عزيمة ماضية وارادة حديدية ومهارة فى فن الحرب وأسراره ، ألى فصاحة وقوة خيال ،

---

(١) ولد اسكندر برتييه (Alexandre Berthier) سنة ١٧٥٣ . وكان أبوه جندياً فأدخله الجيش سنة ١٧٧٠ . ارتقى برتييه بسرعة حتى صار رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى فى الحملة الايطالية ، وقد رافق نابليون إلى مصر بالوظيفة نفسها . ولما أصبح نابليون قنصلا سنة ١٧٩٩ تقلد برتييه وزارة الحربية ، وظل يعمل حتى سقط نابليون سنة ١٨١٤ . عند ذلك اضطر برتييه الى الخضوع للملكية الجديدة فى فرنسا ، غير أنه لما رجع نابليون من إلبا لم يطق برتييه البقاء فى فرنسا ، فاحتجب عن الناس ، وأقام فى بلدة على الحدود حيث كان يتتبع حوادث وطنه . وفى أثناء الحرب النهائية بين نابليون وأوربا سنة ١٨١٥ ، كان برتييه يطل يوما من شباك بيته ، فرأى فرقة من الجيوش البروسية الظافرة تتقدم نحو الحدود الفرنسية ، فلم يطق المنظر فألقى بنفسه من الشباك الي الشارع فمات.

(٢) ولد بيير شارل وأجيرو (Pierre Charles Augereau) سنة ١٧٥٧.وكان أبوه بائع فاكهة في باريس . خدم أول حياته فى الجيش الفرنسى ، ثم اشتغل كأستاذ فى المصارعة. وفي سنة ١٧٩٢ دخل جيش الثورة الفرنسية ، وترقى فى أقل من ثلاث سنوات الى رتبة قائد فرقة . وقد رافق نابليون إلى ايطاليا ، وبقى يرقى حتى صار من أكبر وأخلص القواد الذين التفوا حوله نابلون، ومات سنة ١٨١٦ .

وحب للصيت وقدرة على مس أوتار القلوب ببضع كلمات في بلاغ أو نشرة حربية .

ولقد تعد فاتحة حروب نابليون فى إيطاليا بحق نموذجا من نماذج فن الحرب : إذ طارد القائد الشاب الجيوش النمساوية إلى ما وراء نهر إلبو ، وأرغم السردينيين على مهادنته فى اقل من عشرين يوماً — أحرز كل ذلك بأربعة وعشرين مدفعاً من المدافع الجبليـة الخفيفة ، وعدد قليل من الخيالة وجيش من المشاة ، ينقص في العدد عن جيوش أعدائه قليلا ، فضلا عن سوء حالته وقلة ميرته . بيد أن مقدرة نابليون في سرعة تحريك جيوشه جعلها تفوق فى العدد جنود الأعداء عند كل معركة مهمة ؛ ولا عجب فأن الحرب كانت بين الشباب الناهض الوثاب وبين الشيخوخة والهرم ، بين دقة الإلمام بتفصيل ميدان القتال والجهل المطبق[1]. ولا يفوتنا أن من أسباب نجاح نابليون دربة الجيش الفرنسى على القتال فى الأراضى الجبلية قبل أن يقوده هو ، وكان حزم القائد الشاب لا يقل فى الاعتبار عن صولة جنوده . مثل ذلك أنه لما فصل جيوش الأعداء عند منتنت[2] (Montenotte) ، لم يقتف أثر النمساويين الذين ولوا الأدبار إلى سهول لمبارديا ، بل تحول شرقاً لاقتفاء

(١) المقصود هنا مقارنة بين الشاب نابليون والقائد النمساوى المرم بوليو (Beaulieu) .

(٢) أنظر مصور رقم ٣ ايطاليا للتحقق من مواقع البلاد التى نشبت عندها الحروب فى ذلك الفصل من الكتاب .

البيدمنتيين [1] ، حتى يتمكن بالقضاء عليهم من بقاء مواصلاته مع فرنسا. وقد انتصر عليهم في مندوفى (Mondovi) وتشيفا (Ceva) ؛ ولو كان فى مكانه قائد عادى لزحف على تورين عاصمة بيدمنت ، ليملى بها شروط الصلح . لكنه لم يفعل ذلك ، بل عقد مع البيدمنتيين هدنة عند تشراسكو (Cherasco) ، حصل بمقتضاها على كل ما يحتاج إليه: إذ استولى على ثلاثة معاقل ، وعلى جميع الطرق الحربية التى تخترق بيدمنت . بذلك دل نابليون على أن السر في قوته هو عدم إضاعة الوقت في إحراز انتصارات صغيرة تافهة ، وإلمامه التام بجميع مايلزم لعمله فى نواحى ميدان القتال . ثم اقتحم نابليون جسر لودى فى ١٠ مايو من السنة نفسها ، ولم تمض خمسة أيام حتى كان في طريقه إلى ميلان.

كان أهم شيء فى الأعمال الحربية التالية حصار مدينة مانتوا القوية، التى كان فيها من المئونة ما يكفى لمدة أربعة أشهر، ومن الحاميات ما يبلغ ثلاثة عشر ألفاً . ذلك أنه ما دام العلم النمساوى ذو النسر الأسود ، يخفق على تلك المدينة الحصينة المشرفة على نهر المنشيو (Mincio) ، فلن يستطيع الفرنسيون التقدم شمالا نحو التيرول ، ولا شرقا إلى تريستا ، لاسيما وأنهم لا يمكنهم أن يأتمنوا الدويلات الإيطالية الصغيرة التى كانت تعطف على النظام القديم ، وتعتبر دخول ذلك الملحد

---

(١) البيدمنتيون نسبة الى مملكة بيدمنت، ويسمون أيضاً بالسردينيين، لأن بيدمنت وسردينيا مما على مسمى واحد ، وهى المملكة الواقعة فى الشمال الغربى من إيطاليا وتحتوي على بيدمنت وجزيرة سردينيا .

وجيشه الجمهوري في بلادهم ذات الثقافة القديمة مبرراً كبيراً للفوضى.
أرسل النمساويون جيوشهم أربع مرات لفك الحصار عن مانتوا، وصدهم نابليون في الأربع المرات ؛ وهنا أيضاً كان عدد الفرنسيين أقل من عدد النمساويين ، غير أن نابليون أدار حركات جيوشه بمهارة كانت تجعلها في أحرج ساعات القتال، حول الأماكن المهمة، أكبر من أعدائها عدداً . فقد بلغ عدد أول جيش أرسلته النمسا لفك الحصار عن مانتوا خمسين ألف مقاتل تحت قيادة ڤرمزر (Wurmser)، وكان كل ما أعده له نابليون اثنين وأربعين ألفا منهم عشرة آلاف تحت قيادة سروريه (Serurier) مشغولين باستمرار الحصار .

وكان المنتظر إذن أن يفوز ڤرمزر بالمعركة ، لكن النمساويين أخطئوا في تقسيم قواتهم : إذ سار ڤرمزر ونهر الأديج على رأس اثنين وثلاثين ألف مقاتل متتبعاً الطريق بين بحيرة جاردا والنهر ، على حين سار القائد النمساوي الآخر كوازدانوڤتش (Quasdanovitch) متتبعاً الشاطئ الآخر للبحيرة على رأس ١٨٫٠٠٠ مقاتل . وعلى الرغم من ذلك الخطأ كان الجيش الفرنسي غير كاف للقيام بما ألقى على عاتقه ، حتى أنه قر قرار المجلس الحربي الذى عقد في روڤربلا (Roverbella) في ٣٠ يوليه سنة ١٧٩٦ ، على ترك الحصار وترك المعدات التى كانت مهيأة له ، وحشد كل القوات الفرنسية لصد الجيوش النمساوية الآتية

لفك الحصار . وسواء أكان هـذا العزم بناء على اقتراح أوجيرو أم غيره ، فانه كان موافقاً لروح المخاطرة السائدة فى الجيش الفرنسى ، متمشياً مع بعـد نظر نابليون . ذلك أن الخسارة التى تنجم عن ترك الحصار وتضحية معداته ، ليست شيئاً بجانب الخسارة المعنوية التى تحل بالجيش إذا اضطر إلى التقهقر ، أو إذا حلت به الهزيمة فى الميدان .

وكان كل غرض نابليون أن يقضى القضاء المبرم على كل قوات العدو قبل أن تتجمع وحداته جنوبى بحيرة جاردا ؛ فصد كوازدانوفتش أولا بالقرب من لوناتو فى ٣ أغسطس ؛ ثم وجه قواته إلى ڤرمزر الذى سيرجيوشاً جديدة لنجدة مانتوا ، فهزمه في كاستليونه (Castiglione) بعـد قتال عنيف ، وردّه إلى التيرول بخسارة ستين مدفعاً وعشرة آلاف مقاتل . بذلك خرج نابليون من ذلك المأزق الحرج فائزاً ، ورأى أن ينتظر وصول نجدات جديدة وأخبار انتصارات الجيوش الفرنسية فى جنوب ألمانيا .(١)

---

(١) كانت خطة الحكومة الفرنسية لمحاربة النمسا ترمي الى مهاجمة فينا من ثلاث جهات بثلاث جيوش منفصلة : يسير الجيش الأول بقيادة جوردان من جهة وادى الين ، ويسير الثانى بقيادة مورو من طريق الطونوب ، ويسير الثالث بقيادة نابليون من سهل لمبارديا . سارت الجيوش الثلاثة وعندما هزم نابليون القائد فرمزر عند كاستليونه ، كان الجيشان الآخران مرابطين فى وادى الرين ، وكانا على باب الاتصال معا للزحف نحو أعالى الدانوب ، الا أنهما أخفقا وتقهقرا . وفى ربيع سنة ١٧٩٧ تسلم هوش القيادة بدل جوردان ، ونجح فى عبور الرين ، غير أن مورو عجز تلك المرة عن العبور لقلة المراكب . وهكذا لم تصادف الجيوش الفرنسية فى وادى الرين نجاحا . ثم مات هوش فى سبتمبر من السنة نفسها ، فزال بذلك أحد مزاحمى نابليون .

فى سبتمبر استانف النمساويون الهجوم لفك الحصار ، لكنهم كانوا أقل نظراً وأكثر تفككا من قبل : شطر ڤرمزر جيشه شطرين أحدهما تحت قيادة داڤيدوڤتش (Davidovitch) مخترقا التيرول ، والآخر تحت إمرته بصفته القائد العام ، متخذاً وادى البرنتا طريقا له . وفى ٤ سبتمبر انهزم جيش داڤيدوڤتش المؤلف من ١٠٠٠٠ مقاتل عند روڤريدو (Roveredo) أمام قوة ضعف عدده بالضبط تحت قيادة مسينا وأوجيرو وڤوبوا (Vaubois). أما نابليون الذى أوغل فى وادى البرنتا ، في طريق بين الجيشين النمسويين ، فإنه بعد أن قطع ٥٧ ميلا في ستين ساعة ، لحق بڤرمزر واشتبك معه فى ٨ سبتمبر ، وحمله خسارة فادحة تقهقر على أثرها إلى مانتوا ، فزاد الطين بلة بانضمام جيش كبير كهذا لحامية قد تفشى الوباء فى أفرادها . ولما كان من المتعذر متابعة الحرب في ذلك الوقت من السنة ، تركهم نابليون يقاسون هول الأوبئة ، وهي كفيلة بالفتك بهم . ثم أرسل إلى پاريس غير مرة يطلب المدافع والنجدات ليواصل الحصار عن كثب ، حتى لا يضطر إلى الاقتراب من مستنقعات مانتوا ، التى كانت مباءة الأمراض .

كانت فترة الستة الأسابيع ، بين صد المحاولة الثانية لفك الحصار عن مانتوا وبين المحاولة الثالثة والآخرة ، من أكبر ما وعاه التاريخ الإيطالى : ففى أثنائها استقبل جيش الجمهورية الفرنسية بأسماله فى

ميلان، ورحب به نفر من أهلها المتنورين ، الذين كانوا قد تأثروا بما جاءت به الثورة الفرنسية من التعاليم الحرة ، فأصبحوا يعتبرون الديانة الكاثوليكية ديانة عقيمة والبابا دجالا والحكومة النمساوية شبحاً من أشباح الاستبداد . عرف نابليون أن أمثال هذه العواطف كانت محصورة في الطبقات التي حظيت بدراسة القانون أو الطب أو الآداب، وأن السواد الأعظم من الإيطاليين لا يزال جاهلا ساذجاً . لذلك رأى من حسن السياسة ، بصفته قائد جيش جمهورى ، وبشير المبادىء الجمهورية ، أن يشجع هؤلاء الإيطاليين الذين شغفوا بالحرية ، وتطلعوا اليه ليدلهم على مواردها . فلما أظهرت ولايات رجيو ومودينا وفرارا وبولونيا ميلا للديموقراطية ، باركها نابليون وكون منها جمهورية ماوراء البو[1] التى ضم إليها شطراً من الولايات البابوية — فعل ذلك ولم ينتظر موافقة حكومته . وفي كتاب بعثه لأهالى رجيو أعلن أنه ”حان الوقت الذى ينبغى أن تصبح فيه إيطاليا من الأمم القوية الحرة“. ثم طلب الذخائر والرجال من أهل إيطاليا، وسار في ربوع البلاد يجمع لنفسه ولقواده وجنوده وحكومته النفائس الغالية .

بعد ذلك كتب نابليون ، بخبرته الحربية المطبوعة ، إلى حكومة

---

(١) اسم هذه تلك الجمهورية بالانجليزية (Transpadane Republic) ، لأن نهر البو اسمه فى اللغة اللاتينية (Padanus) .

الأدارة[1] شارحا سوء عاقبة الدخول في حرب مع الولايات البابوية أو مع مملكة نابلي بما تحت إمرته من الجيوش القليلة ، وضرورة إبرام صلح مع نابلي ومشاغلة البابا بمفاوضات حتى تنقشع غيوم الجيوش النمساوية المهاجمة، ولاسيما أن تطلع الولايات الشمالية الأيطالية للحرية جعلها في جانب الفرنسيين . بذلك أصبحت حكومة الادارة ـ التي كانت اختطت لنفسها مشروع غزو جنوب إيطاليا ، وعقد صلح مع النمسا على قاعدة ضم لمبارديا إليها مقابل بقاء بلجيكا لفرنسا ـ وقد فشل مشروعها كله بما أحدثه نابليون ، وأضحى محتما عليهما أن تحمى النظم الجمهورية التي أقيمت في لمبارديا وأميليا ، وأن تصبر على بقاء حكم البابا في ولاياته، والملكية البربونية في نابلي ؛ وعرفت أنه لا يمكن الاستغناء عن جندي واحد من جيش الشمال لأن النمسا جمعت ٦٠٫٠٠٠ مقاتل في التيرول وتريستا استعداداً لفك الحصار عن مانتوا للمرة الثالثة بعد فشلها في المرتين السابقتين .

برهن الفصل الثالث من قصة فك الحصار عن مانتوا على نهاية مهارة نابليون : إذ كان الجيش النمساوى الجديد تحت قيادة الفنتزى (Alvintzi) ، وكان جندياً مدربا كسابقيه ، بل يفضلهم ، لأنه ـــ على حسب قول نابليون ـــ كان أقوى من نازلهم وأشدهم ثباتا ، لاينقصه

(١) هى الحكومة التى قامت بفرنسا فى أكتوبر سنة ١٧٩٥ بعد حوادث الأرهاب والمؤتمر الأهلى .

إلا حماسة الشباب ، ولذا انتصر عليه نابليون ، ورجحت كفته فى حرب كانت فى الواقع سجالا .

ومن الغريب أن النمساويين قسموا تلك المرة أيضا قواتهم الزاحفة على مانتوا كأن لم يتعلموا من الدروس السابقة خطر التقسيم ؛ فزحف الفنتزى من تريستا ، وتقدم القائد النمساوى الآخر داڤيدوڤتش من التيرول . أما خطة نابليون فملخصها أنه أراد اجتناب ذلك الهجوم المزدوج ، بأن يزحف بنفسه شرقا للقضاء على الفنتزى عند نهر البرنتا ، وبأن يسرع بجيشه متتبعا مجرى أعالى النهر فى التيرول حتى يواجه مؤخرة جيش داڤيدوڤتش ، الذى تقرر بشأنه أيضا أن تذهب فرقة فرنسية تحت إمرة ڤوبوا لإيقافه عن التقدم على نهر الأديج . ولم يكن تنفيذ تلك الخطة هينا ، لأن القائد الحربى مهما تكن مهارته ، لا يمكنه أن يعتمد على إنفاذ كل تفاصيل خطته كما يريد بالضبط . لذلك كانت أول ملحمة عند أركولا (Arcola) سلسلة من المصائب على جيش نابليون ؛ أضف إلى ذلك أن ڤوبوا لم يوفق لإيقاف داڤيدوڤتش ، وأن أوجيرو ومسينا أخفقا فى عبور نهر البرنتا . وفى ١٢ اكتوبر ظهر جيش الفنتزى على تلال كالديرو (Caldiero) مهدداً أبواب بلدة ڤيرونا (Verona) ؛ ولما خرج نابليون ليرده إلى الوراء ، وجد أن الإقدام الذى اشتهر به جيشه في إيطاليا لم يجد نفعاً أمام عدو فى مركز حصين ؛

وأسفر القتال الذى دام طول النهار عن صد الفرنسيين على طول خط القتال ، وردهم إلى البلدة خائبين . أصبح مركز نابليون حرجاً : لأنه إذا تقهقر إلى مانتوا فإن الجيشين النمساويين يتصلان بعضهما ببعض ، وإذا بقى فى ڤيرونا فمن المحتمل أن يحاط به وهو فيها ، وإذا حاول مرة ثانية أن يهاجم الجيوش المرابطة على تلال كالديرو فإنه يلاقى مالقيه فى المرة الأولى . لكن بصيرته العبقرية أملت عليه خطة فحواها أن يدور بجيشه حول معسكر القنترى ، ويستولى على معدات النقل والمدفعية الاحتياطية ، ويشتبك معه في قتال قبل أن يتمكن داڤيدوڤتش من الوصول لنجدته . على ذلك ترك نابليون ٣٠٠٠ مقاتل فى ڤيرونا ، وخرج هو بالبقية متتبعاً نهر الأديج . ثم عبر النهر عند رونكو (Ronco) في ١٥ أكتوبر ، واخترق أرض المستنقعات الواقعة بين نهرى الأديج والألبونه .

اعترض تقدم الفرنسيين عائق غير منتظر : ذلك أن الجسر القائم على نهر الألبونه عند أركولا كانت تحميه كتيبتان من الكرواتيين[1] ، لكن نابليون ضرب لجنوده مثلا حسناً لما حمل علماً وتقدم نحو الجسر ليحذو الجنود حذوه ، ويقتحموا القنطرة . لكنه عبثاً حاول ، لأن

(١) الكرواتيين نسبة الى الكروات اسم علم لبعض فرق الجيش النمساوي فى القرن التاسع عشر ، وهم من الجنس الكرواتي أحد الاجناس التى كانت تحت امبراطورية النمسا والمجر حتى الحرب العظمى . ويسكن ذلك الجنس جمهورية يوجوسلافيا الحالية .

النمساويين كانوا يمطرونهم ناراً حامية من شبابيك بيوت القرية الواقعة على الجانب الآخر للنهر . اضطر الفرنسيون إلى التقهقر ، وفى وسط زحام المتقهقرين سقط نابليون في النهر ، ولم ينج إلا بعد عناء . وفى اليوم التالى كان جيش الفنتزى كله محيطا بأركولا ، وهنا نشبت معركة استمرت حتى ليلة ١٧ ، كان المتقاتلان فى أثنائها يتناوبان الهزيمة والنصر. ثم اقتربت ساعة الفصل : وذلك أن عدداً من الفرسان ، وعلى رأسهم عبد أسود من فرقة الكشافة ، التفوا حول مؤخرة الجيش النمساوى ، وهم ينفخون فى الأبواق ، ليوهموا النمساويين أن هناك هجوماً عنيفا ، فكانت النتيجة أن دبّ الاضطراب فى صفوف النمساويين . وانتهز أوجيرو الفرصة ، وكان يقود ميمنة الجيش الفرنسى ، وانقضّ على النمساويين حتى ألجأهم أصيل اليوم إلى الإنسحاب من مراكزهم ، بعد أن دافعوا طول النهار دفاع الأبطال عن قلعة أركولا .

جاء ذلك الإنتصار فى وقت أحوج ما كان الفرنسيون إليه ، لأن ڤوبوا انجلى فى اليوم نفسه عن ريڤولى ، وأصبح الطريق إلى ڤيرونا مفتوحا أمام داڤيدوڤتش . ولو أن داڤيدوڤتش تحرك بسرعة وعزم ، لتمكن بلا شك من تعويض هزيمة أركولا ، لأن الفنتزى انسحب يوم ٢١ اكتوبر إلى مرتفعات كالدييرو ، وأصبح فى مركز يسمح له بمعونة داڤيدوڤتش . لكن من حسن حظ نابليون أن داڤيدوڤتش لم

يكن صلب العود ، ولما اجْلِيَ عن مرتفعات ريفولى ، تقهقر مذعوراً أمام المطاردة العنيفة التي قام بها ڤوبوا ومسينا .

بعد ذلك بأربعة أشهر ، جاءت الساعة التى بُتَّ فيها في مسألة فك الحصار عن مانتوا على هضبة ريفولى : وذلك أنه فى ١٣ يناير وجد القائد الفرنسى جوبير (Joubert) نفسه عند ريفولى فى وجه جيش تحت قيادة الڤنتزى ، يتقدم من الشمال ويفوق جيشه عدداً . فأرسل جوبير في طلب الأمداد ، وإلا اضطر إلى الانسحاب من مواقعه ، ولم تمض الساعة الثانية من صباح اليوم التالى ، حتى وصل إليه نابليون من ڤيرونا ، وأبصر على ضوء القمر معسكرات النمساويين الخمسة ، ونارها تضىء الليل ما بين البحيرة ونهر الأديج . استخلص نابليون مما رأى أن المعدات تهيأ لنشوب موقعة حوالى الساعة العاشرة ، وأن عدد النمسويين يبلغ ضعف عدد الفرنسيين . لكن موقع ريفولى يمتاز بأن كل جيش يأتى لمهاجمة البلدة من التيرول ، لا يمكنه إجلاء حاميتها عن مراكزها إلا بتسلق القمم العالية المشرفة على الهضبة ، كما لا يمكنه تسلق القمم العالية قبل أن يترك وراءه كل خيله ومدفعيته . فنتج عن ذلك أن أعان الفرنسيين ، على قلة عددهم أثناء الواقعة التى نشبت ، ستون مدفعاً وفرق كثيرة من الخيالة ، على حين كان النمسويون معتمدين على المشاة وحدهم . أضف إلى ذلك

نشاط نابليون ، ووصول مسينا بنجدة بعد مسيرة ليلة كاملة ، وهنا ترى كيف تأكد النصر للفرنسيين . فلم تكد الشمس تميل عن كبد السماء حتى اندحر النمسويون ، ولولا تراكم الثلج فى الطريق لطاردهم الفرنسيون إلى ما بعد بلدة ترنت . بعد ذلك بثلاثة أسابيع ، كان العلم الثلاثى الألوان يخفق على ما نتوا ، وزال الحجر الذى كان عثرة فى سبيل نابليون .

التفت نابليون إلى البابا ليسوى حسابه معه ، قبل أن يواصل الزحف إلى الأمام . وهنا أيضاً رفض نابليون أن يحيد قيد أنملة عن جادة النجاح طوعا لإشارة الوزارة الفرنسية التى كان يحتقرها ، أو طمعاً فى انتصارات هينة لا تؤثر شيئاً في نتيجة القتال . كانت الحكومة البابوية معادية للجمهورية الفرنسية التى نبذت المسيحية ، وألحت على بونابرت أن يرى القساوسة مقامهم في النظم الجمهورية . وكان من السهل جدا على الجنود ، التى عرفنا حنكتها ، أن تتقدم ظافرة إلى روما نفسها ، حيث تقضى على حكومة هى أضعف الحكومات ؛ إلا أن تلك التجربة ، مهما يكن فيها من الأغراء ، لاتستهوى السياسى المحنك أو الحربى القدير : إذ ليس من الحكمة أن يكدر شعور الكاثوليك في وقت كان الفرنسيون فى حاجة إلى ولائهم وعطفهم . هذا فضلا عن أنه كان من الحماقة الحربية الكبرى ، أن يزحف القائد

العام على روما، والجيوش النمساوية لم يقض عليها بعد القضاء الحاسم. لذلك اكتفى نابليون بأن عقد مع البابا معاهدة تولنتينو (Tolentino) في ٢٩ فبراير، حصل فيها على جزية وصور ثمينة ومقاطعات، دون أن يعرض مركزه الحربي للأخطار. والحقيقة أنه رأى ألا يقطع العلائق مع البابا، حتى يصبح سقوط مانتوا محققا؛ ولذا اختار لمصالحة البابا الوقت الذى أراد انتهازه للقضاء بسرعة على جيش نمساوى جديد يحتشد على نهر تاليامنتو (Tagliamento). وكذلك كان اهتمام نابليون بكل الدقائق اهتماما جعله يترك لسرورييه تسلم مانتوا وتسلم سيف القائد العام النمساوى فى سبيل كسب بضعة أيام لتكميل الحملة على روما.

ولقد امتاز آخر دور في تلك الحرب بتتابع انتصارات الجيوش الفرنسية على عدو أقل دربة، تطرق عدم النظام إلى صفوفه: فبينما جوبير يتقدم نحو الشمال والشرق مخترقا ممرى برنر (Brenner) وبوسترتال (Pustherthal) فى التيرول، هزم نابليون الارشيدوق شارل عند نهر تاليامنتو، الذى عبره بعد ذلك عند جبل تارفس (Col de Tarvis) إلى كارنثيا، وتقدم نحو العاصمة النمساوية، فوصل يوم ٢٨ مارس ألى بلدة فلاخ (Villach). وفى ٧ إبريل وصلت طلائع الجيش الفرنسى بقيادة مسينا ألى مدينة لوبين (Loeben)، على بعد مائة ميل تقريباً من ڤينا؛ وفي لوبين هذه ابتدأت المخابرات فى طلب الصلح، وتم

التوقيع على هدنة بين الطرفين . رأى نابليون بثاقب نظره ، الذى اتصف به طول مدة الحرب الايطالية ، الظرف الملائم للوقوف عن التقدم ، والظرف الملائم للانقضاض على العدو ؛ ورأى أن من المخاطرة حقاً ، أن يتقدم أكثر مما فعل ، لا لاحتمال جمع شتات الجيوش النمساوية فقط ، بل لأنه علم أن لا أمل في وصول أى مساعدة من جيوش الرين [1] ، وأن من المحتمل قيام ثورات بين فلاحى البندقية والتيرول فتقطع عليه خط الرجعة .

قدّم نابليون إلى النمسا ، على سبيل الاستهواء فى أثناء المفاوضات التمهيدية فى لوبين ، جزءاً من جمهورية البندقية القديمة ، تلك الدولة المطمئنة ، التى لم تفكر فى مناوأة فرنسا ، والتى لم يكن نظام حكومتها استبدادياً بدرجة تبرر تقويض أركانها . أنما يجدر قبل البحث في موضوعها ، أن تذكر أن صاحب فكرة تقديمها طعمة للنمسا هو بونابرت دون سواه ، وأن صاحب فكرة قبول تلك الطعمة هو توجوت (Thugut) رئيس الوزارة النمساوية . ذلك أن نابليون اختار في تلك الآونة سياسة لاهى جمهورية ولا هى ملكية ، بل كان غرضه أن أن يعقد صلحاً مع النمسا بسرعة مهما يكلفه الأمر ؛ وعرف أن أقرب طريق لحمل النمسا على التنازل عن بلجيكا ولمبارديا هو منحها البندقية

---

(١) راجع الحاشية رقم (١) ص ٤٤ .

في مقابلهما . ولم يأبه نابليون لشهرة تلك الدولة الصغيرة ، التى كانت سوق اللهو للأغنياء والمقامرين ، ولم يحرك ضعفها السياسى في قلبه الشفقة بل الازدراء . ومن الغريب أنه اعتقد أنه عمل ما فيه الكفاية فى سبيل تحرير إيطاليا ، وأن حرمان البندقية من حريتها ليس بالثمن الباهظ الذى يقدم لشراء حرية لمبارديا . لذلك عقد النية على خلق مشكلة بينه وبين البندقية بأى شكل من الأشكال ، وليس ذلك بالأمر العسير : فأن البندقية كانت من الضعف بحيث لم يمكنها أن تحمى حيدتها ، أو أن تخمد المظاهرات التى قامت فيها ضد المبادىء اليعقوبية .

على ذلك اتخذت حادثة قيام فتنة فى ڤيرونا ذريعة لنشر الثورة فى البندقية نفسها ، فسقطت الحكومة العتيقة كمن يسقط مغشياً عليه . وانقلب أهل البندقية انقلابا عجيباً ، إذ أصبحوا مملوئين حماسة نحو العلم الثلاثى الألوان وشجرة الحرية والقلنسوة الحمراء وكل شعائر الثورة . لكن سرعان ما انقضى ذلك الجنون الصيفى ، ولم تحل ثلوج أكتوبر على قمم الجبال حتى رأى نابليون أن الوقت قد حان لامضاء المعاهدة (١) ، وحتى علم البنادقة أن شجرة الحرية والقلنسوة الحمراء والعلم الثلاثى الألوان لم تمنع وقوع أكبر المصائب التى يمكن أن تحل بدولة . كذلك قسمت الجمهورية ورفرف العلم النمساوى المكروه ذو النسر الأسود على بحيرات البندقية .

---

(١) يعنى المعاهدة بينه وبين النمسا بشأن أيطاليا بما فيها تقسيم البندقية .

أذا كان من البدهيات أن ما عمل نابليون كان خاليا من الأنسانية فأن وصف نابليون بالرجل الفظ، ليس من الصحة فى شيء : حكى أن ثلاثة من البنادقة أرسلوا سراً إلى فرنسا، لرشوة رجال حكومة الأدارة، ثم قبض عليهم في الطريق بأمر القائد العام، وأعيدوا مهانين إلى ميلان ؛ فلما مثلوا أمام نابليون، تكلم أحدهم واسمه داندولو (Dandolo) وأفصح عما فى قلبه حتى حرك دموع نابليون، وجعله يبذل ما فى جهده لأقناعه أن فعلته لم تكن إلا شيئا مؤقتاً، أملته الضرورة القصوى، ووعده خيراً ؛ وكانت تلك العبرات صادقة حقا، وقد بر نابليون بوعده بعد موقعة استرلتز [1].

ليس القضاء على البندقية أشهر الأعمال السياسية التى قام بها نابليون فى إيطاليا، بل هناك ما هو أهم منها وهو تأسيس جمهورية الألب الشمالية (Cisalpine Repubic) . وكثيرا ما قضت دول على دول، وأقرب الأمثلة عهداً بولندا، التى قضى على حكومتها وقسم أهلها إرضاء لمطامع جيرانها . أما قيام جمهورية فى شمال إيطاليا، كوليدة الدولة الفرنسية وتلميذة ثورتها، فقد كان باعثا لروح الحرية القومية فى إيطاليا، وإهانة للأسرات الملكية التى لايتفق وجودها مع تلك

(١) فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٠٥، تنازلت النمسا بمقتضى معاهدة برسبورج، التى تلت هزيمتها فى استرلتز على يد نابليون، عن جميع ماحصلت عليه بمعاهدة كامبوفورميو، ثم ضمت تلك الأراضى الى مملكة ايطاليا.

الحرية القومية . وقد يقول النقاد أن الجمهورية الجديدة كانت خليطا غير متجانس ، مكونا من لمبارديا وجهات ما وراء البو وأقسام صغيرة من البندقية وسويسرا ؛ فهى والحالة هذه لن تعمر طويلا ، لما بين أجزائها من الفوارق . إلا أنه من المهم ملاحظته أن الجمهورية الجديدة ضمت أكثر سكان إيطاليا نشاطا وتقدما ، وكانت حاضرتها ميلان ذات المجد القديم ، وأنها ضمت أيضا مقاطعة بولونيا مهد العلم ومعقل الوطنية الحارة ، وأنها لم تؤسس على مثال الجمهوريات الإيطالية الصغيرة التي اضمحلت في أواخر القرن الخامس عشر ، بل أسست على قاعدة تقييد المصالح المحلية ، التى كانت قديما سببا فى خراب إيطاليا . هذا ، وكم من أسرة قام أبناؤها بأدوار عظيمة فى تحرير إيطاليا في القرن التاسع عشر ، فكان تأسيس جمهورية الألب الشمالية وما بعث بعد ذلك من الآمال والمصالح ، السبب الاول فى تطلعها إلى المسألة القومية الكبرى وهى تحرير إيطاليا .

يكاد الانسان يعتقد أن نابليون لبى داعى لحمه ودمه ، لما أقام تلك المدرسة لتربية إيطاليا تربية سياسية . ولم لا ؟ . ألم يك نابليون فى الأصل أيطاليا ؟ ألم يهتف له الايطاليون كما يهتفون لأحد أبناء وطنهم؟ ألم يتكلم لغتهم ويعرف مكنون قلوبهم ؟ لكن إذا كان في عمله أى عاطفة من جانبه ، فان تلك العاطفة لم يولدها فيه الغرور ، لانه كان

عارفا تمام المعرفة عيوب الطبائع الايطالية ، ومدركا أن قوما بلا غرض ولا عزم فى الحياة ، مرت عليهم دهور لم يمارسوا فيها الواجبات العامة، ليسوا أهلا للحرية السياسية . قوى هذا الاعتقاد فى نفسه ما رآه من أنصار المبادىء اليعقوبية من أهل ميلان ، ولذلك بالرغم من منحه الجمهورية الجديدة دستورا على نمط الدستور الفرنسى ، فأنه عين بنفسه الوزراء والقضاة والنواب وكبار الموظفين ، وأخبر الحكومة فى باريس أن جمهورية الألب الشمالية أسست بمساعدة الجيش ، وأنها لا تستطيع تسيير شؤونها إذا سحب منها الجيش . أما عن المستقبل ، فكان نابليون واثقا من أن حياة الخدمة العسكرية الاجبارية ستعلم أهل تلك الجمهورية مزايا الاتحاد والتماسك السياسى والمسئولية القومية . هذا وكان نابليون عارفا أن الفلاحين يكرهون الحكومة التى تستحل أخذ محصولاتهم الجيدة بأوراق مالية منحطة القيمة . لذلك كله أكد نابليون لحكومة الإدارة أنها إذا سحبت الجنود الفرنسية ، عرّضت للضياع حياة كل من أعانه على إقامة الجمهورية الجديدة.

وفي ربيع وصيف سنة ١٧٩٧ ، بينما كانت المفاوضات دائرة مع النمسا ، وبينما كانت إيطاليا تتعود نظام الجمهورية الجديدة ، كان نابليون يعيش عيشة الملوك فى قصر مومبلو الفخم (Mombello) الذى يبعد اثنى عشر ميلا عن ميلان . هناك كان لا ينقص نابليون

إلا التاج ؛ إذ كان يستقبل سفراء الدول ويقيم المآدب العامة ، وإذا ركب سار فى معيته حرس بولندى . واتبعت حاشيته نظام رسميات دقيق ، وانهالت عليه القصائد والأناشيد الايطالية ، التى دعته بطل الزمان ، ومشيد أركان السلام ، وهنيبال الجديد ، ورسول الانسانية ، ومنقذها من براثن الاستبداد وعسف الطبقات الممتازة . والتف حوله ثلة من صغار الضباط الأذكياء الذين كانوا يتميزون فرحاً بما نالوه من الانتصارات ، وبما أمامهم من الآمال في المستقبل ، لم يفرق الحسد بينهم بعد ، تجمعهم رابطة الحرب التى تصفو فيها القلوب للقلوب . وكان إلى جانبه جوزفين المملوءة بشاشة ، تداعب زوجها المملوء غيرة عليها ، ومعها أخوات نابليون الثلاث ، ترعاهن أمهن وكلهن في بحبوحة العز المقيم . وبين هؤلاء كان نابليون باشا متواضعاً لكل أخصائه ، على رغم عبوسه وكبريائه فى ساعات العمل . وكل الذين حوله كانوا معجبين بفكاهته التى تشرح الصدور ، وبشاشته الطبيعية ، وبعلمه الواسع عند بحث المسائل الأخلاقية أو السياسية . وزاد إعجابهم به لما وجدوا أنه شفيق ، يستنيم للمشورة ، مجد فى عمله ، قادر على استدعاء النوم فى أى وقت . وكان يخيل إليهم أحياناً أن ليس هناك حد لأعماله وأغراضه ؛ فتارة يجلس مع رجال أركان الحرب مصغياً لأبحاث مونج [1]

---

(١) ولد جاسبار مونج (Gaspard Monge) علم ١٧٤٦ . وهو علم فرنسى شهير فى الرياضة ، انتخب عضوا فى الأكادمية الفرنسية سنة ١٧٨٠ ، وفى ابان الثورة عين وزير البحرية الفرنسية . ثم أوفدته حكومة الادارة ألى أيطاليا حيث تعرف بنابليون.

فى الهندسة ؛ وتارة يجلس فى حلبة يقص حكايات خرافية . أما ثقة نابليون بنفسه فكانت لاحد لها ، وأماعظمته فكان لا ينكرها أحد : كان يمشى ذات يوم فى حدائق قصر مومبلو مع الشريفين الأيطاليين ميو (Miot) وملزى (Melzi)، فأفضى إليهما بشىء من أطماعه . قال مستفهماً : ››وهل تعتقدان أنى أنتصر فى إيطاليا لأبنى مجد رجال حكومة الأدارة؟‹‹

غير أن ›› الكمثرى كانت غير ناضجة ‹‹ كما قال نابليون ؛ وهو وإن كان يحتقر رجال الحكومة فى فرنسا ، فأنه أدرك أن ليس فى مقدوره القضاء عليها بل بالعكس ، ولما كادت أمور الدولة تؤول إلى الملكيين ثانية ، كان نابليون السبب فى تخليصها . فلقد كانت هناك ثلاثة أسباب راجحة تجعله يعمل على منع رجوع آل بربون إلى باريس : الأول أنهم لابد سيبدءون الصلح مع أوربا ؛ الثانى أنهم سيتولون زمام الأمور فى فرنسا ؛ الثالث أنهم لاشك سيستغنون عن خدماته . أضف إلى ذلك أن حكم ثلة ممن قاموا بقتل الملك ، كان على الأقل خيراً من أيام النظام القديم ، لوجود رجال أمثال بارا ممن يمكن رشوتهم وكتم أنفاسهم . لذلك لما جاءت الأخبار من باريس تنبئ بنجاح كثير من الملكيين فى الانتخابات ، عمل نابليون منشورات جمهورية ، وأرسلها إلى باريس باسم الجيش فى إيطاليا ، كما أوفد أوجيرو لألقاء الرعب فى نفوس الباريسيين ، ولتطهير المجلسين النيابيين من

الأعضاء الرجعيين . وانتهى الأمر بانقلاب فركتيدور[1] الذى نجح نجاحاً مبيناً فى إخماد أنصار الملكية ، وتأسيس حكومة عنيدة ضعيفة فى آن واحد . ثم زها الطالع لنابليون : فإنه فى الخريف الذى حصل فيه الانقلاب خرج من الميدان أكبر مزاحميه ذكاء وهم هوش (Hoche) وبشجرو (Pichegru) ومورو (Moreau) ؛ إذ مات الأول وهو فى ريعان الشباب ، واتهم الآخران بالعمل ضد انقلاب فركتيدور . وهكذا بلغ نابليون ذروة المجد ، وزادت شهرته كأكبر دعاة الجمهورية ، واعترف الكل بحكمته فى السياسة المعتدلة التى اتبعها فى إيطاليا . هذا ، وفى ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧ وقع على معاهدة كامبو فورميو مع النمسا ، فبرهن أنه لا يقل دهاء عن كوبنتزل (Cobentzel) رئيس المفوضين النمسويين ، وأكبر سواس أوربا وأكثرهم حنكة فى ذلك الوقت . وبمقتضى تلك المعاهدة تنازلت النمسا على جلائها عن بلجيكا وعن حدود الرين لفرنسا ، واعترفت بجمهورية الألب الشمالية ، وأخذت فى مقابل ذلك الجزء الشرقى من البندقية . أملى نابليون تلك تلك الشروط ، أما فرنسا والنمسا فكان عليهما أن تقبلاها على أى شكل كان .

---

(١) فركتيدور هو الشهر الثالث من تقويم الحرية الفرنسية ، وقد وافق الانقلاب يوم ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧ .

الفصل الثالث

مصر والشام

نتج عن عقد معاهدة كامبوفورميو ، أن بقى من خصوم فرنسا الستة عدو واحد هو انجلترا ، التي بقيت لآخر لحظة معادية لنابليون دون الدول الأخرى . وكانت انجلترا في نظر نابليون أصلب أعدائه عوداً ، لما كانت عليه من الثروة واتساع المستعمرات والقوة البحرية ، ولأنها كانت لا تألو جهداً فى بث الفتنة فى فرنسا . أما النمسا فإنها وإن كانت قد أبلت في ميادين لمبارديا ، إلا أن علمها لم يخفق على مكان بفرنسا ، كما خفق العلم البريطانى على ميناء طولون أو على خليج كويبرون . على أن انجلترا كانت ملاذ اللاجئين من دعاة الملكية الفرنسية ، ومحور التحالف الأوربى ضد فرنسا ، والمتسلطة على البحار . وما دامت انجلترا على تلك الحال ، فسيظل النظام الذى أقامته الثورة فى فرنسا مهدد الأركان . وفى هذا الصدد كتب نابليون فى ١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٧ ، قال : « يجب علينا سحق انجلترا وإلا سحقتنا ، وللقضاء عليها يجب توجيه كل قواتنا نحو البحر ، فإذا نجحنا أصبحت أوربا تحت أقدامنا » .

لا يخفى أنه لو كانت فرنسا عازمة على سحق انجلترا ، لوجب عليها تنظيم بحريتها سريعاً ؛ لأن الثورة ، وإن كانت بعثت فى جيوشها البرية روحاً جديداً ، فانها أحدثت أثراً سيئاً فى قواها البحرية . وذلك أن البحرية ، على مايلزم لهـا من مهارة فنية وخبرة طويلة فى كل نواحيها ، قد غشيها الفساد لشيوع مبادىء الثورة ، التى لاتعبأ بالنظام ولا تعرف لاختلاف درجات الرجال معنى ؛ فقامت الفتن في أحواض السفن ، واستغنى عن خدمات رجال المدفعية البحرية المدربين ، واضطر كثير من الضباط الكفاة أبناء الأسر العريقه إلى ترك الخدمة. ولذلك أصبحت البحرية الفرنسية، التى أبلت بلاء حسنا أثناء الحرب الأمريكية ، مختلة النظام لدرجة لم يمكن تلافيها حتى فى أوج عظمة نابليون . وإنه لمن أسعد مصادفات التاريخ أن تلك الدولة الحربية ، التى لم يظهر لها مثيل فى أوربا ، كانت ضعيفة في بحريتها ، حتى أن آمالها في بسط نفوذها على ربوع آسيا واستراليشيا وأفريقية وأمريكا ضاعت بتغلب القوى التى قامت لمناضلتها حفظا لكيانهـا ، وانتصاراً للحرية السياسية .

كان من المحتم أن يناط أمر منازلة انجلترا إلى نابليون القائد الشاب الذى توج انتصاراته الباهرة بصلح مبين . ولم يكد نابليون يعين على رأس الجيوش الموجهة ضـد انجلترا ، حتى بدأ يتفقد شواطئ بحر

المانش في فبراير سنة ١٧٩٨ ، فأدرك استحالة غزو انجلترا قبل إعداد المعدات الكافية التي يستغرق إعدادها وقتا طويلا . على أن انجلترا لم تكن في نظر نابليون جزيرة فقط ، بل دولة ذات سلطان واسع ، تستمد معظم قوتها من تجارتها الواسعة وممتلكاتها فى الهند ، يجد طرقا عدة لمهاجمتها ؛ فإذا امتنع طريق بحر المانش ، كان هناك البحر الابيض المتوسط ، حيث يمكن تسيير حملة على مصر ، تحمل انجلترا على توزيع قواها البحرية — الأمر الذى يستحيل بدونه الزحف على لندن.

ولقد كانت هناك بواعث أخرى تبرر غزو مصر : فإن نابليون منذ حداثة سنة كان يحلم بجمال الشرق وعظمته وما يحويه من الأسرار، يسهله عليه أنّ روّاد البحر من أهل قرشقة كانوا ملمين تمام الالمام بساحل تونس المجاور لهم ، وتونس قريبة من مصر ، ومن مصر يسرح الخيال إلى مكة وطهران ، وإلى صحارى العرب وحدائق الورد ببلاد العجم ، وإلى المعابد البيضاء على ضفاف الكنج المقدس. ولقد فكّر نابليون وهو فى سن الشباب ، أن يندمج فى سلك الجيش البريطانى فى الهند ؛ وكاد يوما ، وهو قائد صغير ، يذهب إلى تركيا ويبدأ فيها حلقة من سلسلة حياته الحربية [1] ؛ وفى أثناء الحرب

---

[1] طلب نابليون مرة وهو حديث العهد بالخدمة فى الجيش الفرنسى أن توفده الحكومة لتركيا لتنظيم للدفعية فى جيش السلطان ، وكان غرضه من الذهاب أن تتاح له فرصة الاتصال بالشرق ، ولكن لم يسمح له بسبب غضب حكومة الادارة عليه وحذف اسمه من قائمة القواد. (انظر ص ٢٤).

الأوربية اشتدت عقيدته فى قوة القضاء والقدر ، لما أحرزه من النصر تلو النصر ، وشعر كأن قوة خفية تجذبه نحو الشرق . وكان يتحدث بذلك لأصدقائه فى كثير من الأحيان ، حتى أصبح يعتقد أن إيطاليا ليست نهاية أحلامه ، بل هى نقطة الابتداء ؛ وأن شكلها الجغرافى الممتد فى البحر ، وسواحلها الكثيرة التعاريج ، ستسهل عليه الاستيلاء على أصقاع البحر الأبيض المتوسط ، وما وراءها من البلاد . لذلك استولى على أنكونا ، ليكون له ميناء مشرفا على الشرق ؛ واستولى أيضاً على جزر أيونيان ، وسيطر على جنوا . وأسس الجمهورية الليجورية بها ، لتكون له قواعد على البحر الأدرياتى ، واعتمد على الحظ لإثارة الفتنة فى اليونان وللقضاء على تركيا قضاء مبرما .

لايخفى أنه لو نجحت الحملة فى الاستيلاء على مصر ، لكان من المحتمل أن يختل التوازن الدولى : إذ كان من الممكن أن يترك نابليون الأسطول الانجليزى يروح ويغدو على مقربة من الأسكندرية ، ويعود هو إلى المانش ، فينقض على الشواطىء الانجليزية ، ويقضى على حكومتها . وكان من الممكن أيضاً أن ينتج عن فتح مصر وشق قناة السويس وتحصينها ، تجهيز حملة للسير إلى الهند للانضمام إلى قوى المهراتا[1]

(١) المهراتا اسم يطلق على عدة إمارات فى الهند الوسطى ، ناوأت الانجليز مدة طويلة أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

لطرد الأنجليز من ممتلكاتهم في الشرق . أما إذا أخفق المشروعان السابقان ، فلا يزال أمام الذى يستولى على مصر مشروع فتح سورية والاستيلاء على القسطنطينية وتمزيق أوصال الدولة العثمانية .

أما نابليون فانه رأى من الحزم أن يتخلص من الجو السياسى المكفهر فى باريس بأسرع ما يمكن ، ولا سيما أنه لم يكن قد بلغ الأربعين من عمره ليصلح للعضوية فى حكومة الأدارة . ثم أنه كان موقناً أن الشهرة مهما تبلغ ، فان جذوتها لاتلبث أن تنطفىء إذا هى لم تذكها جلائل الأعمال . يثبت ذلك أنه قال فى ٢٩ يناير سنة ١٧٩٨ لناموسه بورين : ,, لا أريد المكث هنا ، فليس من عمل أقوم به . إن آذان القوم قد صُمَّتْ ، وإن هذا البلد مقبرة النبوغ . قد بليت شهرتى على جدّتها ، وليست أوربا بالميدان الواسع اتساعاً كافياً ، أما الشرق فهو مجال نيل الشهرة الواسعة ،،. لاشك هنا أن ذكرى الأسكندر الأكبر كانت ماثلة أمام عينى نابليون ، فضلاعن أنه كان يعتقد أن وراء أوربا ، وما فيهامن تقاليد راسخة ومدنية خانقة، بلادا غيرها مترامية الأطراف ، حيث ظهرت دول ودالت دول ، فزُيّن لنابليون أن فتحها ليس عليه بعزيز ، وأن تنظيمها حسب أرادته ليس بالأمر العسير .

قبلت حكومة الأدارة رأيه ، ولا عجب فقد كانت فرنسا تعتبر

مصر ، منذ أيام سان لويس وحربه الصليبية ، مطمح آمالها دون كل بلاد الشرق الأدنى . وكان المعروف عن مصر ، أنها ذات مدنية شهيرة عتيقة بالية ، وأن قوتها الحربية معروفة بضعفها ، وأن حكومتها فى أيدى المماليك الأجانب الطغاة ، وكان قد اقترح ليبنتز (Leibnitz) على لويس الرابع عشر الاستيلاء على وادى النيل ، وليبنتز هذا أشهر فلاسفة الألمان . وكانت الفكرة نفسها من مشروعات شوازيل (Choiseul) أمهر وزراء لويس الخامس عشر . وفضلا عن كل ذلك فأن فتح مصر سيضايق انجلترا حقّاً ، وسيُبعد نابليون ، ولو لأجل قريب ، عن دائرة سياسة فرنسا الداخلية ، وهو الرجل الذى برهن على أنه فرد غير عادى ، وأنه خطر على النظم الديموقراطية . بقيت العقبة المالية ، وتلك ذللت بطريقة امتازت بها سياسة فرنسا الجمهورية : وذلك أنها تذرعت بسبب واه لغزو سويسرا ، وخصصت من الكنوز التى استولت عليها فى برن (Berne) ، ثلاثة ملايين فرنك ، لتموين الحملة على مصر .

أقلع نابليون من طولون في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ، فى جماعة من مهرة القواد والعلماء ورجال الفنون والمهندسين ، على رأس جيش مدرب مؤلف من ثمانية وثلاثين ألف مقاتل . وكان برتييه رئيس

أركان الحرب ، وكان بين القواد مارمون[1] ولان (Lannes) ومورا ودبزيه[2] وكليبر (Kléber) . ثم كان فى وجود الرياضيين وعلماء طبقات الأرض والأثريين والكيميائيين ما دل على اهتمام القائد العام بالأمور المدنية ، وعلى رغبته فى أن يكون فتح مصر مخالفاً للفتوح العادية . والسبب فى ذلك أنه منذ انتخابه عضواً فى المجمع العلمى ، فكّر فى إماطة اللثام عن أرض الفراعنة بالبحث العلمى ، وكان فى نيته أيضاً أن يدرس الشرق وشرائعه وعاداته وفنونه ومصنوعاته ومزروعاته ، وكذلك ديانته التى هى لحمته وسداه . بذلك يصبح الأنجيل والقرآن توءمين فى مكتبته السياسية ، ويتمكن نابليون من محادثة الشرق بلغته وبما تعوده الناس من الأفكار ؛ فتصير فرنسا على يده سيدة فى مصر ، تعمل بالحسنى ، وتعامل المصريين بما يناسب عقولهم ، وتسهر على تحسين موارد الثروة ،

---

(١) ولد أغسطس مارمون (Auguste Marmont) سنة ١٧٧٤ . دخل الجيش وهو صغير السن ،وتعرف بنابليون فى حصار طولون سنة ١٧٩٣ . ولقد بدأت شهرته أثناء وجود الفرنسيين بمصر ،وظل فى خدمة الجمهورية والامبراطورية حتى سنة ١٨١٤، حين رأى أن الأمل فى انتصار نابليون قد ذهب، فعقد هدنة مع جيش الحلفاء كانت السبب فى تنازل الامبراطور عن العرش وقبوله الذهاب إلى جزيرة إلبا . ولقد كافأه آل بربون على تلك الفعلة التى خدمتهم بكل ما فيهم ، وعاش مارمون حتى سنة ١٨٥٢ ،فكان بذلك آخر من مات من كبار قواد الامبراطورية النابليونية.

(٢) أبلى ديزيه (Desaix) أحسن البلاء أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر ، اذ أرسله نابليون لتعقب فلول المماليك فى الوجه القبلي، فنجح نجاحا تاما حتى ألجأ مرادبك قائد المماليك بجمعه الى السودان .

وتتخذ من سكانها الفاترى الهمة الخاملين الكثيرين مورداً جديداً لقواها الحربية [1].

كان طريق الحملة الفرنسية البحرية، المكونة من ٤٠٠ نقالة قاصدة إلى مصر، محفوفا بمخاطر هائلة لم تكن فى الحسبان . لكن على الرغم من وجود نِلْسُنْ اجترأ الأسطول على مهاجمة مالطة ، وصادف نابليون الحظ ، لأن الحامية التى رصدت له فى حصن قالتا المنيع كانت شرذمة من الخونة والجبناء، تخلت عن الحصن فى ١٣ يونيه ؛ وبذلك تمكن الأسطول الفرنسى من الوصول يوم أول يوليه إلى مياه الأسكندرية . هناك نزلت الجنود إلى البر بدون أن تلقى مقاومة ؛ ولو أن نابليون وصل إليها قبل ذلك بثلاثة أيام، لوجد نلسن بثلاثة عشر مركبا من ذوات الأربعة والسبعين مدفعا ، فى انتظاره يصليه ناراً حامية . إلا أن الأحوال خدمته : فبينما كان أمير البحر الانجليزى مسرعا نحو مصر ، أصدر نابليون الداهية أوامره إلى أسطوله ليتجه نحو شاطىء جزيرة كريت الجنوبى . ولولا ذلك التأخير من جانب نابليون، وتلك العجلة من جانب نلسن ، لتقابل أكبر قواد البر مع أمير أمراء البحر فى التاريخ كله، فى موقعة بحرية كانت تنجلى بلا جدال عن هزيمة الفرنسيين .

يلزم لمهاجمة مصر بنجاح الزحف نحو القاهرة على أحد فرعى

(١) نوجه نظر القارىء الى أن هذه العبارة ترجمة لما ورد فى كلام المؤلف .

النيل ، مع تجنب أرض الدلتا ، لمستنقعاتها وقنواتها المتعددة ، التى كانت السبب فى فشل ما تقتضيه الخطط الحربية فى مصر ؛ فزحف الجيش من الاسكندرية عن طريق الفرع الغربى للنيل ، وواجه نابليون المماليك وخيالتهم المقاديم البُسّل ، بجيش نظمه على شكل مربعات تظاهره مدفعية قوية . ودخل القاهرة ، ودان له الوجه البحرى بعد موقعة حاسمة قرب الأهرام ، انتصر فيها بدون خسائر كبيرة . حدث ذلك بعد ثلاثة وعشرين يوما من نزول الجنود الفرنسية إلى البر عند الاسكندرية ؛ ولو أن النيل كان فى زمن الفيضان، لتمكن نابليون من مطاردة المماليك جنوبا ، ولاستحال على فلولهم المتفرقة أن يُجمع شملها ثانية .

كان مركز الجيش الفرنسى ، فى وسط أمة إسلامية شديدة الاستمساك بدينها ، لا تبعث بطبيعة الحال على الاطمئنان ، على رغم الانتصارات الأولية الحاسمة ، التى أحرزها نابليون "أبو النار" ، كما كان يلقبه المصريون . أدرك نابليون ضرورة مجاراة الميول الدينية السائدة فى أمة اشتهرت بتعلقها بالأوهام ، وذكر في نفسه كيف أن زيارة الاسكندر الأكبر لمعبد آمون جعلته ابن جوبتر كبير الآلهة[1] ، وكيف "نال الاسكندر بتلك الخطوة ما لم يكن يناله

---

(١) آمون أحد آلهة المصريين القدماء ، وقد انتشرت عبادته إلى بلاد اليونان والرومان من بعدهم ، حيث سماه الأولون زفس (Zeus) والآخرون جوبتر (Jupiter) ، وهذا يفسر اقتران اسم آمون المصرى باسم جوبتر الرومانى .

لو كان تحت إمرته مائة وعشرون ألفا من المقدونيين ». لذلك عزم نابليون على أن يقفو أثر سلفه فى سياسته هذه، فكان يجلس فى الجامع الأزهر بين العلماء، حيث جرت العادة أن يجلس ستون عالما لشرح القوانين ولتفسير كتاب الله. بين هؤلاء القائمين بالمحافظة على الدين كان يجلس نابليون جلسة الخاشع، يصف لهم فى وقار حالة نفسه الورعة الخاشعة، ويناقشهم فى معانى بعض المسائل الواردة فى كتاب الله، ويظهر إجلاله العظيم للنبى (صلى الله عليه وسلم)؛ حتى اعتقد العلماء أنه لولا عقبتان، وهما شرب الخمر والختان، اللذان حرم القرآن أولهما وحض على ثانيهما، لكان من الممكن أن ينتحل جميع الفرنسيين النازلين مصر دين الأسلام. واعتقد العلماء أيضاً، أن الأسلام سيملك على الجنود مشاعرهم، ويتمكن من قلوبهم، لأن الالحاد الشديد الذى كان منتشراً بين جنود الجمهورية لم يتأثر برجوع الكاثوليكية [1]. ولكيلا يفوت نابليون شىء فى سبك خدعته، أمر بوضع التصميمات لبناء مسجد كبير يسع كل الجيش الفرنسى، ليشهد بأذن الله فى يوم قريب، أن لا أله ألا الله، وأن محمداً رسول الله.

أفسد على نابليون كل خططه حادثتان فجائيتان، لم يكن وقوعهما غير محتمل، وهما انتصار الأنجليز على الفرنسيين فى البحر،

(١) اقرأ تفصيل إرجاع الكاثوليكية الى فرنسا فى ص ٩٦.

وقطع العلاقات بين فرنسا وتركيا : ففي أول أغسطس حطم نلسن الأسطول الفرنسي في أبي قير ، وانقطعت بغتة المواصلات بين الجيش وفرنسا انقطاعا تاما . ولا شك أن هزيمة أقل من تلك خسارة ، تكفي في كثير من الأحيان لسريان الخلل في جيش كامل . وإذا ذكرنا أن جنود نابليون خابت آمالهم في مصر : فبعد أن كانوا يمنون أنفسهم بقصور من الرخام ، وجدوا أكواخا من الطين ، وبعد حلمهم بالأنبذة المعتقة، لم تبتل شفاههم بغير الماء الآسن ، وكانوا يثقون بترحيب السكان بهم أينما حلوا ، فوجدوا أن مجرد ابتعادهم عن المعسكر في أي وقت من الأوقات يجعلهم عرضة للقتل والتنكيل . إذا ذكرنا ما تقدم ، علمنا أن أي خبر سيء ينتشر بين رجال تلك حالتهم ، كان كافيا لحملهم على العصيان جميعا . إلا أن نابليون تلقى أخبار الكارثة في القاهرة بكل هدوء ، ثم جمع ضباطه حوله وخطب فيهم عن ثقة عالية ونفس مطمئنة ، مشيراً إلى الموارد العظيمة الكامنة في مصر ، والتي تحتاج إلى استثمار قائلا : أن بلاداً كمصر كانت في الغابر دولة عظيمة ، في استطاعتها بفضل ما وصلت إليه العلوم والصناعات من التقدم ، أن تسترجع مجدها القديم ، وتبلغ درجة في العظمة ليست في الحسبان . وذكّر نابليون ضباطه أيضا بمناعة مركزهم ، في أرض ليس لها حدود معينة سوى الصحراء من جهة، وساحل منخفض قليل التعاريج من جهة أخرى؛

وأوصاهم فى آخر كلامه أن يحافظوا على الجيش من تسرب الفشل الى صفوفه ، وأن يذكروا أن أمثال تلك الحالات مسبار الهمم . ثم ختم كلامه بعبارة تشف عن شمم وعلو خيال قال : «يجب علينا أن نرفع رءوسنا فوق الطوفان الذى يغمرنا ، فنجعله بذلك مركباً ذلولا ؛ ولا يبعد أن يكون القضاء والقدر قد كتبا لنا أن نغير وجه الشرق ، وأن تكون أسماؤنا منقوشة بجانب الأسماء التى ازدان بها التاريخ فى العصور القديمة والقرون الوسطى» .

بعد ذلك بشهر أعلنت تركيا الحرب على فرنسا ، وأصبح مركز نابليون فى مصر معرضاً لأخطار جديدة داخلية وخارجية . من تلك أنه كانت تتلى فرمانات آتية من عند السلطان فى المساجد لحث المؤمنين على طرد عدو الاسلام ، ونتج عن ذلك أن أوقع نابليون بقسم من أهالى القاهرة عقوبة شديدة ، لقيامهم بالثورة تلبية لنداء أمير المؤمنين . وفى يناير التالى ، بينما كان نابليون فى السويس ينقب عن آثار القناة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر ، جاءته الأنباء أن أحمد باشا الجزار والى سورية ، جرّد جيشاً لغزو مصر ، وأن طلائعه قد استولت على العريش . سُرَّ نابليون أيما سرور بذلك النبأ الذى برّر له غزو الشام للدفاع عن مركزه ، ولانتهاز الفرصة لتجديد الثقة فى صفوف جنوده بالانتصارات المنتظرة ؛ ولا سيما أنه

أصبح غير قادر على الرجوع إلى فرنسا تبعاً لخطته الأصلية ، وأمسى عاجزاً عن الزحف على الهند بدون مدد جديد . على أن فى الاستيلاء على الشام مزايا لا يستهان بها ، وهى سهولة خضوع سكانه ، وتأمين الحدود المصرية الشرقية ، وفقد انجلترا قاعدة بحرية ، وذيوع صيت نابليون فى أنحاء الشرق ، وصلاحية الشام نفسه لبدء الزحف على آسيا الصغرى وتركية أوربا ، وفوق كل ذلك سيقف نابليون للمرة الثالثة موقف المخلص حين يتقدم لتخليص الشام من حكم الجزار الذى لا يطاق ، كما خلص إيطاليا من النمسويين ، ومصر من حكم المماليك.

سارت الحملة السورية تحت سماء لافحة ، يقتلها الظمأ والجوع وانتشار الطاعون ؛ وانتهت الحملة بهزيمة عند أسوار ميناء صغيرة ، لولاها لتغير مجرى الحوادث فى العالم . اكتسح نابليون أول الأمر بجيشه الصغير كل ما اعترض طريقه : فأخذ العريش ، واستولى عنوة على يافا ، ثم سار إلى عكاء مقر الجزار وطوقها بالحصار فى ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ . وهنا برهنت الحوادث على أنه لا يمكن الاستيلاء التام على أرض ذات ساحل ، ما دامت القوى المدافعة متفوقة على المهاجمة فى المعدات البحرية . فلم يكن الجزار السبب فى هزيمة نابليون بل قوة انجلترا البحرية ، التى استعملها بمهارة ذلك البطل الشهم الصلف ، ذى الطبع الشاذ ، السير سدنى سمث أمير

البحر الأنجليزى الذى تمكن ، بفضل المقدرة العلمية التى امتاز بها المهندس الفرنسى بيكار دى فليبو (Picard de Phélipeau) - من حزب الملكيين الناقمين على الثورة الفرنسية - من تقوية الحاميات ، حتى ظل ذلك الحصن الصغير زهاء شهرين يقاوم الألغام والمقذوفات والهجمات التى صوبها إليه نابليون . وفى ٢٠ مارس رُفِعَ الحصار عن عكاء ، لتفشى الطاعون فى المعسكر الفرنسى ، ولقرب نفاد المؤن والذخائر ، ولبلوغ خسائر الجيش فى الهجومين الأخيرين نحو ثلاثة آلاف جندى . ثم جاءت الأنباء بأن أسطولا تركياً في طريقه إلى مصر ، فرأى نابليون ألا يترك دقيقة تذهب سدى . وفي ١٤ يونيه ، بعد مسيرة ما يقرب من ثلاثمائة ميل ، على طريق وعرة وطعام ضئيل ، وصل جيش الشام إلى القاهرة ؛ وبرهن بذلك السفر ، الذى استغرق ٢٦ يوماً ، على مقدار الشدائد التى يمكن أن يعانيها ويتحملها الإنسان ، وعلى ما يمكنه القيام به من الأعمال ، ما دام يسيره قائد عظيم ذو إرادة حديدية .

بقي تحت قيادة نابليون من الجيوش في مصر ، على رغم الخسائر التى أحدثتها الحرب والطاعون ، قوة كافية ، إذا استخدمت بحكمة لمقابلة الخطر الداهم من الشمال . نزل الأتراك ، وعددهم ١٥ ألف مقاتل ، إلى

البر عند أبى قير ، وخندقوا فى أماكن غير منيعة ، وانتظروا ريثمايبدأ نابليون بالهجوم .

لاجدال فى أن انتصار الفرنسيين على الأتراك عند أبى قير ،فى ٢٥ اغسطس،يعتبر أكبر انتصار فى التاريخ، إذا كانت النسبة المئوية فى الخسائر هى مقياس النجاح فى الحروب . ذلك أن الجيش الفرنسى الذى هاجم الجيش العثمانى كان لايزيد على نصف عدده بكثير ، غير أنه كان ممتازا بحسن القيادة والأقدام والمعدات ، فأعمل فيه الرصاص ، واضطره إلى التقهقر نحو البحر ، حيث هلك حتى آخر رجل من جنوده . وامتازت كل الأعمال التى قام بها نابليون فى أثناء تلك الموقعة بالدقة والسرعة والعزم الصادق : كإخلاء الوجه القبلى ، والإسراع بجمع القوى اللازمة للقتال ، وإحكام الهجوم على الاستحكامات الوسطى ، وتقدم الخيالة بقيادة مورا من الجناح الأيسر فى اللحظة المطلوبة . لاعجب إذن أن يمحو انتصار أبى قير عار الهزيمة عند عكاء .

قبل تلك الواقعة بأكثر من شهرين ، كان نابليون عازماً على مبارحة القطر المصرى خفية : لأن أخباراً وصلت إليه من فرنسا تنبىء أن الحرب قامت من جديد فى أوربا ، وأن الروسيا والنمسا وبيدمنت ونابلى تحالفت ضد الجمهورية ، فأسر نابليون يومئذ إلى دومارتان (Dommartin) قائد سلاح المدفعية عزمه على الرجوع إلى فرنسا مع

بعض قواده . قوّى تلك الفكرة فى رأسه أخبار وصلت إليه من عدو داهية : إذ أرسل السير سدنى سمث ، الذى كان يطوف بسفنه قرب الأسكندرية ، إلى نابليون حزمة من الجرائد علم منها أن الفرنسيين طُرِدُوا من إيطاليا ، وأن فرنسا نفسها أصبحت معرضة لخطر الغزو من جديد . من الطبعى فى تلك الاحوال أن يعتقد الرجل الذى يحب بلاده — ما دام يشعر بكفايته الحربية — أن الواجب يقضى عليه بالعودة إلى بلده للذود عن حياضه . كذلك رأى نابليون ، إلا أن الدوافع التى حدت به على ذلك ، كانت لاشك ممزوجة بشىء من المطامع الشخصية . وذلك أنه على رغم جهره بالحنق على الحكومة الفاسدة المتخبطة ، التى أضاعت انتصارى أركولا وريفولى ، كان يدور فى سريرته أن فى عجز رجال حكومة الأدارة فرصة سانحة لظهوره . لذلك أقلع من الأسكندرية ، ليلة ٢١ أغسطس ، وبرفقته مونج وبرتوليه (Bertholet) وسبعة ضباط كانوا أقدر رجاله . أما الجنود الأبطال الذين تحملوا من أجله الجوع والظمأ ، في أرض أجنبية وتحت سماء مدارية حارة ، فأنهم فوجئوا بخبر ترك رئيسهم أياهم ، حتى أن كليبر القائد القدير ، الذى عُهد إليه فى القيادة العامة بخطاب تركه له نابليون ، لم يحظ بفرصة يحتج فيها على هذا العمل .

هذه قصة الحملة الفرنسية على مصر ، تلك الحملة التى بدأت

تحفها الجلال وانتهت بتسلل صاحبها في الخفاء . على أن تقديراً صحيحاً لكل أحوال هذه الحملة يحتم وقوع الفشل ، لتفوق الأنجليز فى البحر من جهة ، وعدم إخضاع عرب السودان إخضاعاً تاماً من جهة ثانية — والأمر الأخير لا يمكن إخضاع مصر بدونه . وأذا سلمنا جدلا أن مهارة نابليون كافية لتثبيت قدم الفرنسيين فى وادى النيل تثبيتا يمكنهم من مقاومة حصار بحرى واحتمال خسائر حروب الصحراء ، فأن المشروعين اللذين كان فتحُ مصرَ مقدّمة لهما ، كانا لا يمكن تحقيقهما أبداً ؛ لأننا إذا ذكرنا المصاعب التى تجشمتها الحملة الفرنسية الصغيرة فى زحفها الذى لم يستغرق طويلا على الشام ، وذكرنا الشدة التى لقيها القائمون بتموين الجيش ، وما لحق الجيوش من فتك الأمراض وخسائر القتال ، لم يك ثمّت بد من أن يكون نصيب الحملة على الهند الفشل ، لاسيما وأنها ستحتاج إلى جيوش أكثر ، تستنفد مجهوداً أكبر ، فضلا عن أنها ستقطع مسافات بعيدة ، فى وسط أرض أكثر وعورة ، لا يعرف عنها شيء ، كما كان معروفاً عن فلسطين .

كذلك لم يكن مشروع القضاء على الدولة العثمانية ، الذى أفضى به نابليون إلى بورين قبل ترك حصار عكاء ، باعثا على أى أمل فى النجاح ؛ لأن جيشا مؤلفا من تسعة آلاف مقاتل ، لا يمكن أن

يقطع المسافة بين عكاء إلى القسطنطينية في جوف الصيف دون أن يمسه أذى . و إذا سلمنا بنجاح نابليون فى الوصول بسبعة آلاف مقاتل ، فما وسيلته لعبور الدردنيل ؟ وكيف يستولى على القسطنطنية ، إذا كان من المحقق أن ستدافع عنها القوة المؤلفة من البحريتين التركية والانجليزية؟ لاشك أن كلا المشروعين كان خيالا باطلا . وقصارى القول أنه إذا كانت مسألة الاستيلاء على القسطنطنية فكرة جدية اضطر نابليون للتخلى عنها بسبب امتناع عكاء ، فأن السير سدنى سمث حال بين نابليون وبين الفشل المحقق .

أن الحملة الفرنسية على مصر بوجه عام ، والمشروعين اللذين أضيفا إليها بوجه خاص ، وإن كان يشوبهما شىء من الخطأ فى التقدير ، فأن ذلك لم يقلل من عظمتها ، ولا من نتائجها الدائمة . ذلك أن نابليون أتى إلى مصر بنظم الحكومات المتمدينة ، وأتاح لأوربا دراسة علمية لآثار وادى النيل ولغته . قال نابليون ضمن ما كتب عن أخبار تسيير ديزيه إلى الوجه القبلى لتعقب المماليك : "للمرة الأولى منذ عهد الامبراطورية الرومانية ، شرعت أمة متمدينة ، بدافع حبها للعلوم والمعارف ، تبحث وتنقب عن تلك الخرائب الفخمة ، التى شغلت عقول الجماعات المتنورة منذ قرون " . ولا ريب أن الحجر المنقوش بثلاث لغات ، الذى كشفه عند رشيد ضابط فرنسى فى

جيش نابليون ، هو الذى دلّ شامبليون (Champollion) على مفتاح اللغة الهيروغليفية . ولا ريب أيضاً أن كتاب « وصف مصر » الذى وُضع كل ما جاء فيه بناء على مشاهدات العلماء الذين رافقوا الجيش ، كان أول وصف علمى لتلك البلاد ، التى دفعت هيرودوت منذ أربعمائة سنة قبل المسيح لكتابة أبهى وأشهر جزء من تاريخه .

أما تأثير فتح مصر والشام فى شهرة نابليون فعظيم. أجل! واى عظمة تريد أكثر من شهرة تأتى من طريق فتح بلدين متعلقتين بأقدم ذكريات النظم المسيحية وأقدسها ؟ وأى الأسماء يمكن أن يكون أشهر من الاسكندرية والاهرام ويافا والناصرة[1] ؟ أسماء ذائعة الصيت ، وأذاعت صيتها من جديد انتصارات بونابرت . ومن المهم ملاحظة أن جميع الاخبار ، التى كانت تأتى من ميدان القتال ، لم تشر إلى هزيمة ما ، حتى أن هزيمة عكاء أُخبِرَ عنها فى فرنسا كأنها انتصار . وكانت تملأ تلك الاخبار قلوب جمهور القراء الفرنسيين بعاطفة الفخر والاعجاب نحو الشاب المدهش ، الذى فاقت أعماله بين أرض الاقدمين قصة الحروب الصليبية ، وبهرتهم بموازنتها بالاضطرابات والهزائم الداخلية .

---

(١) بلد ميلاد المسيح وهى واقعة جنوبى شرقى عكاء على بعد ٣١ ميلا منها .

الفصل الرابع

تنظيم فرنسا

قبل أن يُدعى ناخب لعمل انتخاب ، كانت فرنسا قد أسلمت أمورها مختارة من شهور لنابليون . وذلك أنه لما وصل ميناء فريجس[1] (Fréjus)، بعد الاحتجاب ستة الأسابيع التى استغرقها السفر من مصر إلى فرنسا ، كان لوصوله رنة فرح وسرور فى أرجاء البلاد ، كأنما عثر الناس على الدواء الناجع لجميع أدواء الأمة. ولاعجب فقد تدهورت حكومة الإدارة حتى استقرت فى دركات الفشل ، وسئمت فرنسا الحرب والثورة ، واعتقدت بحق أن البطل الذى فتح إيطاليا ، ونظّم مصر ، والذى لم يغامر في المنازعات العنيفة والمطاحنات الحقيرة التى حدثت فى باريس ، والذى لم يعمل إلا للجمهورية ، هو الذى يجد خلاصاً من ذلك الموقف الذى يزداد سوءاً كل يوم ، ويمكنه إرغام النمسويين والروس والانجليز على قبول صلح شريف ، والذى يستطيع إخماد الفتن التى اثارها الملكيون فى لافنديه[2] ، والضرب على أيدى

(١) و (٢) انظر مصور رقم ٢ فرنسا للتحقق من مواقع البلاد الفرنسية الواردة في هذا الفصل .

دعاة الانقلاب الاجتماعى وقطاع الطرق ؛ ثم يقوم بأصلاح الطرق، وتنظيم المالية ، وإقامة حكومة عادلة مستقيمة ثابتة فى فرنسا . ليس ذلك الاعتقاد غريباً ، ففى القرون الوسطى فى إيطاليا كان البلد الذى تفتك به الثورات الداخلية يلجأ إلى حكم نزيه أجنبى عنه ، ليقيم الحدود بالقسطاس المستقيم .

تلك كانت حال الرأى العام الفرنسى ، التى ظهرت أولا فى الترحيب العام الذى قوبل به نابليون فى أكتوبر ، والتى مالبثت أن أخذت شكلا قانونيا فى الاستفتاء العام . تلك الحال نفسها هى التى ارتكزت عليها حكومة نابليون واستندت إليها . وكذلك استمد نابليون سلطته من أرادة الأمة لا من حق الوراثة ، بخلاف ملوك برلين وڤينا وسان بطرسبورج : وأعلن نابليون نفسه أنه وليد الثورة، وأن صوت الملايين من الناس هو الذى رفعه ألى مكانته وقبل حكومته . وذلك النوع من الحكومة ، الذى لم يكن جمهورياً بحتا ولا ملكيا محضا ، بل خليطا من أقصى أنواع النظامين ، لوجود السلطة المطلقة فيه إلى جانب استناده في الأصل إلى إرادة الأمة ، — نقول أن ذلك النوع من الحكومة ، هو جزء من الإرث السياسى الذى تركه نابليون لفرنسا . وأمام ذلك النوع من الحكومة أيضا ، أُعتبرت الحكومات القائمة على الحق الوراثى ، أو المؤيدة بجيوش أجنبية ، حكومات

غير شرعية. ولذا كان الرأى الديموقراطى فى جانب البونابرتيين الذين قالوا عند ما أجلس الانجليز آل بربون على عرش فرنسا نتيجة للانتصار الانجليزى (١) ، أن الأجانب ليس فى وسعهم إقامة أو إسقاط حكومة شرعية فى فرنسا ، وأن الأمة وحدها هي صاحبة الحق في إلغاء السلطة التى أقامتها الأمة .

أن الطريقة التى سار بها نابليون سيد فرنسا ، تفسر لنا الرجل والعصر الذى عاش فيه : إذ قلب نظام الحكومة بالحيلة والعنف معا ، ومن قوله فى ذلك لمدام دى رميزا (٢) : « وتلك فترة حياتى التى أظهرت فيها أكبر المقدرة ». ذلك أنه لما وصل إلى باريس وأكاليل النصر فى أبى قير (٣) تتلألأ على جبينه ، وفرنسا كلها تناديه بالبطل ، طرح جانبا شعار الجندى ، وظهر بمظهر الرجل المتواضع ، فتارة يتلو مقالة فى المعهد العلمى عن الآثار المصرية القديمة ، وتارة يتنزه فى الطرق برفقة أحد العلماء الأعلام ، متمثلا

---

(١) يشير المؤلف هنا الى انتصار انجلترا والحلفاء سنتى ١٨١٤ ، ١٨١٥ ، التى انتهى بسقوط نابليون وخلعه ونفيه ، واجلاس لويس الثامن عشر البوربونى على عرش فرنسا .

(٢) ولدت مدام دى رميزا (Madame de Remusat) عام ١٧٨٠ ، وتزوجت عام ١٧٩٦ من الكونت شارل دى رميزا الذى أصبح فيما بعد رئيس السراى أيام نابليون ، وعينت زوجته كبيرة وصيفات الامبراطورة جوزفين .

(٣) المقصود هنا واقعة أبى قير البرية التى انتصر فيها نابليون على الأتراك (انظر ص ٧٦).

بالمثل اللاتيني القائل «والقلم أفضل من السيف» (Cedant arma togae).

والسبب في كل ذلك أن خطته كانت أن يظهر للناس أنه ليس المقامر بالدول فقط ، بل هو أيضاً الرجل الضليع في فنون الحياة السلمية ، المتعطش للعلم ، المجل لطبقة المفكرين . كذلك قضى نابليون عدة أسابيع يرقب عن كثب مجرى السياسة في العاصمة الفرنسية ، ويتعرف مبادىء كل حزب دون أن ينضم لأحدها ؛ وإذ عرف أن بين رجال حكومة الإدارة رجلا يدين بمبدئه ، وهو الأب سييس (Abbé Sièyès) ، تآمر معه على إحداث انقلاب بريمير.[1]

ليس من المأمون القضاء على دستور مهما يكن مرذولا بدون عناية خاصة بدقائق تلك العملية . أما المتآمران فكان أحدهما رجلا جُبِل على العمل ، وارتكن على قوة السيف ؛ وكان الآخر فيلسوفاً أراد أن يبني نظاماً يقوم على تعادل السلطات ، فاتفقا بداءة ذي بدء أن كلا منهما يريد أن تسقط حكومة الإدارة بكيفية لا تمس معها ميل الأمة نحو الجمهورية . هنا وهنا بالضبط كانت صعوبة المشروع : ذلك أن التشيع للجمهورية كان حتى ذلك الوقت أقوى العوامل السياسية في فرنسا ، وكان القواد أمثال جوردان ومورو ، واثنان من أعضاء حكومة الإدارة الخمسة ، والغالبية العظمي في مجلس

(١) بريمير ثاني شهور السنة في تقويم الحرية الفرنسية .

الخمسمائة لايدينون بغيرها ، وما كان لأى انقلاب أن ينجح إذا حاول أن يثير المسالة التى فصلت فيها الغالبية الساحقة من الرءوس المشتغلة بالسياسة فى فرنسا بألغاء الملكية . على ذلك كان من الضرورى السير فى كثير من الحذر ، وإذ كانت سن بونابرت لاتؤهله لعضوية الأدارة ، فقد رؤى أن يُحْمَلَ الأعضاء على الاستقالة جميعاً ، وأن يَعْهَدَ المجلسان التشريعيان بمجرد ذيوع ذلك الخبر ، إلىمدبرى المؤامرة إعادة النظر فى الدستور .

كانت الخطة بسيطة وقائمة على الجرأة ؛ لكنها تطلبت سلسلة من الدسائس الخطرة ، تتمها فعلة فجائية تبين للناس أن يد البطش بالمرصاد.على أن البحث الدقيق أسفر عن أن ثلاثة من رجال الأدارة لا يعتمد عليهم ، وأن ستين من مجلس الشيوخ يشك في مبدئهم ، وأن مجلس الخمسمائة لا يرجى منه شيء ، وأن الحالة النفسية بين العمال اليعقوبيين صيّرت باريس ميداناً خطراً لأى محاولة ضد المبادىء اليعقوبية - بناء على ذلك تقرر أن يستعمل مجلس الشيوخ حقه الدستورى لتقرير نقل الهيئة التشريعية من باريس إلى ضاحية سان كلو (St. Cloud) ، بحجة وجود مؤامرة فى باريس تهدد استمرار جلساتها . هناك في مأمن بعيد عن مصانع باريس، والنفسية المضطربة بين عمالها ، وفى وسط حديقة امتلأت بجنود نابليون

الذين عركتهم الحروب وطبعتهم الطاعة ، صحّت عزيمة نابليون على أن ينتزع من آخر مجلس ثورى فى فرنسا صك القضاء على نفسه . نفذت الخطة بالتمام يومى ١٨ و ١٩ بريمير (٩ و١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩)، وهما من الأيام الخالدة فى التاريخ لموافقتهما أول عهد امتلاك نابليون ناصية الأمور . وتفصيل ما حدث أنه بمجرد قرار مجلس الشيوخ ، صبيحة ١٨ بريمير ، ركب نابليون فى موكب فخم من الفرسان إلى التويلرى ، حيث أقسم أن يقيم الجمهورية على مبادىء الحرية والمساواة. بعد ذلك أفضى لناموس أحد رجال الادارة ، وقد سعى لمقابلته في حديقة القصر ، بكلمات رددت صداها أنحاء فرنسا قال : «ماذا فعلتم بفرنسا التى تركتها مزدهرة ؟ تركتها والسلام يخيم على ربوعها ، وعدت إليها فأذا الحرب بها ! خلفت لكم النصر فعدت لأرى الهزيمة! حملت أليكم ثروة إيطاليا وها أنذا أجد النهب والبؤس!». لكن في اليوم التالى اجتمع أعضاء المجلسين التشريعين فى سان كلو ، والغضب يملأ جنوبهم ، والشكوك تساورهم ، لما وجدوا أنفسهم محاصرين بجيش معاد، بحجة مؤامرة خالجهم الشك فى حقيقة وجودها، لتأييد مشروع رأوا أنه سيؤدى إلى سيطرة القوة الغاشمة . لذلك لم تصادف دعوة نابليون هوى فى نفوس المشرعين المجتمعين، والدليل على ذلك أنه بعد أن واجه نابليون مجلس الشيوخ بخطبة مفككة

مضطربة،ظهر فجأة في الأورانجيرى[1] (L'Orangerie) ، حيث كان مجلس الخمسمائة منعقداً برآسة أخيه لوسيان ، فعلا الضجيج حوله ، حتى أغمي عليه وحمل إلى خارج المكان . من حسن الصدفة أن كان لوسيان فى كرسى الرآسة بالقرب من أخيـه ، إذ خدمت بلاغته الرائعة المزيفة نابليون،وبذلك أثر لوسيان مرة ثانية في حياةأخيه[2].

ذلك أنه بينما كان الأعضاء يرفعون الصوت عالياً ، لاستصدار قرار بحرمان نابليون من التمتع بحماية القانون ، انسلّ لوسيان ولحق بأخيه فى الحديقة ، وناشد الجيوش أن تنقذالمجلس من زمرة اللصوص الجسورة الذين استأجرهم بت (Pitt) رئيس الوزارة فى إنجلترا ، ليقضوا على حريته .صادفت الهزلة مرتعاً خصيباً ، وصدق السامعون الكذبة ، إذ لم تمض بضع دقائق بعد الذى حدث أصيل ذلك اليوم القاتمة سماؤه ، حتى كانت الحراب تلمع فى أيدى الجنود المصطفة عند مدخل الأورانجيرى،وحتى كان أعضاءالمجلس بأرديتهم الحمراءيتدافعون، ويتقاطرون صوب الأبواب ، ويقفزون من النوافذ ، لا يلوون على شيء غير الاختفاء فى ظلام الأشجار ،حتىغابوا عن الأنظار ونسيهم

(١) حديقة خاصة بها بيوت زجاجية لتربية أشجار البرتقال على جو اصطناعى . نظمها مانسار (Mansart) للمهندس الفرنسى الشهير الذى عاش من سنة ١٥٩٨ الى ١٦٦٦ ،وكانت تحتوي الحديقة على ثلاثة أقسام ، وتسع ١٢٠٠ شجرة ببيوتها الزجاجية .

(٢) أثر لوسيان فى حياة أخيه نابليون لأول مرة عند ماوشى بالزعيم باؤولى (انظر ص ١٦) ، مما أدى فى آخر الأمر الى رحيل أسرة بونابرت كلها من قرشقةالى فرنسا .

التاريخ . في غرة فجر اليوم التالى ، اجتمعت لجنة صغيرة من اعضاء المجلسين من أنصار تعديل الدستور ، وقررت تأليف حكومة مؤقتة يكون أعضاؤها نابليون وسييس وروجيه ديكو (Roger Ducos) ، ريثما يتم إعداد قوانين أساسية . بذلك ، وبدون إراقة قطرة دم ، انتهى حكم اليعقوبيين الذى طال ، وذلك ما كانت تتوق إليه البلاد.

كان الدستور الذى وضع بعد مضى شهر على ماحدث، مستكملا مظهر الحرية السياسية ، على رغم وضع السلطة العليا فى يد بونابرت . ولما كانت روما معتبرة المثل الأعلى للنظم الجمهورية ، فاحتراماً لذلك الاعتبار ، لُقِّبَ أعضاء السلطة التنفيذية فى الدستور الجديد بالقناصل، وأنشىء إلى جانب هيئة الحكومة مجلس التربيون لمناقشة مشروعات القوانين، ومجلس الشيوخ للسهر على الدستور . غير أن تلك النظم الشبيهة بالرومانية لم تخدع ذوى العقول الراجحة فى البلاد ، ولم يغرهم زخرفها الذى دبجه حذق سييس ، لأنها كانت كلها ترمى إلى تسرب قوة الرأى العام بالتدريج نحو جهة رئيسية وهي الحكومة . ذلك أن القنصل الأول ،ومدة ولايته عشر سنوات ،أصبح رئيس الحكومة، فيختار الوزراء ويدير دفة الأمور ، ويضع خطة السياسة العامة . أما السلطة التشريعية الحقيقية ، فلم تكن فى أيدى مجلس التربيون الذى كان له حق المناقشة وليس لهحق التصويت ، كما أنها لم تكن

فى أيدى الهيئة التشريعية التى كان لها حق التصويت ولم يكن لها حق المناقشة ، بل في أيدى مجلس الدولة المكوّن من أعضاء أخصائيين فى التشريع ، يناط بهم تحت رآسة القنصل الأول تحضير القوانين وصوغها . وفوق ذلك لم يمنع تضامن أعضاء الهيئة التنفيذية العليا من الجنوح إلى الاستبداد بالأمر ، لأن زملاء نابليون فى الحكم لم يزاحموه فى سلطته ، ولم ينقدوا سياسته : بل كان الأول ، واسمه كامباسيريس (Cambacerès) ،عالماً قانونياً قديراً ، أصلهمن حزب اليعقوبيين قتلة الملك ، يصرف جل وقته في تمتيع نفسه بما لذ وطاب من المأكل والمشرب . أما الآخر فاسمه لبران (Lebrun)، وكان عالما مثقفاً متواضعاً من أنصار الملكية القديمة ، طواه نابليون تحت جناح حظه الطائر ، واتخذه كبرهان على أن أمثال تلك السوابق لا تحول دون الانضواء تحت لواء العهد الجديد.

كان شعار الحكومة الجديدة الذى حل محل شعار الثورة : العظمة والتسامح والكفاية . ولا عجب فالديموقراطية لم تعدم رجالا محنكين فى فنون السياسة، يعرفون كيف يستهوون عقول الشعوب بالأقوال الخلابة . لكن نابليون كان فضلا عن ذلك أول الساسة وأميرهم فى فن تحلية الحكومة في عين الرأى العام . ذلك أنه كان واضعا نصب عينيه صورة مجد روما السالف ، تتيه بين أسلاب فتوحها

التى امتدت إلى أقصى المعمورة ، وتبنى الجسور والحمامات والملاعب المصنوعة مدرجاتها من الرخام ، والقنوات الهائلة فى أنحاء أوروبا الرومانية . و إذا كانت روما صاحبة تلك العظمة فى الماضى ، فأخلق بباريس أن تكون كذلك فى الحاضر . هذا إلى اعتقاد نابليون أن فن السياسة لا يقتصر على وضع القوانين وإدارة شؤون البلاد ، بل يشمل أيضا ما يجب أن يتركه السلف للخلف من ذكريات ظاهرة للعظمة التالدة . لكن فكرة جعل باريس عاصمة الفنون الاوربية ، وكعبة طلاب العلم ، يرجع عهدها لحكومة الإدارة ، وساعد على إنضاجها ما حمله نابليون من التحف والنفائس إلى باريس أثناء الحرب الإيطالية الأولى . أما وقد أصبح هو المسيطر على فرنسا ، فليس ببعيد أن تأتى فتوحه العظيمة بما يزيد باريس بهاء . فوق تلك الفكرة أضيف مشروع لإظهار مثل جديد للعالم ، بما قد تصل إليه البلاد من التقدم فى الأعمال العامة والفنون الصناعية ، بفضل تشجيع حكومة رشيدة تحب العظمة وتنشدها .

كان الركن الثانى فى عقيدة نابليون ، أن تقوم الحكومة على قاعدة التسامح . ولا عجب فرجال الحرب ، الذين يتلقون دروسهم السياسية فى ميادين القتال ، لا يهمهم فيمن يستخدمون اختلاف النزعات الدينية أو السياسية . وكذلك اختار نابليون رجال حكومته،

كما اختار كرومويل جنوده قبله ، على مبدأ التسامح الواسع ، وقصد أن يتمتع اليعقوبيون والجيرونديون والملكيون على السواء بحماية القانون ، وأن ينبذوا التباغض الحزبي الماضي في ظل حكومته المنظمة . ومن أعماله في ذلك الصدد أن خففت القوانين ضد المهاجرين ، وبدأ الكاثوليك يشعرون أن عهد الاضطهاد قد مضى ، وأن الحكومة الجديدة تميل إلى مجاراة أميال الأمة الدينية ، فجاء كل ذلك مصداق قول نابليون : ” لا مجال للعواطف في أمور حكومتي “ .

أما في الكفاية الإدارية ، فلم ير العالم أقدر من نابليون . ذلك أن كفاية الرجال لا تنحصر في بذل الجهد، والنظام ، وتفهم أصول الأشياء ، والاهتمام بدقائقها فقط ، بل تتوقف أيضاً على خلتين نادرتين ، وهما القدرة على إثارة الحماسة ، وعلى الأمر والنهي بين الناس . كان نابليون عند الضرورة يكب على عمله ثماني عشرة ساعة من أربع وعشرين ساعة ، حتى قال عنه شابتال [1] : ” كثيرا ما كانت تستمر هيئة المجلس معقودة برآسته زهاء ثمان أو عشر ساعات ، يحمل هو في أثنائها عبء الكلام والمناقشة “. وما رآه إنسان في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار ، أو على أثر أي عمل جهيد ، إلا وجد ذهنه حادا يقظا.

---

(١) جان أنطوان شابتال (Jean Antoine Chaptal) سياسي فرنسي شهير ، أصله أستاذ للكيمياء في جامعة مونبلييه من سنة ١٧٨١ ، وعمل في الثورة حتى صار وزير الداخلية سنة ١٨٠٠ ، ثم اعتزل الحكم سنة ١٨٠٤ ،وبقي كذلك حتى مات سنة ١٨٣٢ .

هذا وكانت مناقشاته للخبراء سريعة ودقيقة وتامة الوضع ، وكان صبره بحيث لم يعالج أمرا وتركه قبل معرفة حقيقته . ولما كان معتدلا فى عاداته، لايميل لنوع خاص من الطعام ، ولا يجلس إلى مائدته أكثر من اثنتى عشرة دقيقة إلا إذا استهواه الحديث ، فأنه كان أعجوبة ونموذجا لمرءوسيه . ومع أنه لم يتعلم تعليما منتظما ، ولم يعرف من اللغة اللاتينية غير القليل ، ومن اللغة الاغريقية شيئاً ، ومع أنه كان كثير اللحن فى نطق الكلمات الفرنسيه ، كأن يقول كلمة (Section)بدلا من (Session)وكلمة(Fulminant)بدلا من(Culminant)وكلمة (Voyagères)بدلا من (Viagères) ، فانه على رغم ذلك لم تمض عليه بضعة شهور حتى دان لرأيه أقوى الرءوس حنكة في باريس .وكانت ثقته فى نفسه لاحد لها ، وتلك ميزة من ميزات الرجال ؛ فكان كلما اختلف مع أعضاء مجلس الدولة فى رأى ، ضرب رأسه قائلا: ,,أن هذا الرأس أداة أنفع لى من نصيحة نفر يعدّون أنفسهم مدربين محنكين ،، . ولذا كان يعمل برأيه ، مسترشدا بنور بصيرته ، معتمدا على دقة ذاكرته الواسعة ، وحدة فهمه وصفاء ذهنه ؛ وهو في أثناء ذلك لاينى عن تغذية نفسه بالاشياء العلمية ، التى كان لها عنده المكان الثانى بعد الامور العملية . وكان دقيقا جدا وشديداً في أمور المالية والحسابات ، حتى أصبح كل موظف فى الحكومة يشعر أن زمن

التهاون قد انقضى ، ويجدّ فى العمل كأن عين نابليون ترقبه وهو جالس إلى مكتبه . وكان ملما بالأمور الخاصة بالأدارة صغيرها وكبيرها ، غنيا عن مساعدة مرءوسيه في معرفة دخائلها . هذا ولم يكن له مثيل فى القدرة على تسيير روح العمل ، التى هى أهم من العمل نفسه . ولم تكن السرعة البالغة التىكان يملى بها رسائلهالحربية على ناموسه ، مقللة من قيمة تلك الرسائل ،التى كانت دائماً موجزة حاسمة ، ليست بالخرقاء ولا بالغامضة ، بل تنم بوضوح عن طبيعة صاحبها ، حتى أن القارئ الذى يطلع على صحيفة منها ، ليشعر كأن يسمع ذلك الصوت القوى المهيمن ، فيمتلئ حمية مما يفيضه عليه ذلك العقل المتوقد .

ربما كانمن اللازم لإعادة حكومةرشيدة فىفرنسا ، ألايعرقل إرادة نابليون وجود سلطات محلية . وذلك أن النظام الذى يستند إلى وجود مثل تلك السلطات ؛ لايصلح بدون وجود عنصر الأشراف ، أوعلى الأقل بدونوجودثقةمتبادلة بينالحاكموالمحكوم. غيرأن شيئا منهذينالعاملينلم يكنحاصلا فىسنة١٧٩٩ ، لأنالثورة الفرنسيةقضتعلى أشراففرنسا ، وبذرتبذور العداوةوالانقسام في طولالبلاد وعرضها . لذلك التجأ نابليون بحكم الظروف للرجوع إلى السياسية المركزية ، التى كانت المظهر الرئيسى للحكم الفرنسى

منذ أيام ريشيليو ؛ فأصبح الوالى فى مقاطعته ، والحاكم فى دائرته ، والمحافظ فى مدينته ، صنائع ذلك النظام المركزى ، وآلات خاضعة لإرادته . ذلك هو الاستبداد بعينه ؛ لكن ربما كان من المحال علاج الحميات السياسية السامة ، التى اضطربت فى جسم الأمة الفرنسية أثناء العشر السنوات الماضية ، بدواء أخف مفعولا .

ولم تكن هناك أى فكرة للرجوع إلى نظام العهد القديم . ولا غرو فأن من أكبر الحسنات التى أغدقها نابليون ، أن النظم الرديئة التى قامت عليها الامتيازات الاجتماعية ، والتى قضى عليها القضاء الأخير في أول مجلس ثورى، لم تجد مكاناً بين نظم نابليون ، وأن أصبح الفلاح الفرنسى ، في ظل حكومة نابليون القوية ، متحققا من جديد استحالة رجوع عهد الأرهاق بما فيه من قوانين الصيد ، ومحكمة الملتزم ، وضرائبه المجحفة . من تلك الحسنات أيضاً وسام الشرف (Legion d' Honneur)الذى جعله نابليون وساما غير وراثى للأنعام به على ذوى الخدمات الحربية والمدنية ، ليكون بمثابة محرك للهمم ، وعدة في يد الحكومة ، على رغم ماتقول به دعاة المساواة المطلقة . قال نابليون في ذلك الصدد : « تلك الصغائر هى التى تسلس قياد الرجال » . هذا ولم يحدث نابليون تغييرا جوهرياً فى قانون الميراث الذى خلفته المجالس الثورية ، بل جعل القانون المدنى يتمشى مع فكرة

أساسها الشرعى تقسيم التركة بالتساوى ، مع بقاء جزء منها يتصرف فيه المورث كما يشاء . ثم من المعلوم أن التجارة والصناعة كانتا فى عهد الملكية مرهقتين بقوانين النقابات [1]، وبضرائب المرور الداخلية [2]، وبالنظام المالى الذى كان توزيعه سيئاً لدرجة أن أثقل أعبائه كان على أقل الناس مقدرة على حمله . جاءت الثورة الفرنسية فاكتسحت تلك المظالم فى قسوة وسرعة ، فلا ترى لها من باقية ، وجاء نابليون فلم ينس أنه مهما تكن فرنسا متساهلة فى حريتها السياسية ، فهى لن تسمح بأرجاع نظام الامتيازات الاجتماعية. لذلك جعل « باب الترقى مفتوحا للمواهب »، لاعتقاده أن ذلك هو المعيار الوحيد للديموقراطية، والسر الأكبر في حسن السياسة ، حتى يضمن لكل مواطن ، مهما يكن وضيعاً أو مقطوع الحسب ، إمكان الرقى إلى أكبر الوظائف والمراكز فى الدولة .

إذا كان ثمت حاجة بعد ذلك للدلالة على استمرار تأثير الثورة الفرنسية،

---

(١) النقابات القديمة تختلف فى أغراضها عن النقابات الحديثة التى تقوم من أجل حماية مصالح العمال فى أكثر الأحيان . أما النقابات القديمة فكان غرضها حماية مصنوعاتها ، ولذلك كان جل عملها مزاحمة النقابات التى تخرج مثل مصنوعاتها ، واحتكار الأسواق وأمكنة المواد النقل ، مما يؤدى إلى تعطيل التحسن والتوسع الصناعى .

(٢) كان فى فرنسا قبل الثورة نظام جمركى بين المقاطعات ، فإذا أرسل تاجر من مقاطعة فى الجنوب بضائع إلى باريس مثلا ، كان يدفع ضرائب مرور عدة على حدود كل مقاطعة تمر بها بضائعه . وظاهر تأثير مثل تلك التضييقات فى رفع أثمان الحاجيات واضعاف حركة البيع والشراء .

فليس أدل من نظام توزيع الأرض الذى وضعته الثورة ، وأقره نابليون وثبته فى أصول القوانين . وفى ذلك دليل على أنه لم يجنح نحو الرجعية ، بل نحو مبادئ الثورة ، فى المسألة التى تمتاز عن جميع المسائل الأخرى بمساسها كيان المصالح الحيوية في البلاد . فلم يفكر يوما فى حمل الفلاحين على إرجاع الأرض التى كانت تابعة للكنيسة والأشراف ، والتى آلت إلى الفلاحين أثناء الاضطرابات فى العشر السنوات السابقة ، إما بالابتياع بثمن بخس ، وإما بدون حصول عقد مبايعة مطلقاً ؛ بل عمل نقيض ذلك ، لأنه كان من أهم أركان سياسته تعزيز تلك الحقوق الغامضة المختلف في صحتها ، وعدم الاقتصار على جعل الحكومة تحمى ذمار الفلاحين ، بل وجعل الكنيسة التي انتزعت منها أملاكها قسرا تقر ذلك العمل وتوافق عليه . وما كان ثمت سياسة أمثل من استمالة أكبر المصالح الاقتصادية وأهمها فى فرنسا نحو الحكومة الجديدة ، إذ أصبح كل فلاح يعتبر نابليون حاميه . وكما أن الأصلاح الدينى فى إنجلترا ، زمن آل تيودور ، توطدت دعائمه بتوزيع أسلاب الكنيسة الكاثوليكية ونفائسها على طبقة الملاك الجدد ، كذلك كانت الحماية التى شمل بها القنصل الأول أصحاب الحقوق الملكية الجديدة الممنوحة إبان الثورة ، خير كفيل للأمة بأن النظام القديم لن يعود .

كانت الأحوال تدعو إلى الإصرار على إقامة تلك الأشياء اللازمة للحكومة الديموقراطية الجديدة ، لاسيما وأنه كان في عزم نابليون أن ينبذ كل ما عداها من مستحدثات الثورة . من ذلك خطته نحو الكنيسة ، التي صادف من أجلها انتقاداً أشد مرارة مما صادفه في كل أعماله : ذلك أنه أصبح من أوضاع العصر ، لا بين الطبقة المتعلمة فقط بل وبين الطبقة العاملة التي كانت لها اليد العليا أثناء الثورة ، نبذ الديانة كفرية غير جائزة ، واعتبار الكنيسة أداة للجهالة والامتيازات والظلم ، يجب إضعاف نفوذها ، وتشديد المراقبة عليها . لا مغالاة في كل ذلك ، فإن الطبقات المتنورة في باريس ، ومعظم قواد الجيش وضباطه ، وجانباً كبيراً من رجال السياسة النابهين ، كانوا إما كفاراً أو مستهترين بدينهم ، يعتبرون القسيس فريسة الخرافات العتيقة وحليف الأجانب ، وعدو وطنه . وقد تجلت تلك العقيدة في أعمال المتشرعين ورجال الحكومة إبان الثورة : ففي عام ١٧٩٢ نزعت الجمعية الأهلية أملاك الكنيسة وحبست عليها أوقافاً محدودة ، وأرغمتها على قبول نظام ديموقراطي جائز بالنسبة إلى نظام عهد الحواريين في المسيحية الأولى ، لكنه يخالف كل المخالفة نظم الكنيسة وعقائد الكاثوليك في القرون الحديثة . لذلك امتنع في أنحاء البلاد كل كاثوليكي شريف غيور على دينه عن حلف يمين الطاعة للنظام الجديد ، فاضطهد بكل ضروب

لاضطهاد الممكنة في ذلك العصر ، ولكن بلا جدوى كما هى الحال فى عهود الاضطهاد غالباً . ظلّ انقسام الكنيسة قائما ، وأخذ المتمردون من رجال الدين يقيمون شعائرهم فى الحقول والغابات ، ويشنّعون على الذين قبلوا النظام الجديد وكنائسه الخالية . ثم حدث أن المرتبات الضئيلة ، التى كان يتقاضاها الذين قبلوا النظام الجديد ، أصبحت فوق طاقة الخزينة الخاوية . لذلك ألغت الحكومة الكنيسة الكاثوليكية ، وأعانت حيدتها فيما يتعلق بأصول الدين ؛ ولكيلا يستهدف النظام الجديد للخطر من جراء إظهار الشعائر الدينية ، تقرر ألا يسير أى قسيس فى موكب بردائه الأبيض الفضفاض فى الطرقات العامة ، وألا تُدق نواقيس الكنائس إيذانا بدعوة الناس للعبادة .

بيد أن نابليون كان لايقبل الرأى القائل أن الدين قوة دنيوية زائلة ، على الرغم من بقاء العقيدة اللا أدرية فى نفسه منذ حداثته . ذلك أنه كان يعرف تاريخ حوادث لاڤنديه ، وشهد الفلاح الايطالى فى معبده ، ورأى شدة إيمان الفلاحين بالقديسين فى أنحاء البلاد الكاثوليكية ، واعتقادهم الراسخ فى المعجزات ، وفى ألوهية سلطة البابا فى روما ، وفيما لشفاعة السيدة العذراء عند الله من التأثير . والسياسى المحنك يعلم ما لتلك القوى الروحية المسيطرة على نفوس الفلاحين وعساكر الجيش من الأهمية ، فيستميلها ويجعلها فى قبضته ؛ لأن الدين

ليس كنظريات الكيمياء إذا قدمت نبذت ، بل هو « سر النظام الاجتماعي »، وهو « الوقاية » ضد الأفك والشعوذة ، وهو القبس المضيء، الذي جعل طريدي الحياة يطيعون أناسا لولاه ما أطاعوهم .

بينما يتنزه نابليون ذات ليلة مع أحد أعضاء مجلس الدولة ، إذ فتح معه باب الحديث في موضوع الدين قال : « كنت هنا يوم الأحد الماضي ،أسير وحدي والطبيعة ساكنة ، فقرع أذني فجأة صلصلة ناقوس كنيسة رويل (Ruel) ، فحركت شجني ؛ والمرء أسير عادته وتربيته الأولى . قلت لنفسي ما أروع هذا الصوت في نفوس المتدينين ! لعمري كيف يعالج فلاسفتكم وذوو الرأي فيكم هذه الظاهرة ؟ ينبغي أن يكون الناس على دين تتولاه الحكومة . . . قد يقولون إني كاثوليكي ، ولكني لست شيئا من ذلك . كنت مسلما في مصر ، وسأكون كاثوليكيا هنا ، جريا وراء مصلحة الأمة . أنا لا أعتقد في الأديان . . . . بل في فكرة وجود الله ». ثم أشار بيده نحو السماء وقال : « الذي خلق كل هذه الأشياء ». ولا عجب فرجل الدين هو الحليف الطبيعي للحاكم المدني في جميع العصور والأجيال ، لأنه يثبت روح الطاعة في النفوس ، ويشرح للناس « الوسائل الخلقية المؤدية للاتحاد » ، لا « العقائد التي تقسم الناس شيعا » ، ويساعد أبناء الكنيسة بما يعرف من قانون وزراعة وطب ، ويعمل بقوة تأثيره على تثبيت

النظام الاجتماعى. كان نابليون يعرف كل ذلك ، إذ قال ذات يوم «وهنا خمسون أسقفاً من المهاجرين تجود عليهم انجلترا بالمال ، وهم الآن قادة الأكليروس الفرنسى ، يجب القضاء على نفوذهم ، وهذا يتطلب موافقة البابا».

من أجل تلك الأسباب ، وأسباب أخرى ، عزم نابليون على مصالحة البابا ، فبدأت المفاوضات فى باريس فى جو من التصلب والدهاء من جانب الكرادلة الأيطاليين ، ومن المخادعة الممزوجة بالغدر من جانب نابليون . ثم قبل الطرفان في أغسطس سنة ١٨٠٢ الاتفاقية ، التى بقيت أساساً للعلاقات بين الكنيسة وفرنسا لمدة ثلاث ومائة سنة . كان مضمون الاتفاقية أن اعترف البابا برجال الدين الدستوريين (١) ، وبالأوقاف المحدودة ، وبنظام توزيع الأرض إبان الثورة . فى مقابل ذلك أعاد القنصل الأول الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وضمن حق إقامة شعائرها جهراً ، واعترف بأنها دين السواد الأعظم من الفرنسيين . على أنه كان حينئذ — كما هو حاصل الآن — خصوم كثيرون للمبدأ الذى دارت عليه الاتفاقية ؛ لكن من المتعذر إنكار مزايا اتفاق خفف من فزع الفلاحين ، ومحا الانقسام الداخلى فى الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، ووفق بين الكاثوليك وحكومة ذلك العهد ،

---

(١) هذه الكلمة كانت تطلق على القساوسة الذين قبلوا النظام الجديد الذى سنه الدستور .

إذا استثنينا طائفة لاتذكر ممن رفضوا حلف اليمين الجديدة . وبالجملة "ولقد عادت المحاريب سيرتها الأولى"، كما قال نابليون ؛ غير أنه سرعان ماشعر رجال الدين بأنهم دفعوا ثمناً باهظا إزاء الاعتراف بهيئتهم : إذ تلى الاتفاق فجأة سلسلة "قوانين سياسية" جعلتهم مكتوفي الأيدى ، فأصبحوا آلات مسخرة لحكومة واسعة السلطان .

قبل ذلك كان نابليون قد حدد موقفه إزاء الروح السياسى المتمرد الذى هو وليد الثورة وتراثها . ذلك أنه بينما كانت كل مناصب الحكومة ، من رياسة قرية إلى عضوية مجلس الدولة ، مفتوحة لحزبى اليعقوبيين والملكيين الذين انضموا للحكومة ، إذ أوصدت أبواب التسامح والعدالة فى وجه من لم يصالحها . وكانت نتيجة ذلك ، أنه لما حدث فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠ محاولة اغتيال القنصل الأول ، وهو راكب عربته قاصداً دار الأوبرا ، لم توجَّه التهمة إلى الملكيين - الذين دبروا المكيدة ، ولم يسفر البحث عن نسبة المؤامرة إليهم - بل وجهت إلى النواب المتطرفين المتصلين باليعقوبيين ، المعروف عنهم أنهم ذوو خطر على البلاد . وسرعان ما حصرت التهمة فيهم ؛ وسرعان ما أبعد نابليون مائة وثلاثين يعقوبيا من غير إثبات مادى ضدهم ، لاللتكفير عن سابق إساءاتهم ، بل كضمان يمنع الأجرام فى المستقبل . قد نلتمس العذر للرجل الذى يروح ويغدو وهو مهدد دائما بالاغتيال ،

إلا أن علاج الكبائر بما ينافى روح العدالة يشف عن جهل تام بقواعد السياسة.

كان الملكى أقل خطراً من اليعقوبى ، و إنما كان أقل منه مرونة للانضواء فى نظام الحكومة الجديد . وكانت كعبته لندن ، ومسرح أعماله العدائيـة الأقاليم البرية الكثيفة فى غرب فرنسا ، حيث كانت قوته تستند إلى إخلاص طبقة الفلاحين البائسة ، و إلى عطف كاثوليك العالم رجالا ونساء . لذلك كان الهم الأول للجمهورية الفرنسية القضاء على الفتنة فى لافنديه ، والهم الثانى النجاة مما يوجه نحوها من الضربات غير المنظمة بالمؤامرات الدوليـة . أدى بعض التساهل فى المسائل الدينية إلى ظهور بارقة السلام على ربوع المناطق الغربيـة قبل أن يعود نابليون من مصر ، وعلى ذلك فليس له فضل التوفيق وإغماد السيوف إلا فى أدوارها الختامية . غير أن ذلك النجاح العظيم فى حسم نزاع امتاز في كل أدواره بوحشية غريبة ، قد عكر صفوه جريمة القبض على فروتيه (Frotté) ، الذى كان أكثر زعماء الملكيين جرأة وأصلبهم عوداً ؛ قُبِضَ عليه وهو ذاهب إلى ألنسون (Alençon) بعد إخلاء سبيله ؛ ثم حوكم أمام محكمة عسكرية ، وأعدم ومن معـه من الأتباع رميا بالرصاص . إنا وإن كنا لا نستطيع إثبات صدور أمر بشأن تلك الحادثة من نابليون ، إلا أننا نعرف أن الضابط الذى دنس شرف بلاده العسكرى بتنفيذها لم يُوَجَّه إليه أى تكدير .

كانت تهدئة لاڤنديه سنة ١٨٠٠ هدنة أكثرمنها تسوية نهائية . يثبت ذلك أنه لما أصبح من الواضح أن نابليون لن يلعب دور الجنرال مُنك الانجليزى (١) ، ابتدأ المتهورون من حزب الملكيين يتآمرون على التخلص منه بطريق القوة . كان محور تلك المؤامرة ، التى كان غرضها في الحقيقة قتل نابليون، هوالكونت دارتوا (٢) ، ذلك الأمير الفرنسى الذى ظهر جبنه وطيشه وتأثره بالأوهام فى كل أدوار حياته ، التى كانت معرة له ، ومجلبة المصائب لأتباعه . كان أعوانه وشركاؤه الرئيسيان الجنرال بيشجرو (٣) فاتح هولندا إبان الثورة ، وجورج

---

(١) ولد جورج منك (George Monk) عام ١٦٠٨ فى مقاطعة دفن (Devon) فى الجنوب الغربى من انجلترا . وهو جندى شهير بدأ حياته العسكرية سنة ١٦٢٥ ، وكان ملكيا ممالئا لآل ستيوارت ، ثم انقلب جمهوريا وانضم الى كرمويل زعيم الثورة الانجليزية ، وأعجب كرمويل بمهارته الحربية فناط به اخضاع اسكتلندا الملكية . وفى سنة ١٦٥٤ عينه كرمويل حاكما على اسكتلندا ، حيث أظهر حزما وطيبة حببا فيه الناس . ولما مات كرمويل سنة ١٦٥٨ ساد الاضطراب فى أنحاء الجزر البريطانية ، فانتهز منك الفرصة وعبر الحدود الاسكتلندية الى انجلترا ، ودخل لندن سنة ١٦٦٠ على رأس ستة آلاف اسكتلندى دون أن يلقى مقاومة . هناك ظلت سياسة مجهولة حتى وجد الفرصة سانحة لتأييد فكرة اعادة آل ستيوارت . وقد نجح منك ورجعت الملكية المطرودة ، وتبوأ شارل الثانى عرش انجلترا . وفى العبارة الأخيرة وجه الشبه الذى أراده الملكيون فى فرنسا من نابليون .

(٢) الكونت دارتوا (Comte d'Artois) هو ثانى أخوة لويس السادس عشر . وقد تولى عرش فرنسا سنة ١٨٢٤ ولقب شارل العاشر .

(٣) ولد شارل بشجرو (Charles Pichegru) سنة ١٧٦٣ . وأبوه عامل فقير ، أرسله الى المدرسة الحربية فى برين ، التى تخرج منها والتحق بسلاح المدفعية ، وأظهر شجاعة عظيمة فى خدمة جيوش الثورة ، فارتقى بسرعة الى رتبة قائد سنة ١٧٩٣ . الا أن ميوله كانت

كادودال (George Cadoudal) احد ابطال الملكيين المتمردين فى لافنديه ، وهو الذى خاطر مراراً، بجسمه البدين وبرقبته العريضة ، فى غمار المكامن والملاحم فى غرب فرنسا ، فلا ينتظر أن ينثنى عن المغامرة فى خطر الاشتباك في معركة مع حرس نابليون . بيد أنه كان من المتعذر إنفاذ المؤامرة ، كما هى الحال فى كل مؤامرة واسعة النطاق . ذلك أنه قبل أن ينزل جورج كادودال ورجاله على شاطيء فرنسا ، كانت شرطة نابليون قد أحاطت علما بنياتهم ، وعرفت كيف كان في عزم الجناة قتل القنصل الأول ، أو أخذه حياً فى وسط معركة فى الطريق ، وكيف كان الأمل معقوداً فى مورو ليقبل حين إذ ذاك التقدم إلى الميدان وأعادة الملكية ، لأنه كان أعظم القواد الذين اسفوا لازدياد الحكم المطلق . ولكن سرعان ما ألقى القبض على المتآمرين الحقيقين والمزعومين ، وقدموا للمحاكمة ، فكان الأعدام جزاء وفاقامنتظراً لجورج ورجاله الاثنى عشر الأشداء . أما بيشجرو فمات فى السجن ، ويحتمل أن يكون هو الذى انتحر . أما مورو فحكم عليه

دائماً ملكية ، واشتمت منه حكومة الادارة الخيانة فنفته ، غير أنه هرب الى انجلترا ، ومنها ذهب الى المانيا ، حتى كانت مؤامرة جورج كادودال لاغتيال القنصل الأول ، فجاء الى باريس لتنفيذ المؤامرة ، وحاول عبثاًمع كادودال استمالة القائدمورو للاشتراك معهم . ثم كشفت المؤامرة فى فبراير سنة ١٨٠٤ ، وسيق الجناة الى سجن الهيكل فى باريس . وفى ابريل وجد بشجرو فى السجن ميتاً حيث عاجل الحكم عليه بالانتحار ، على أنه ليس هناك مايدعو للاعتقاد بأن موته كان من عمل نابليون .

بالسجن على رغم ما قام به من الخدمات للثورة الفرنسية ، مما يعدل ما قام به پومپی [1] من الأعمال فى خدمة روما القديمة ؛ ثم خفف الحكم بأمر نابليون بالإبعاد إلى أمريكا .

إلى هنا سارت الأمور وفق هوى نابليون ، رغم ثوران عواطف الملكيين والجمهوريين . نعم إنه أسيء إليه أكبر الأساءة، وجوزيت خدماته الجليلة لفرنسا بمؤامرة دنيئة خسيسة ، انتقم لنفسه من مدبريها انتقاما كافياً لم يخرج عن حد العقوبة الزاجرة . إنما حدث فى تلك الآونة أنه ارتكب جرما شنيعاً واقترف زلة كبيرة : ذلك أنه تبين فى أثناء التحقيق مع كادودال ، أن أميراً من أمراء البيت الملكى كان منتظراً قدومه لباريس، ليكون زعيم المؤامرة ؛ وحامت شبهات الشرطة حول الدوق دانجيان (Duc d'Enghien) — الشاب الذى كان يسكن مدينة إتنهيم (Ettenheim) من أعمال ولاية بادن الألمانية على حدود فرنسا — بناء على معلومات غير صحيحة ، بأنه على اتصال بالخائن

---

(١) ولد پومپی (Pompey) عام ١٠٦ ق.م . بدأ حياته جنديا فى خدمة الدولة الرومانية ، ثم اشتغل عام ٦١ ق . م بالسياسة ، وعاون يوليوس قيصر وتزوج ابنته . فى تلك الأثناء فتح يوليوس بلاد الغال فحسده پومپی ، ولما ماتت زوجته انقطعت علاقته مع يوليوس وخالفه فى السياسة وأصبح زعيم أعدائه . ثم قامت حرب داخلية بين الزعيمين هزم فيها پومپی عام ٤٨ ق.م . ، فهرب الى مصر حيث أرسل يوليوس ضابطا لقتله . ففعل حينما كان پومپی ينزل من القارب الذي أقله من ايطاليا .

دمورييه [1] . لذلك أمر نابليون بالقبض عليه ومحاكمته وإعدامه ؛ فجيء بالأمير فى الساعة الخامسة من مساء ٢٠ مارس سنة ١٨٠٤ إلى فِنْسِنْ (Vincennes) ، حيث قدم للمحاكمة الساعة الحادية عشرة ؛ فما انتصفت الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى - قبل أن يجف مداد الحكم عليه - حتى زُجّ به في خندق ، وأُعدم بالرصاص ، وورى في حفرة كانت أُعدت لرفاته قبل أن يتم ضباط المحكمة مهزلة التحقيق معه . وهكذا لقى آخر أمراء كُونديه حتفه ، رابط الجأش غير هيّاب ، مع براءته مما نسب إليه .

كان نابليون فى ارتكاب تلك الفعلة ، التى تشف عن قسوة طائشة ، مدفوعا بعاملى سورة الغضب والدهاء السياسى . يدل على ذلك أنه قبل أن يصل الأمير إلى باريس بمدة طويلة ، تبيّن أن الأشاعات الأولى التى أثارت شكوك رجال الشرطة لا أساس لها ، وأن الأمير كان عدواً

---

(١) ولد شارل فرنسوا دمورييه (Charles François Dumouriez) سنة ١٧٣٩ . وفى الثامنة عشرة من عمره التحق بالجيش الفرنسي ، حتى كانت الثورة فانضم اليها ، وأصبح سنة ١٧٩٠ عضوا فى النادي اليعقوبى . الا أنه كان من أول الأمر معتدلا ، وكان ذلك سببا فى كره زعماء الثورة له . ويرجع الفضل لدمورييه فى انقاذ فرنسا من أعدائها الذين أرادوا غزوها والقضاء على الثورة . غير أن انتصاراته كانت السبب فى زيادة الكراهية له ، لذلك اتهمته الحكومة بالخيانة واستدعته لباريس سنة ١٧٩٤ . ولكى ينقذ دمورييه رقبته من المقصلة أطاع الأمر بالانضمام الى الجيوش النمساوية . وظل بعد ذلك مدة يجوب البلاد الأوربية ، ثم ذهب بعد الى انجلترا حيث أقام بها حتى مات سنة ١٨٢٣ .

صريحاً ، لا متآمراً يعمل في الخفاء . ولم يكن له يد فى المؤامرة التى لم يوافق عليها ، ولم يكن على اتصال بديموريه . ثم أن سكناه بقرب الحدود الفرنسية كان لعلتين شائعتين بين شبان النبلاء ، وهما الشغف بالقرب من خطيبته والولع بالصيد والقنص . غير أن نابليون ، على رغم وثوقه من براءة ذلك الأمير ، لم ير بدا من إعدامه رمياً بالرصاص ، ليكون ذلك عبرة لأسرة بوربون وأشياعهم ، حتى لا يشتركوا فى التآمر . وقد قال نابليون عنهم ليلة تنفيذ حكم الإعدام: „ يريد أولئك القوم القضاء على الثورة الفرنسية فى شخصى ، وواجبى هو الدفاع عنها ، والأخذ بالثار لها . إن زمن المجاملات السياسية قد مضى ، وقد أرقت الدماء كما أملى علىّ الواجب ، وقد أريق دماء غيرها فى المستقبل ،، . ولقد قضت السرعة والتكتم اللذان أحاطا بتنفيذ تلك الفعلة ، على أى فرصة لاستشارة الضمير ، وقطعا الطريق على رجاء الذين كانوا حول نابليون ، وأضافا أيضا إلى تأثير ذلك الدرس القاسى ، فلم يجسر أمير من أمراء الأسرة البوربونية بعد ذلك أبدا على الاشتراك فى مؤامرة لاغتيال نابليون ، لأنهم أدركوا كيف ينتقم القرشق لنفسه. لكن نابليون دفع ثمناً غالياً لانتقامه ، كما نعرف من الذين رقبوه فى تلك الساعة الرهيبة ، وهو ما كان يخالجه من الشكوك المخيفة ضد العالم أجمع .

قضى القضاء أن يكون اليوم الذى طلع على تلك المأساة يوما مشهوراً

في تاريخ فرنسا ، لموافقته يوم صدور القانون المدنى . ولقد حقق ذلك الأثر الخالد فى علم القانون ، الرغبة التى طالما نشدها الفرنسيون منذ القرن الخامس عشر ، وتاقوا إليها إبان الثورة ، وهى رغبة التمتع بنعمة الوحدة القانونية. من المحقق أن أعضاء مجلس الدولة ساروا في عملهم على أساس خمسة قوانين ، كانت أعدتها المجالس التشريعية المتتالية في أثناء الثورة ولم تنجزها . لكن على الرغم من أن نابليون لم يكن صاحب فكرة عمل قانون واحد موجز واضح عادل ، فإليه يرجع الفضل فى إنفاذ ما عرض عليه . ومن المعلوم أن فترة الثورات ، وما يتخللها من تطاحن الأحزاب وتغير العقائد السياسية ، وعدم استقرارها على حال ، ليست أحسن الظروف ملاءمة لسن القوانين ؛ وأن الفرصة تسنح عند ما تهدأ العواصف ، ويبدو ميدان التشريع خالياً . والفضل لنابليون في انتهاز الفرصة عند سنوحها ؛ فلقد تضمن قانونه أشياء خالدة ، وأغفل كل ما أحدثته الثورة من النظم العرضية المتطرفة . والقانون ذاته قائم على مبدأ التسامح والإنصاف . فهو يبيح الطلاق والزواج المدنى ، وليس فى الوجود قانون يقرر بوضوح أكثر منه قدسية ملكية الفرد ، ومكانة الرابطة الأسرية فى الحياة .

حمل النقاد على القانون المدنى بأنه عمل سريع سطحى ، وأنه كتيب للجيب يراجع الإنسان فيه بعض قواعد قانونية عامة ، وأنه

لم يعالج مشاكل الحياة وعقدها ، وأنه لم يتناول ازدياد تشعبات القانون الذى يستند إلى الأحكام القديمة . إلا أنه يجب ملاحظة أن العمل الذى تفرغ له الألمان فى العصر الحديث خمس عشرة سنة ، أتمه نابليون بكل جرأة وإقدام فى أربعة شهور . ثم قد أخذ الناس عليه تهوره ، ومع ذلك فالقانون المدنى ، مهما يكن فيه من نقص ، خير من لا قانون . ولو لم يعمل فى ذلك الوقت ، لكان من المحتمل أن تبقى فرنسا أمة لا قانون لها حتى عهدنا الحاضر . ثم أنه لا مشاحة أن قانوناً واحداً خير من مائة نظام قائمة على العرف ، وأن المساواة خير من الامتيازات . وهذا قانون نابليون على صغره ، وحَصْرِ نقطه بين دفتى كتاب صغير تسهل مطالعته على كل فرنسى وفرنسية ، يرسم لنا صورة واضحة لجماعة ديموقراطية متمدينة ، ويوفق بين تشريع الثورة والتقاليد العتيقة التى ورثها الخلف عن السلف .

لعب نابليون دوراً مهما فى مناقشة القانون ووضع مسودته . قال عنه تيبودو (Thibaudeau) : " إنه كان يتكلم بلا تلجلج ولا ادعاء ؛ ولم يكن بأقل حجة من أى عضو من أعضاء المجلس ، بل كان يعادل غالباً أكثرهم مقدرة ، بما أوتيه من قوة على تفهم نقطة الخلاف ، وبحصافة آرائه وقوة مساجلته ؛ وكثيراً ما امتاز عنهم ببلاغة عبارته

وقوة ابتكاره ». ولا ننس أن نابليون تناول القانون كما يتناول الصقر طعامه ، وهو يحلق فى الفضاء . فكان مبلغ عدته القانونية نسخة من كتاب اللوائح والقوانين ، أو مؤلف دوما (Domat) ، استوعبها فى غرفة الحارس فى ڤالانس (Valence) ، ورسالة أو اثنين فى القانون قرأهما وهو يحارب في إيطاليا ، وبعض مسامرات مع القانونين ترونشيه (Tronchet)وبورتاليس(Portalis)، ومحاضر المناقشات الطويلة التى حصلت فى المجلس فى خمس وثلاثين جلسة .

وعلى كل حال فليس ثمت سر خفى فى القانون ، إنما يكون القانون الردىء غالباً غامضا وعسيراً ، والقانون الحسن ما اتفق والعقل . وقد حل نابليون كثيراً من مسائل القانون بذكاء فطرى عظيم : فهو لم ينظر إلى القانون من الزاوية التى ينظر إليه منها المقننون ، بل نظر إليه من زاوية المصلحة العامة . ولم يتقيد بوجهة المتمذهبين بمذهب الثورة ، الذين يرون باسم الحرية أن يكون تغيير الزوجة بسهولة تغيير المسكن . ولقد راعى بعض مسائل مراعاة خاصة ، لما كان فيه من الميل الغريزى المدعم بالتجارب : تلك المسائل هى إطاعة المرأة للرجل ، وسلطة الوالد ، وثبوت نظام الطلاق ، وقدسية ملكية الفرد . لذلك لايجد أنصار حقوق المرأة والاشتراكية

فى عصرنا الحاضر كثيراً فى القانون الذى وضعه نابليون مما يثير إعجابهم ، كما أنه ليس من المحتمل أن كان يستجديهم نابليون المدح لو جاء فى عصرهم . وبالاجمال فالقانون المدنى وثيقة من وثائق الأحرار لا الاشتراكيين ، وترجع أهميته فى تاريخ المدنية إلى أنه أثبَت وخلَّدَ الأصلاحات الاجتماعية العظيمة التى أدخلتها الثورة الفرنسية فى أوربا .

الفصل الخامس

مطلع الامبراطورية

لم تستنفد الأعمال المدنية التى قامت بها القنصلية إلا جزءاً من نشاط نابليون ، على الرغم من أنها كانت أبهر ما ظهر من نوعها فى تاريخ أوربا . لذلك كانت السنوات الأربع التى امتازت فى تاريخ فرنسا الداخلى بتهدئة ثورة لاڤنديه ، وتسوية النزاع الدينى ، ووضع القانون المدنى — والتى شاهدت انتشال فرنسا من وهدة الخراب والاختلال ، إلى مستوى في اليسر لم يسبق له مثيل — نقول كانت هذه السنوات حافلة أيضاً بحوادث سياسية كثيرة ، وفتوح حربية باهرة ، ومشروعات واسعة لتأسيس إمبراطورية استعمارية ، ومحاولات مستمرة لتوسيع نفوذ نابليون فى أوربا . بيد أن سياسة الاعتداء لم تكن من عمل نابليون بل من مخلفات الحكومات الثورية : ذلك أن ساسة الجمهورية ، قبل انقلاب برومير بمدة طويلة ، كانوا يريدون جعل حكومتهم الديمقراطية العظيمة محوطة بحلقة من التوابع الجمهورية ، وباسطة بفضل نشاطها وبفضل بهاء نظمها السياسية

نفوذاً عاماً على أوربا . لذلك كانوا يعتبرون البلجيك وسافوى أجزاء متممة لفرنسا ، وهولندا وسويسرا حواشى طبعية لها ، وايطاليا ميداناً مهيأ لثورة تحدث به على مثال الثورة الفرنسية ولأجل المصالح الفرنسية . أُعدت العدة لأنفاذ تلك السياسة الغاشمة ، وفي خلال بضعة الشهور الأولى عام ١٧٧٩ وصل الفرنسيون منتصرين إلى حد الرين ، وقسموا شبه جزيرة إيطاليا إلى جمهوريات تابعة . ثم انقلب المد جزراً أثناء غياب نابليون فى مصر بتكوين تحالف أوربى جديد [1]، تمكنت النمسا أحد أعضائه من طرد الفرنسيين من إيطاليا ، وسارت حملة روسية إنجليزية إلى شواطىء هولندا .

لم تكن أوبة نابليون من مصر ، كما زعم بعض البحاثين ، أول بارقة في الأفق المظلم . ذلك أنه قبل أن يصل نابليون إلى ميناء فريجس كانت فرنسا قد تخلصت من أشد الأخطار إحداقا بها ، بفضل

---

(١) يعرف ذلك التحالف بالتحالف الثاني ، وكان مكونا من الروسيا وانجلترا والنمسا ومملكة نابلي والبرتغال وتركيا . كان هناك سبب عام لذلك التحالف وهو الرغبة فى وضع حد للتوسع الفرنسى الذي هدد كل دول أوربا . وكانت هناك أسباب خاصة لكل دولة على حدة : فالروسيا - وهي التى يرجع اليها تكوين ذلك التحالف - اعتبرت احتلال مالطا إهانة لها ، وانجلترا لم تستطع الوقوف ساكنة أمام الحملة الفرنسية على مصر ، والنمسا أحست نفسها مهددة بعد احتلال الفرنسيين سويسرا ، ونابلي فكرت جديا في الحرب منذ تكوين الجمهورية الرومانية على المبادىء الفرنسية مكان إمارة البابا ، والبرتغال كانت حليفة انجلترا الدائمة ، وتركيا كانت تريد إخراج نابليون من وادي النيل .

نتصارات القائد مسينا عند زيورخ ، والقائد بْرُوْنْ [1] في هولندا ؛ وكان سواروف الروسى ، ندّ نابليون الحقيقى فى المهارة الحربية ، قد بدأ يتقهقر مخترقا ثلوج سويسرا . فلو كان نابليون غرق فى الطريق ، لبقى فى استطاعة الفرنسيين المحافظة على حد الرين ، وعلى المكانة السامية التى تبوأتها دولتهم في أوربا — تلك المكانة التى فقدتها بسقوط الامبراطورية النابليونية، ولم تتمكن من استرجاعها حتى الآن .

لكن أهمية ظهور نابليون فجأة في الميدان ، أن حد الرين الطبيعى لم يكن حد أطماعه ، التي لن يرضيها أى صلح لا يرد إلى فرنسا سلطانها على شمال إيطاليا ، الذى كان ثمرة انتصاراته الأولى ، ونتيجة صلح كامبو فورميو . إلا أن ذلك المنهج لم يكن ليملى على دول كالنمسا وإنجلترا إلا بحد السيف ؛ لذلك كان الغرض من مقدمات الصلح، التى عرضها نابليون على جورج الثالث ملك انجلترا وفرنسيس الثانى إمبراطور النمسا، حينما أصبح قنصلا أول، سبر غور الحكومتين، والتمويه على الرأى العام الفرنسى ، لا الوصول إلى صلح جدى . وعلى الرغم

---

(١) تقدم ذكر مسينا . أما برون (Brune) فولد سنة ١٧٦٣ ، وبدأ حياته فى باريس كبائع كتب ، وحينئذ ذاك تعرف بدانتون (Danton) . ثم دخل فى الثورة وعمل فيها حتى أصبح سنة ١٧٩٩ قائد الجيش الفرنسى فى هولندا . وترقى برون بعد ذلك ، وظل في خدمة الامبراطورية النابليونية حتى سقط نابليون فى واترلو . ثم حدث أن تآمر عليه جماعة من الملكيين فى باريس سنة ١٨١٥ فأوقعوا به وقتلوه .

من ذلك اعتقد بعض من جاءوا بعد نابليون ، أن رسائله بشأن تلك المسألة مملوءة بروح المحب للسلام . وما زال هناك كثير من الكتاب المعجبين بنابليون ، يقولون إنه كان أعظم محبي السلام ، اضطره أعداؤه الحاقدون عليه والقدر المحتوم أن يلقي بنفسه في دور طويل كله حرب وغزو .

كانت الحالة الحربية في فرنسا في مستهل عام ١٨٠٠ لا تبشر بخير ، على رغم الضعف الذي أصاب التحالف الثاني من جراء انسحاب الروسيا. صحيح أن القوى الفرنسية والنمساوية في الأرض الألمانية كانت متعادلة : لأن جيوش الفريقين المتحاربين ، التي كانت تحت قيادة مورو الفرنسي وكراي (Kray) النمساوي على الرين الأدنى ، كانت تبلغ مائة وعشرين ألف مقاتل . لكن الفرنسيين كانوا مغلوبين على أمرهم في إيطاليا : لأنه بينما كان تحت إمرة ملاس (Melas) النمساوي جيش يبلغ ثمانين ألفا في بيدمنت ، كان مسينا معسكراً في الريفيرا بجيش يبلغ ثلاثين ألفاً فقط . لذلك كان من المحتمل أنه بينما تبقى الحالة سجالا بين قوات مورو وكراي في ألمانيا ، تخترق الجيوش النمساوية في إيطاليا حدود مقاطعة بروفانس الفرنسية، معتمدة على مؤازرة الأسطول الانجليزي[1] ،

---

(١) كان الأسطول الانجليزي في البحر الأبيض المتوسط يطوف بقيادة نلسن حول شواطئ مملكة نابلي، ولذلك كان يمكن الاعتماد عليه لمؤازرة النمساويين إذا احتاج الأمر .

ومعاونة الملكيين من أهل بروفانس .

كان خير وسيلة لدرء ذلك الخطر إحراز الفرنسيين انتصاراً حاسماً على شواطىء الرين : لأنه إذا قضي على كراى فى جنوب ألمانيا ، أصبحت الطريق إلى فينا مفتوحة أمام الفرنسيين ، واضطر النمساويون إلى إخلاء جميع مراكزهم الأمامية المتوغلة فى إيطاليا . وفي الحقيقة — كما قال نابليون — «وكانت حدود ألمانيا الشغل الشاغل ؛ أما ساحل جنوا فكان مسألة ثانوية» . بناء على تلك الاعتبارات قرر نابليون ، بعد أن جمع جيشاً يمكن توجيهه لمساعدة مسينا ومورو حسب الدواعى ، أن تكون ألمانيا ميدان الحرب . وكانت خطته بسيطة وعظيمة فى آن واحد : ذلك أنه عقد النية على عبور نهر الرين عند شُوفهُوزِنْ (Schaffhausen) ، لينقض فجأة بقوة كبيرة على ميسرة ومؤخرة الجيش الذى كان تحت قيادة كراى ؛ وبذلك يقطع عليه خط الرجعة ، ويقضى على جيشه قضاء تاما ، كما قضى على الأتراك فى أبى قير . ثم بعد أن ينجز ذلك يسير إلى فينا ، فيملى شروط الصلح فى العاصمة النمساوية .

جد عائق شخصى تسبب عنه سحب ذلك المشروع . ذلك أن مورو أحس بأنه أكبر من أن يعمل كمرءوس لنابليون ، معتمداً على استحالة الاستغناء عنه لشهرته الفائقة . لذلك قرر الرأى في الأسبوع الأول من مارس سنة ١٨٠٠ ، أن يزحف الجيش الاحتياطى بقيادة

نابليون على إيطاليا لا على ألمانيا ، وأن يجتهد مورو فى حماية مؤخرة
ميسرة جيشه بحركة هجومية في جنوب الدانوب ، فى حين يسير
نابليون مخترقاً سويسرا ، ثم ينقض على جناح ومؤخرة جيش ملاس ،
وبذلك يمحو فى الحال الضغط الواقع على مسينا ، ويضطر النمساويين
اضطراراً إلى التقهقر بلا نظام ، ويلحق بهم هزيمة كبيرة . لا غرو
أن الطريقة التي اتبعت ، ونفذت بها الخطة الجريئة هذه ، وأن التكتم
والسرعة والعناية بكل تفاصيل الاستعدادات ، تستحق إعجاب
الأجيال التى جاءت بعد نابليون . ولا شك أن عبور جبل سان برنار [1]
في سبعة أيام ، على طريق جميل فى شهر مايو اللطيف ، كان من أشهر
أعمال نابليون ، وأن لم يكن من أصعبها . أما المسألة التى تشهد بمهارته
الحربية ، أكثر مما شهد به نجاحه فى عبور ممر معروف فى جبال
الألب دون مقاومة ، فهى الابتكار الذى امتازت به خطته العامة ،
مضافاً اليه السرعة التى عدل بها بعض أمور خاصة ، حتى تلائم
ظروفاً متغيرة : مثل ذلك أن خطته الأصلية كانت تقضى بعبور ممر
سبلوجن (Splugen) ، ولكن بسبب وقوف مورو مكتوف اليدين
من جهة ، وبسبب وصول الأنباء باشتباك النمساويين مع مسينا من
جهة أخرى ، قرر عبور سان برنار الواقع على مسافة مائة وأربعين

---

(١) انظر مصور رقم ٣ إيطاليا للتحقق من ميادين تلك الحرب .

ميلا غرب نقطة سيره الأصلية . ثم كان في عزمه أيضاً أن يحمل على جيش ملاس ، بمجرد عبوره الممر ؛ لكنه علم لدى وصوله إقرية (Ivrea) فى ٢٦ مايو ، أن مسينا كان لايزال يقاوم الحصار فى جنوا . لذلك رغب نابليون ، والفرح قد ملأ قلبه لنجاحه فى عبور الممر ، عن الخطة الأصلية التى كانت تترك لعدوه خط الرجعة حراً ، إلى خطة ملؤها الطمع ، ترمى إلى الزحف على ميلان والاستيلاء على لمبارديا وعلى جميع المنافذ الواقعة على نهر إلبو الأوسط . وهنا يختلف النقاد الحربيون في هل الواجب الأول على قائد جيش الأمداد أن يزحف بثبات نحو المدافع التى تكتنف المدينة المرسل لنجدتها ؟ فمثلا سلمت جنوا بعد دفاع مجيد فى ٤ يونيه ، ووجه اللوم إلى نابليون الذى لم يخف لملاقاة الكارثة . لكن رأى الثقات الفنيين يستحسن الخطة التى اتبعها نابليون : لأن واجب القائد هو إتلاف العدو لا مساعدة أصحابه ، ولأن نابليون بوضعه جيوشه فى خط رجعة جيوش ملاس انتهج خطة ، لو أن جنوا لم تستنفد كل مؤنها ، مؤداها إما حمل الجيش المحاصر على ترك الحصار ، وإما تعريض الجيش النمساوى تحت قيادة ملاس إلى الفناء عن آخره ، على يد جيش يفوقه عدداً . وإذا أضيف إلى ذلك أن النجاح أو الفشل فى الحرب مسألة متوقفة على الأثر المعنوى ، علمنا أن ظهور نابليون فجأة فى عاصمة

لمبارديا أحدث أثراً عظيما في انحاء إيطاليا ، يوازى التأثير الذى كان يسببه فك الحصار عن جنوا .

وعلى الرغم من ذلك المطلع الباهر فى تاريخ الامبراطورية ، كانت موقعة مارنجو (Marengo) فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ ، التى اختتمت بها تلك الحرب ، شاهداً على ماقد يقع فيه أعظم قائد من الغلطات بسبب استهانته بعدوه . ذلك أن نابليون نظر بعين الازدراء إلى الرجل الكهل الذى كان يواجهه ، حتى أنه أهمل القواعد الأصلية التى طالما اتبعها فى القتال . فمثلا زحف على ألسندريه (Alessandria) بجيش لايزيد على أربعة وثلاثين ألفاً ، وكان النمساويون قد جمعوا عندها كل قواهم . واعتبر نابليون جيشه على قلته أكثرمما يلزم لهزيمة العدو ، حتى أنه فى أثناء التقدم الفرنسى غرباً أرسل منه ستة آلاف لحماية كريمونا (Cremona)وبياتشنزا (Piacenza) ، وأرسل منه أيضاً قسما تحت قيادة ديزيه ، ليقطع الطريق على الجيش النمساوى الذى كان يحتمل تقهقره إلى جنوا . لاجدال أنه كان من الحكمة الحربية سد كل الطرق الممكنة للفرار ، على فرض أن الجيش النمساوى لن يبدى مقاومة كبيرة . لكن النمساوى محارب عنيد ، وأظهرت شجاعته فى سهل نهر بورميدا (Bormida) خطر الشروع في تطويق جيش قبل التحقق من هزيمته . بدأت الموقعة عند مطلع الفجر ،

وكانت فى أول أمرها تنبىء بهزيمة الفرنسيين ، حتى أن ملاس رجع إلى ألسندريه حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر معتقداً تمام الاعتقاد أن النصر حليفه ، وأن مابقى من أمر مطاردة الفرنسيين يمكن إسناده لصغار القواد . وأخذ النمساويون يدفعون الفرنسيين بتؤدة وترو شرقاً على طول الطريق المؤدية إلى سان جوليانو (San Giuliano)، حتى كادت المطاردة تتحول فراراً من وجه العدو ، لولا أن ظهر ديزيه ساعة الأصيل فجأة فى الميدان . وسبب ذلك أنه سمع قصف المدافع فزحف صوبه، كما يفعل كل جندى باسل بلا تأخير ، وبوصوله بدأ الجيش يلم أشتاته ، وانقلبت الهزيمة الكاملة انتصاراً حاسما ، كأحسن ماوعت سجلات الحرب . كان نابليون حين إذذاك فى قرية مارنجو مملوءاً يقظة ونشاطاً وحماسة انتقلت كلها إلى الجنود الصاح فيهم قائلا : ,, أيها الأبناء البررة ، تذكروا أن من عادتى النوم فى ميادين القتال ،، .

أما الواقعة فتتلخص فى هجوم فرقة ديزيه ، تظاهرها الخيالة بقيادة كلرمان [1] ، والمدفعية بقيادة مارمون . عرا الصفوف

---

(١) ولد فرنسوا كلرمان (François Kellermann) سنة ١٧٣٥ ، ودخل الجيش الفرنسى وترقى فيه بسرعة . ويرجع اليه الفضل فى الانتصار عند فالمى (Valmy) ، الذى أنقذ الثورة من الفشل، وفرنسا نفسها من الغزو الأجنبى سنة ١٧٩١ ، كما يرجع اليه الفضل فى تحويل هزيمة مارنجو انتصارا . ولقد أصبح كلرمان سنة ١٨٠٤ مارشالا، واستمر يخدم فى جيوش الامبراطورية النابليونية، حتى سقط نابليون ، ورجع البوربونيون ، فانضم كلرمان اليهم ، وظل فى خدمتهم حتى مات سنة ١٨٢٠ .

نمساوية ذهول من جراء تلك الصدمة الفجائية ، ووقفت مبهوتة ، ابتدأت تتزحزح عن مواقفها ، ثم تقهقرت بلا نظام حتى عبرت نهر البورميدا . جاء الليل فنام نابليون فى ميدان القتال ، وكذلك نام ديزيه ، إلا أن هذا نام النومة الأبدية . وفى الرسالة التى كتبها نابليون معدداً غنائم الحرب وأسلابها ، البالغة خمسة عشر علما نمساوياً وأربعين مدفعاً وثمانية آلاف أسير وستة آلاف قتيل ، خصص القنصل الأول فقرة كلها أسف على زميله البطل ، وصاحب الأعمال العظيمة فى الحملة على مصر . وقد كان نابليون مديناً له بكثير من الفضل في ضعضعة النمسويين إلى درجة جعلت ملاس يوقع على الهدنة فى اليوم التالى ، متنازلا عن كل إيطاليا غرب نهر المنشيو (Mincio) ليحتلها الفرنسيون مرة ثانية .

كانت أول نتيجة سياسية لذلك الانتصار الهائل أن نالت الحكومة القنصلية — وهى لاتزال حديثة وفى دور التجربة يتقول عليها الناس الأقاويل — ذلك النوع من الصيت الباهر الذى لايقف عند إخراس العائبين فقط ، بل يجعل كل انتقاد غير مجد شيئاً مهما يكن سداده . والنتيجة الثانية أنه رد إلى فرنسا سيادتها على إيطاليا ، ومهد السبيل للصلح مع النمسا . لكن لما كانت النمسا مرتبطة بانجلترا العنيدة ، وكانت لاتزال جيوشها في ألمانيا حافظة

كيانها ، لم تر فى مارنجو ما يضطرها لعقد صلح شائن . لذلك استؤنفت الحرب بعد فترة قصيرة صرفت فى مفاوضات قام فيها الفرنسيون بدور من المهارة بمكان . ثم بلغت الحرب أشدها فى يوم من ديسمبر شديد البرد عند بقعة من البقاع الكثيرة الغابات ، التى اشتهرت بها باڤاريا ، حيث تم انتصار مورو عند هوهنلندن (Hohenlinden) فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠ ما فعلته واقعة مارنجو . وتم الصلح الذى كانت تبغيه فرنسا ، والذى كانت النمسا تعمل جهدها على اجتنابه ، فى ٩ فبراير سنة ١٨٠١ ، عند لونيڤيل (Luneville) . للمرة الثانية اعترفت أسرة هابسبرج المتكبرة باستيلاء فرنسا على البلجيك وعلى حد الرين وعلى ساڤوى . وللمرة الثانية أيضاً اعترفت بالجمهوريات البتاڤيه والهلڤتيه والالب الشمالية [1] . وللمرة الثانية أيضاً وافق أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة على قلب نظام ألمانيا ، حتى تتمكن الحكومة الفرنسية التى قامت على قتل الملوك والثورة ، من التأمين على مكاسبها غير المشروعة . وبالاختصار ردت معاهدة لونيڤيل الحال إلى ما كانت عليه بمقتضى معاهدة كامبوفورميو ، مع بعض

---

(١) الجمهورية البتاڤية هو الاسم الذى أطلق على سويسرا بعد أن فتحتها فرنسا سنة ١٧٩٦ . والجمهورية الهلڤتية هو الاسم الذى أطلق على هولندا والبلجيك بعد أن غزتهما فرنسا سنة ١٧٩٢ . وجمهورية الالب الشمالية هو الاسم الذي أطلق على شمال ايطاليا بعد الحرب الايطالية الأولى .

تعديلات كلها ضد مصالح النمسا . ولا شك أنه منــذ أيام لويس الرابع عشر ، لم يمهر سياسى فرنسى بامضائه صلحا أعظم بهاء من ذلك الصلح ، وربما كان ذلك السبب فى انه لم يعمر طويلا .

أما ما كان من أمر منازلة العضو الآخر من عصبة أعداء فرنسا ، فقضت طبيعة المسألة إلى اتباع طريقة مخالفة . والسبب أنه لما لم تكن البحرية الفرنسية فى حالة استعداد كافية لجعل فرنسا تفكر فى غزو إنجلترا ، عقد نابليون النية على تكوين تحالف أوربى ضدها . ويكون على رأس ذلك التحالف العظيم بولس الأول قيصر الروسيا ، ذلك المستبد المعتوه ، الذى انقلب فجأة على الحكومة الأنجليزية بلا مبرر كاف لاستيلائها على جزيرة مالطا ، وأصبح مستعداً للاشتراك فى كل ما عرض عليه من الاقتراحات المتطرفة فى سبيل إظهار اشمئزازه الخيالى الجديد . كان ذلك التحالف فى نظر نابليون ذا قيمة بقطع النظر عن تذبذب القيصر وقلة ذكائه ، لأن « الروسيا تمتلك مفاتيح آسيا » ، كما قال نابليون فى يناير ، وبمساعدة الروسيا يمكنه فتح الهند والاستيلاء على مصر واقتسام البلقان ، وبمساعدة عصبة الدول الشمالية[1] ، التى كونها

---

(١) كانت تلك العصبة حيادا مسلحا ، وهى معروفة فى التاريخ باسم عصبة الحياد المسلح بزعامة الروسيا التى اتخذت مسألة احتلال إنجلترا مالطا حجة ، والحقيقة أن مضايقة إنجلترا لمتاجر الدول المحايدة المرسلة الى فرنسا هى السبب فى تكوين تلك العصبة فى ديسمبر سنة ١٨٠٠ .

القيصر حديثاً لمقاومة القوانين البحرية البريطانية ، يمكنه أن يقضى على اليسر التجارى الذى تتمتع به إنجلترا . بناء على ذلك التفاهم الأول مع القيصر ، وبمقتضى الاتفاقات التي أجريت على يد الأخير مع دول الدنمارك وبروسيا والسويد، تمت سلسلة مفاوضات ومعاهدات تكميلية. ثم أرغمت الحكومة الضعيفة فى نابلى على منع المتاجر الأنجليزية ، وعلى قبول جيش احتلال فرنسى يعسكر فى أرضها حتى يأتى الوقت الذى يمكن فيه نقلها إلى مصر [1] . كذلك أرغمت إسبانيا ، إذ تعهدت حكومة شارل الرابع الضعيفة الفاسدة ، أن تنزل عن لويزيانا [2] لنابليون مقابل تسكانى ، وأن تغزو هى البرتغال المسالمة لكيما يُقضى على آخر حلفاء انجلترا وأصدق عملائها بين الدول الأوربية .

شهد ذلك الربيع تكوين هذا التحالف الهائل ثم انصرامه فجأة. السبب أن بولس الأول قتل فى بطرسبورج فى ٢٤ مارس ، وبذلك سقطت دعامة كل الجهاز . وفى ذلك الوقت انهالت على نابليون أنباء غير سارة عما فعلته بحرية «أمة البدالين» [3] : وتفصيلها أن القائد

(١) كانت الحملة الفرنسية لاتزال بمصر .

(٢) لويزيانا (Louisiana) كانت مستعمرة فرنسية فى أمريكا الشمالية بحوض نهر المسيسبي ،كشفها لاسال (La Salle) الفرنسى سنة ١٦٨٢ ، وسماها بذلك الاسم نسبة الى لويس الرابع عشر ، ثم أخذتها اسبانيا سنة ١٧٦٢ واستردتها فرنسا سنة ١٨٠٠ مقابل تسكانى . بعد ذلك ابتاعتها الولايات المتحدة من نابليون سنة ١٨٠٣ مقابل ٦٠ مليون فرنك .

(٣) يريد إنجلترا.

الإنجليزى أبركرمبى (Abercromby) نال انتصاراً عظيماً فى المياه المصرية فى ٢٠ مارس، وأن نلسن قضى على الأسطول الدنماركى عند كوبنهاجن فى ٢ أبريل. فاعتقد القنصل الأول – أو بالأحرى تظاهر بالاعتقاد – أن هناك علاقة بين المقذوفات النارية التى أخطأته فى باريس، ودخول الأسطول الإنجليزى بوغاز السَّوْند، ومقتل القيصر، إذ قال وهو يحرق الأرم: "ولئن أخطأنى الإنجليز فى نيفوز [1]، فقد أصابونى فى بطرسبورج". والمهم هنا معرفة أن خيبة العصبة التى انتجتها سياسته اضطرته إلى التفكير فى صلح مع حكومة السفاكين [2]. وواضح جداً أن مصلحته كانت تقضى – مهما تكلف من تضحية مطامعه مؤقتاً – بأن يحصل على هدنة تمكنه من سد ذلك النقص الكبير فى سفنه الحربية، الذى أضاع عليه مالطا ومصر، والذى كان السبب فى وقاية عدوه الشديد فيما بعد من الغزو. ثم إنه لابد من بحرية قوية لمناهضة إنجلترا، لاسيما وقد انتثر عقد التحالف الأوربى: اذ حسم إسكندر الأول – القيصر الجديد – النزاع بين الروسيا وإنجلترا، وانحلت عصبة المحايدين، وأغضب الأسبانيون القنصل الأول لما أظهروه من الفتور فى غزوهم البرتقال، ولما أظهروه من الاستعداد للصلح فى وقت

(١) الشهر الرابع من تقويم الحرية الفرنسية.

(٢) العبارة من كلام المؤلف، وإنما أراد أن يقترب من نفسية نابليون فى ذلك الظرف فوصف الحكومة الانكليزية بحكومة السفاكين.

غير مناسب، حتى ضاعت الفائدة المرجوة من إجبار البرتقال على رفض المتاجر الانجليزية . لذلك كله بدأت مفاوضات لعقد معاهدة بين فرنسا وإنجلترا فى لندن فى أكتوبر سنة ١٨٠١ .

تمخضت تلك المفاوضات بعد مضى خمسة شهور عن صلح أميان (Amiens). استخدم نابليون تلك الفترة لا في إزالة أسباب شكوك اعدائه ، بل في إيجاد شواهد جديدة على أطماعه وقوته ، حتى أن أشد الأحرار الانجليز حماسة، الذين طالما صوتوا مع فوكس [1] فى البرلمان الانجليزى، لم يستطيعوا إلا الاعتراف بأن محبة الخير التى اتصف بها نابليون بطل فوكس ، لم تكن من نوع محبة الخير التى اشتهر بها جماعة الفرندسيون [2] أنصار السلام والإنسانية . والدليل على ذلك أنه

(١) ولد تشارلس جيمس فوكس (Charles James Fox) سنة ١٧٣٩ فى لندن ، ودخل البرلمان الانجليزى وهو فى التاسعة عشرة ، ولما نشبت حرب استقلال أمريكا ضد انجلترا، كان فوكس من أكبر المدافعين بلسانه عن الأمريكيين . ولما سقطت الوزارة الانجليزية التى سيرت الحرب ضد أمريكا ، دخل فوكس الوزارة التالية، التى اعترفت باستقلال المستعمرات الأمريكية. بعد ذلك أثار فوكس غضب الملك جورج الثالث ،فترك الوزارات وبقى زعيم المعارضة لمدة خمس وعشرين سنة حدثت فى أثنائها الثورة الفرنسية وظهر نابليون ، وكان فوكس من المعجبين بهما ، وله فى ذلك مواقف برلمانية خطابية مشهورة . وفى سنة ١٨٠٦ دخل فوكس الوزارة من جديد، غير أنه مات فى السنة التالية . ويعتبر فوكس أكبر خطيب برلماني انجبته انجلترا ، وكانت مبادئه عالية، وأعماله صادرة عن قلب مخلص .

(٢) الفرندسيون (The Quakers) أو جمعية الاخوان ، جمعية دينية أسسها جورج فوكس أحد عظماء المصلحين الدينيين في إنجلترا فى القرن السابع عشر .

ضم لفرنسا بيدمنت فى إبريل ، وشد الوثاق على هولندا فى سبتمبر وأنشأ جمهورية إيطاليا (فى المنطقة التى كانت جمهورية الألب الشمالية) ، ونصب نفسه عليها رئيساً مطلق التصرف فى يناير. وكانت النتيجة أن أصبحت الجيوش الفرنسية موزعة على سكان البلاد من جنوب إيطاليا إلى شمال هولندا ، فى حين أن الإعانات المالية الأجنبية كانت تنصب صباً في الخزينة الفرنسية. لم يقتصر نشاط القنصل الأول على أوربا ، بل وسع في مساحة غينا الفرنسية بأفريقية على حساب البرتغال ، وأرسل جيشاً قوياً لاسترجاع سان دومنجو إحدى جزائر الهند الغربية من أيدى العبيد . ومن ذلك يتبين أنه كان عاقداً النية على إقامة إمبراطورية فى الغرب ، ليعوض حرمانه من مصر والشام.

تخلت انجلترا بمقتضى معاهدة أميان عن جميع فتوحها الاستعمارية ما عدا سيلان وترنداد ، وسلمت مالطا إلى الفرسان ، وردت مينورقا لأسبانيا ، وتنحت عن لقب « ملك فرنسا » الذى كان يلقب به ملوك إنجلترا من عهد إدوارد الثالث. رضى نابليون مقابل تلك التسليمات بالجلاء عن القطر المصرى ، الذى لم يعد في مقدور الفرنسيين البقاء فيه ، وعن نابلى التى كان يمكنه غزوها أنى شاء ، وعن البرتغال التى جلبت على نفسها عداوة نابليون لكونها الحليف المستكين لعدوه. قابل النقاد الأنجليز ذلك الصلح من أول الأمر بالمعايرة ، والحقيقة أنه

كان مبنيا على قواعد واهية الأساس ، ظهر ضعفها أسبوعا بعد أسبوع لما كان يظهر من مطامع نابليون الجامحة .

اعتقد النقاد الإنجليز أن المعاهدة سلمت أكثر مما في مقدور أي سياسي إنجليزي أن يسلم به ، وأنها أهملت نقطاً كان الواجب على كل وطني أن يشدد فيها . مثل ذلك أنها سلمت رأس الرجاء الصالح وجزيرة مارتينيك ، ولم تتضمن أي احتجاج ضد فَرْنَسَة بيدمنت ولمبارديا وهولندا . ثم لو كان من الممكن أن يقبل العقل الإنجليزي تلك الشروط ، فمن المستحيل عليه احتمالها إنما هي أثقلت بأعباء أخرى . وبالاختصار لم يفهم الإنجليزي العادي معنى لصلح لم يتضمن أي تخفيف في الضرائب التجارية ، أو تراخ في الاستعدادات الحربية ، أو انقطاع عن النيات الاستعمارية من جانب نابليون . وأدرك الإنجليزي العادي في امتناع نابليون عن الموافقة على معاهدة تجارية ، رغبة ظاهرة في إضعاف القوة الصناعية البريطانية : إذ كيف تكون دولة صديقة مخلصة لبريطانيا العظمى ، وهي تعتبر البضائع الإنجليزية كأنها حاصلات موبوءة آتية من جهة مملوءة بالطاعون . ثم ارتاب الإنجليزي العادي أيضاً بالحملة على سان دومنجو ، وبانتقال ملكية لويزيانا ، واعتقد أن بونابرت قبل الصلح على نية بناء أسطول كاف للقيام يوماً بانتزاع مستعمرات إنجلترا في الهند وأمريكا ،

وبنقل جيش كاف إلى شواطئ إنجلترا . حتى إذا قرأ فى جريدته اليومية أن القنصل الأول منح السويسريين دستوراً ، وأنه أرسل أميراً من أمراء البحر الفرنسيين إلى الشرق فى مهمة سياسية ، ظن أن أخطر شكوكه قد تحقق وزيادة .

كان نابليون فى آخر أيامه يندم على عناد إنجلترا ، التى حالت بين أوربا وبين ,, التجدد الاجتماعى ،، على حد عبارته . لكن مهما تكن أقواله فى مقاصده السلمية فى سنت هيلانه ، فأن فكرة السلام الثابت الدائم لم تخطر له يوما على بال . ذلك أنه لم يترك لحظة فكرة استرجاع مصر ، وتأسيس دولة فرنسية فى الهند ، وزعزعة السيادة البحرية الانجليزية . ثم أنه كان على رأى عصبة الدول الشمالية القصيرة الأمد ، التى كانت تعتقد من ضرورات تقدم المدنية إجبار إنجلترا على ترك حقها فى تفتيش السفن المحايدة التى تحمل بضائع الأعداء وفى الاستيلاء على السفن التى تتجر مع موانئ الأعداء . وكان من دعاة مذهب التجارة المحمية ، يعتقد أن الزراعة أكثر نفعاً من الصناعة وهذه أكثر نفعاً من التجارة ، ويميل إلى عدم وضع أى حدود لما تبذله أى حكومة من المجهود فى سبيل تشجيع الصناعات الجديدة . على ذلك كان نابليون ضد عقد معاهدة تجارية مع إنجلترا ، أو تسليم أى شيء إلى أولئك ,, النظريين ،، الآخذين بفكرة حرية

التجارة . ولما كان اتوقراطياً ، وأستاذاً قديماً فى فن تدريب الصحافة للاقامة على الاستبداد ، كان يمقت كل المقت تلك الحرية السبابية ، التى لم يفهمها أبداً ، والتى كان ينعم فيها الصحفى فى لندن.
ومن أول الأمر كان المثل الأعلى الذى يصوره لنفسه ، كما هو وارد فى محادثاته ومراسلاته العادية ، مخالفا كل المخالفة لما يمكن أن يسمح به أى سياسى إنجليزى : ذلك أنه اعتبر البحر الابيض المتوسط كملك للدول اللاتينية ، أو بعبارة أخرى لفرنسا ، بحيث تبسط نفوذا دائما على أشباه جزائر إسبانيا وإيطاليا. ثم إنه اعتبر ألمانيا اتحاداً أخرق بين حكومات دنيئة ، أكثر من نصفها تابع لفرنسا ، والباقى سائر بالتدريج نحو الانتفاع بحسنات الارشاد الفرنسى . هذا وكانت سويسرا فى نظره تابعا من توابعه ، لاسيما بعد أن هدأ المنازعات الداخلية بين الديموقراطيين والاتحاديين من أهلها بحيلة سياسية باهرة . أما هولندا وإسبانيا وجنوا فكان عليها بحسب النظام الذى وضعه لدولته الواسعة أن تمد البحرية الفرنسية بالرجال ، فضلا عن شرف الاندماج فى الجيش الفرنسى ، الذى كان موزعا على حلفاء فرنسا وأتباعها بسخاء .

لما كان ذلك مدى نظرة نابليون العامة فى السياسة الأوربية كان من المنتظر أن تستأنف الحرب قريبا . لكن القول بأن وقوع الحرب لامفر منه فى بعض الاحيان ، ليس معناه أن مسألة اكتساب الوقت

غير مهمة : مثلا كان يهم نابليون كثيراً أن تتأخر الحرب ، لأن الاستيلاء على سان دومنجو ، واستعمار لويزيانا ، والمشروعات الاستعمارية الأخرى ، كانت كلها متوقفة على سكون الأسطول الانجليزى ، حتى يتمكن بناءو السفن فى أنفرس وبرست وطولون من رفع البحرية الفرنسية إلى مستوى خصمها . وإذاً كان دخول نابليون فى مشروع فيما وراء البحار ، قبل أن يتم تقوية بحريته تماما ، وإثارته غضب الدولة الوحيدة التى تقدر على إفساد مشروعه ، فى الوقت الذى كان المشروع نفسه لايزال معلقا في يد المقادير ، نقطة سوداء في تاريخ نابليون الحازم . اعترف نابليون فى سنت هيلانه بأن الحملة على سان دومنجو كانت غلطة كبيرة . وكان يمكنه أن يضيف إلى ذلك الاعتراف أن نبّهه إلى اجتناب المشروع أقدر الفنيين المقيمين هناك . ذلك أن المسألة لم تكن رد مستعمرة ثائرة ، أو إخماد فتنة داخلية فى مستعمرة غنية من مستعمرات الجمهورية الفرنسية : لأن سان دومنجو كانت لاتزال يخفق على ربوعها العلم الفرنسى ، وكانت لاتزال تعترف بالسيادة الفرنسية ، ثم أنها أرجعت حديثا بعد فترة اضطراب فظيع إلى حظيرة السيادة الفرنسية بفضل الزنجى الأصلى الوحيد الذى أظهر صفات السوّاس . ذلك الرجل هو توسّان لوفرتير (Toussaint L'Ouverture) الذى جلب للجزيرة الثلاثة الأشياء ، التى

قامت عليها سعادتها : وهي مورد ثابت من العمال السود لسد حاجات المزارع ، وتبادل تجارى بين الجزيرة وأمريكا ، وجماعة موظفين يديرها رجال من البيض . كان القنصل الأول يحسن صنعا ، لو أنه واصل ما قام به ذلك الرجل .

ليس فى العالم شىء أفظع من إثارة مسألة اختلاف ألوان الأجناس البشرية فى أمريكا ، لاسيما أن هاجتها حادثة مرعبة أو كارثة مفجعة . وفى سان دومنجو قال المزارعون البيض ، الذين فروا من الجزيرة فى أثناء حرب العبيد ، أن من المستحيل على جالية فرنسية كبيرة ، فى جزيرة كانت بفضلهم الدرة اليتيمة بين جزائر السكر ، أن تصبح تحت قدم عبد متظاهر بالتقوى ، وجم غفير من العبيد البادية نواجذهم . ولما كان مما يخالف أفكار نابليون أن تجرأ مستعمرة فرنسية على شراء حاجها من أمريكا وكمالياتها من لندن ، فقد قرر رأيه على القضاء على توسان . عهد الجيش المرسل إلى سان دومنجو إلى الجنرال لكلير (Leclerc) ، زوج پولين بونابرت وصهر نابليون . ولما كان ذلك الجيش قد خدم مع مورو على نهر الرين ، حَسِبَ الذين كانوا يعيبون دائما أعمال نابليون ، أن الغرض من إرسال الحملة إبعاد مناهضيه . ولا عجب فالتعليمات السرية التى أُعطيها القائد العام تكفى للانحاء باللائمة على نابليون : ذلك أن لكلير أُمر بإغراء الحاكم

وقواده ، ثم إيقاعهم في فخ ، ونفيهم من الجزيرة . نُفذ الجزء الأول من ذلك البرنامج ، وقبض على توسان بخدعة شنيعة ، ونفى إلى جبال الجورا بفرنسا حيث قضى بين العواصف الجليدية . ثم دارت الدائرة على منفّذ تلك المأساة التي حركت وردسورث [1] الشاعر الأنجليزى لكتابة أرجوزة من أشهر أراجيزه ؛ إذ انقضّت الحمى الصفراء ، كما تنقضّ الشياطين ، على جيش سان دومنجو الفاخر ، وكادت تقضى عليه لآخر رجل ، بينما أوصدت الحرب مع إنجلترا أبواب العالم الغربى فجأة فى وجه أطماع نابليون .

كانت مسألة مالطا السبب فى انهيار بناء السلام . وتفصيل ذلك أن إنجلترا ، بما لها من الاهتمام بالهند فوق كل شيء ، رأت أن هنالك ضرورة حيوية فى عدم تعرض تلك الجزيرة الصغيرة فى البحر الأبيض المتوسط ، بمينائها الجميلة وحصنها المنيع ، لاستيلاء الفرنسيين من جديد مهما تكن الأحوال . ثم كان المفهوم بمقتضى معاهدة أميان ، أن يضمن استقلال الجزيرة ست دول عظمى ، وأن تجلو عنها الجنود البريطانية بمجرد الحصول

---

(١) ولد وليام وردسورث (William Wordsworth) سنة ١٧٧٠ . تربي فى كامبردج بقصد أن يكون قسيساً ، غير أنه سرعان ما قضى كل وقته فى مطالعة الآداب ، واصبح فى زمنه من أكبر شعراء الانجليز . وله مؤلفات شعرية كثيرة أشهرها « أغنية الخلود » ، وأراجيزه من أجمل ما كتب فى اللغة الانجليزية .

على ذلك الضمان ، وأن توضع فيها حامية من جيش مملكة نابلى لمدة ثلاث سنوات ، على اعتقاد أن يصبح فرسان القديس يوحنا عند انتهائها قادرين على حمايتها . من المحقق أن كل الصعوبات الخاصة بالجلاء عن مالطا كانت تزول لو أن نابليون وافق على إيقاف تيار مراميه نحو الشرق . عند ذلك كانت الجنود البريطانية تنسحب بسرعة ويحل محلها الجيش النابلى ، وتنفذ المعاهدة حرفا ومعنى. إلا أنه كان غير قادر بطبيعته على تهدئة خواطر مناجزيه ؛ وفى الوقت الذى كانت تقضى فيه المصلحة البحرية والحربية إلى مسالمة طويلة الأمد مع إنجلترا ، اثار سلوكه أهم مخاوف الدول ذات المصالح في السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط .من ذلك أنه خاطب القيصر فى مسألة اقتسام تركيا، وفى صلاحية شبه جزيرة المورة للفرنسيين ؛ ثم أنه أعد في يناير سنة ١٨٠٣ حملة إلى الهند . وبالاختصار أن ضياع مصر وسورية أثر فيه تأثيراً كبيرا لدرجة انه سارع في إيفاد بعث للنظر فى طريق استرجاعهما .

رأت الحكومة الأنجليزية ، التى رجاها الباب العالى البقاء فى مالطا ، أن بعث الأميرلاى سبستيانى (Sebastiani) سبب جديد للتشكك فى نيات نابليون . ولما ظهر تقرير البعث في جريدة المونيتور (Monietur) ، فى ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ ، وفيه وصف محبة الفرنسيين

عند أهل شرق البحر الأبيض المتوسط ، ووصف سهولة الاستيلاء من جديد على مصر ، قررت الوزارة الانجليزية أن تبقى جزيرة مالطا في قبضة جيوشها، حتى تستوثق من حسن نية نابليون نحو تركيا والقطر المصرى. لا حاجة بنا بعد ذلك إلى إيراد الاعتبارات الفنية ، فالمسألة على ظاهرها معناها أن انجلترا برفضها الانسحاب من مالطا لم تحترم المعاهدة. وفضلا عن أن بعض الشروط التى كان ينبغى أن تسبق الانسحاب لم تنفذ ، فان التبرير الحقيقى لموقف إنجلترا لا يستند إلى مسائل فنية ، بل إلى الأمر الواقع ، وهو نشاط نابليون المستمر الذى لم يتفق مع سلامة مركز إنجلترا العالمى.

يظهر أن العقبة الرئيسية التى اعترضت مجهودات تاليران[1] وزير خارجية فرنسا ، فى سبيل السلم ، هي غطرسة نابليون التى كان يخشى إيلامهما . والدليل على ذلك أن اللورد هويتورث (Whitworth) سفير إنجلترا في باريس ، كتب بعد محادثة دامت ساعتين مع نابليون ، تقريرا

(١) ولد الأمير شارل موريس تاليران (Charles Maurice Talleyrand) فى باريس سنة ١٧٥٤ ، وهو من أسرة عريقة ، اشتغل بالسياسة إبان الثورة. غير أن تمادى الزعماء الجأه إلي المهاجرة فظل بعيدا عن فرنسا حتى سقوط روبسبيير ، وعندئذ جاء باريس ، وتعين وزيراً للخارجية سنة ١٧٩٥ وبقى كذلك حتى سنة ١٨٠٧ . غير انه بدأ يعمل فى السر ضد الامبراطور نابليون فعزله. ولما سقط الامبراطور أعلن تاليران انضمامه إلى الملكية الجديدة ، وظل من كبار الساسة فى فرنسا مدة طويلة. وتاليران مشهود له بالبراعة فى السياسة غير أنه كان لا يثبت على مبدأ.

ذكر فيه أن القنصل الأول كان يتكلم كأنه قائد فرقة من الفرسان، لا كرأس دولة كبيرة . وكان يتخلل كلامه نغمات كبرياء وغضب وصلف، فتارة يتكلم باعتدال فى ضرورة المحافظة على السلم لمدى عشر سنين، حتى تعد الوسائل اللازمة للتسلط على المحيطات ، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى غيظ شديد ، فيقول إن فى مقدوره إذا دعت الحالة تجهيز مليونى جندى ، وإنه لا يهاب النزال ، وإنه لا يمكن أى شىء فى العالم أن يلجئه إلى التنازل عن أى شرط من شروط المعاهدة من أجل „ جون بول ،، وإن الانجليز لا يستطيعون أن يلحقوا به أذى كبيراً ، وإن أقصى ما يمكنهم أن يأسروا سفينتين أو يستولوا على بضع مستعمرات، لكنه سيحمل فظائع الحرب إلى لندن . „ وإذا كانت أول حرب قد أكسبتنا البلجيك وبيدمنت ،، كما قال في إبريل ، „ فأن الحرب الثانية ستضع النظام الاتحادى الذى نبغيه على قرار مكين ،، .

ظاهر إذاً أن نابليون لم يخش قطع العلائق الذى سيؤدى حتما إلى فتوح جديدة فى أوربا ، وإلى تعويض كارثة سان دومنجو ، وإلى فتح باب جديد تصرف فيه فرنسا قواها . ولقد أقنع نفسه بطريقة ترضى ذمته ، أن الحرب والظلم ضروريان لدوام دولة مؤسسة على الثورة ومعرضة للأحقاد التى تنجم عن المطاحنات الداخلية . وفي ذلك قال : „ إن مركزى يختلف اختلافا تاما عن ملوك أوربا العريقين

فى الملك . هؤلاء يمكنهم أن يعيشوا عيشة الخمول فى قصورهم ، وأن
يستسلموا لكل أنواع الرذيلة ، لا يحاسبهم أحد على مشروعية مراكزهم،
ولا يفكر أحد فى تنصيب غيرهم ، ولا يتهمهم أحد بنكران الجميل،
لأنهم ولدوا من بيوت فيها الملك منذ قرون . أما انا فمسألتى على
النقيض من ذلك : فليس هناك قائد لا يعتقد أن له فى العرش من الحق
مثل مالى ، وليس هناك رجل واحد لا يعتقد أنه كان ذا أثر فعال في
طريق التى اتخذتها في انقلاب الثامن عشر من بريمير . . . لذلك
أرانى مضطراً لأن أكون قاسياً على هؤلاء الرجال . . . إن ملكى
قائم فى الداخل وفى الخارج على الرهبة ، فإذا أهملت تلك الخطة خلعت
عن العرش في الحال ،،. في حماة تلك الأفكار المختمرة فى رأسه ،
وبينما تغالبه نفسه لتأجيل قطع العلائق بمنح إنجلترا بعض التسليمات ،
كان نابليون يعمل بجد لأنجاز معدات النضال .

فى ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ ابتدأت الحرب ، فكانت أعظم نزال
حدث فى القرن التاسع عشر ، وانتهت أخيراً عند واترلو . وفي رسالة
فاخرة إلى مجلس الشيوخ ، ذكر نابليون الاعتدال والصبر اللذين
انتهجتهما السياسة الفرنسية ، والشطط الذى ركبت متنه إنجلترا فى
مطالبها ، ونوه بعدالة أغراضه وشجاعة جنوده . أما خطته الحربية
فكانت تتلخص فى منع المتاجر الانجليزية متعاً باتاً من أرض الجمهورية

وأرض حلفائها ، ثم غزو إنجلترا نفسها . ولم يساور نابليون أى شك فى عظم الحرب التى أصبح لاجئاً فيها ؛ يدل على ذلك قوله فى مايو : «وإن هذه الحرب ستؤدى بطبيعتها إلى حرب أوربية ، واستعداداً لذلك يجب أن أضم إلى جانبى النمسا أو بروسيا» . ولما كان يعتقد أنه يمكنه اجتذاب بروسيا بسهولة «وباعطائها عظمة تلهى بقضمها» ، وأن الروسيا ستكون دائماً فاترة الهمة ، فانه وضع خططه على احتمال مواجهة عدوه القديم ، الذى واجهه مرتين منتصراً بين جبال إيطاليا ووديانها.

بقيت النمسا وإنجلترا — كما كانتا أيام مولبورا (Marlborough) الانجليزى ، واُوجين (Eugene) القائد النمساوى الشهير ، أعدى أعداء التوسع الفرنسى فى القرن الثامن عشر — هذه تسد الطريق أمام فرنسا فى أوربا ، وتلك تضيق عليها الطريق البحرية الموصلة إلى ماوراء أوربا من العالم .

الفصل السادس

فتوح الامبراطورية

ساعد كشف مؤامرة الملكيين لاغتيال القنصل الأول ، ومعاقبتهم في مارس سنة ١٨٠٤ ، على إتمام مشروع كان منذ زمن في دور التكوين في رأس نابليون ، وظل سنين على الأقل موضع حديث الخاص والعام . ذلك أن القنصل الأول لم يرق نظره يوما ما دستور، وظيفته بمقتضاه محدودة لمدة عشر سنوات ، ونفوذه مقيد بحقوق قيام الهيئات البرلمانية التي نص عليها ذلك الدستور . لم يعادل ذلك المركز ما يستحقه رجل تطلع إلى حيازة شهرة الاسكندر أو شارلمان أو يوليوس قيصر . لذلك استفتِيَ الشعب الفرنسي سنة ١٨٠٢ في أن تولى نابليون القنصلية مدة حياته ، فكانت النتيجة إيجابية بالاجماع ؛ وأدى الأمر إلى توسيع عظيم في نفوذه : إذ أُعطى في ٤ أغسطس سنة ١٨٠٢ حق اختيار خلفه وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ . ثم أُنقص أعضاء مجلس التربيون إلى خمسين عضواً ، وعُينت لجان الناخبين على أن يشغل أعضاؤها وظائفهم مدة الحياة ، وبذا زالت آخر آثار الحرية

فى نظام الدولة . كان القانون الأخير من عمل مجلس الشيوخ ، تلك الهيئة التى نيط بها مهمة السهر على الدستور ، والتى اصبحت من ذلك العهد العامل المساعد على خرابه . ولم يكن هناك أثر للمعارضة ، لأن فناء وردهات قصر لكسمبرج [1] ملئت بلا داع بفرقة من رماة قنابل اليد ، لتسهيل تقرير القانون واستعداداً للطوارئ .

ولما تبدلت القنصلية لمدة الحياة أمبراطورية وراثية ، فى مارس سنة ١٨٠٤ ، لم يحدث التبديل تغييراً كبيراً فى حالة الرأى العام أو فى رأس نابليون . يرجع ذلك إلى المكانة التى حصل عليها فى القلوب ، بدليل أن الفزع الذى شمل الناس على أثر تنفيذ حكم الأعدام على دوق دانجيان ذهب أمام تصور المصائب التى كانت تنزل بفرنسا ، لو اغتالت يد قاتل رأس الحكومة . ويجدر هنا أيضاً ذكر أن نابليون أنقذ فرنسا من الفوضى ، وأنه أقام فيها حكومة دلت كل مظاهرها على العظمة والثبوت مالم تنكسها نكبة عنيفة . ثم لاننسى أن حياته وحدها وقفت حائلا بين فرنسا وبين الفتنة الداخلية . نعم هال كثيراً من الفرنسيين ضياع الحرية ، وأسف آخرون على تجديد الحرب ، وأخذ عدد غير قليل يتوجسون خيفة من

---

(١) أنشئ هذا القصر فى باريس فى الجهة الجنوبية من نهر السين مارى دى مديسى زوجة هنرى الرابع ملك فرنسا من ١٥٨٩ إلى ١٦١٠ .

طرق نابليون ومطامعه . لكن كل هؤلاء مهما يكن ميلهم الى التذمر من الاستبداد ، والى اتخاذ القائد مورو نموذجا لهم فى الثبات على المبدأ السياسى ، لم يتطلع أحدهم إلى تجديد أيام ثورة لاقنديه أو عهد الأرهاب ، لأنهم أحسوا أن الوقت حان ليعلم المتآمرون الأجانب أن فرنسا اتخذت الحكومة الملائمة لحالها الخاصة ، وأن إبعاد نابليون عن الحكم لا يغير الحالة العامة ، فليس لأحد المهاجرين ، أو لأحد رجال الأرهاب ، ثمت فائدة من إبعاده .

لم يصادف تأسيس الأمبراطورية صعوبات من جهة الأمة الفرنسية أو الهيئات النيابية ، بل من جانب الأقربين من أسرة نابليون. ذلك أن مجلسي الشيوخ والتربيون والمجلس التشريعي كانت كلها مستعدة لقبول مبدأ الحكومة المطلقة الوراثية ، التى نُبِذَت نبذ النواة اثنتى عشرة سنة قبل ذلك التاريخ . ولم يكن فى مجلس الدولة ، الذى ضم كثيرا من ذوى الشخصيات الثورية ، أكثر من سبعة أصوات مخالفة لذلك الشعور العام . ثم إن الفلاحين والجنود والطبقة المتوسطة كانت ترى أن أى شىء إنما هو أفضل من القيام بثورة من جديد أو التشويش على نظام قائم على المساواة . إلا أن صعوبة عرضت لما لم تنجب جوزفين أولاداً ، إذ أصبحت مسألة الوارث لعرش الأمبراطورية معروضة على بساط البحث ؛ ولا تخلو المناقشة فيها

من الدسائس ، ولا ينتهى البت فيها بلا ضغينة ونفور . وتفصيل ذلك أن إخوة نابليون الثلاثة ، وهم أكبر منه سناً ، وكلهم ذوو مقدرة فوق المستوى العادى ، كانوا قد نفذوا كالسهام إلى مراكز كبيرة فى الغنى والسؤدد . وعلى رغم اختلاف كل منهم عن الآخر في نقط هامة من حيث الطبائع — إذ كان لويس بارد الطبع بقدر ما كان لوسيان حادّه — شابه بعضهم بعضا في اتصافهم بأوصاف أسرتهم من خلق الغيرة والأرادة العنيدة . ترك نابليون الخطة الرومانية القائلة بحق الاختيار المطلق لمن يخلفه على العرش ، احتراما للألحاح الشديد الذى وجهه إليه أخوه يوسف ، وقرر ألا تخرج الأمبراطورية عن دائرة أبناء ليتيشيا ، حتى إذا لم ينجب الأمبراطور ولداً ، ولم يتبنَّ أحداً أحفاده ، يؤول التاج إلى يوسف وذريته ، ثم إلى لويس من بعدهم . حُرِم من حق وراثة الامبراطورية أخوان لسبب واحد : وهو أن لوسيان العنيد تزوج من امرأة من الطبقة الوسطى ، أحبها حباً جماً ورفض هجرها ؛ وأن جيروم عزيز الأسرة ، ارتكب مثل تلك الزلة ، إذ أعلن ذلك البحار الصغير [1] أنه تزوج من امرأة في بلتيمور بأمريكا ، وأنه مزمع الرجوع إلى أوربا بزوجته الأمريكية ، فأثار النبأ غضب نابليون

---

(١) كان جيروم ضابطا فى البحرية الفرنسية ، ولما أعلنت الحرب بين انجلترا وفرنسا سنة ١٨٠٢ ، كان ذلك الشاب مع الأسطول للوجود فى المياه الأمريكية ، وتزوج أثناء الفترة التى أقلها الأسطول من ابنة أحد التجار فى بلتيمور .

الذى أصبح كل بونابرتى فى نظره أميراً وزوجا صالحا لأميرات أجنبيات .

كان من مكملات الامبراطورية ، تكوين بلاط منتظم لحفلات الاستقبال ، واهتمام بالرسميات . ولقد كانت أساليب القرشق الخشنة ، وحركات أقاربه الدالة على الجهل بحياة البلاط ، موضوع سخرية السيدات والسادة ، الذين ألفوا الظرف الطبيعى ، الذى كان يوما سائدا فى ڤرساى . ذلك أن نابليون لم يأبه لواجبات الملاطفة ، وكان يجهل تقاليد الأرستوقراطية الأوربية ، قليل المهارة فى الرقص ، متوسط الالمام بالفروسية ، خلوا من أخلاق هواة الرياضة. وكان يركب أحيانا للصيد ، كواجب يحتمه عليه مركزه لا للهو والسرور ، أو يطلق بندقته على الطيور الأليفة ، التى كانت تقتنيها زوجه فى حديقتها ، منصاعا فى ذلك إلى الدافع الذى كان يدفعه إلى الحفر على الكراسى والموائد بمبراته ، والى تقطيع وتمزيق كل أداة صغيرة تقع تحت يده . وكان ذوقه الموسيقى غفلا غير مهذب ، لا يحفل بالصور ، ولا ينبسط لتجاذب أطراف الحديث في المجتمعات ، حتى قال فيه تاليران ، وكان ملما بكل تقاليد النظام القديم : أن من يستطيع تسلية نابليون يقدر على «تسلية من لا يمكن تسليته» ، وأن نابليون رجل يعتبر المدنية كعدوه الشخصى . وكم من ناعمة الطرف ممن تضورن

من مداعبة الامبراطور لهن بشد آذانهن بعنف ، أو من جلوسه إلى جانبهن يقص عليهن ما يشاع من عدم إخلاص أزواجهن لهن، سُرّت من تلك العبارة التهكمية التى فاه بها تاليران .

ليس فى الدنيا شىء أكثر إفسادا للسرور من الضرب على نغمة واحدة باستمرار ممل ، فى موضوع طويل . وأحاديث نابليون إن لم تكن كلاما طويلا يستوجب إصغاء الحاضرين ، أو توبيخاً عنيفاً ، فهى استفهام طويل ممل فى موضوع واحد . والغالب أن بلاطا يسوسه أنانى محب للعمل، يمتاز بكثير من الفضائل : كأن يراعى الاقتصاد فيه، ويكون في مأمن من تأثير مكايد النساء ، ويملأ المراكز فيه السياسيون المحنكون والقواد المدربون ، لا رجال ضعفاء وطفيليون ظرفاء — مثل ذلك البلاط لا تبزغ فيه شمس السرور . والبلاط الأمبراطورى الفرنسى الذى تجلت فيه كل تلك الفضائل المتقدمة ، تخلت عنه مظاهر السرور ، كلما زاد فيه جلال الملك ووقار الرسميات . وكيف لا يكون ذلك وعلى رأس البلاط رجل كل نظم الرسميات عنده، كالتشريفات والملابس الرسمية ، وطأطأة الرءوس إجلالا ، وتقديم رجل وتأخير أخرى احتراما ، ليست إلا بعض مظاهر السلطان ، التى تدخل السرور على النفس ، وتشعر الحاكم بقوته بين الناس ، ولا قيمة لها إلا أنها تبهر خيال الرجل العادى، وتملؤه بالهيبة والاجلال المنبعثين من رئيس البلاد .

أما فكرة أن الملك مخلوق وظيفته الرئيسية إدخال السرور إلى قلوب رعاياه فكانت بعيدة عن نابليون . والسبب أنه اعتقد أن واجبه وهمه أن يسوسهم ويسوسهم دائماً ؛ فكان إذا جلس إلى مائدة لعب الورق أو الشطرنج ، كان يلعب ليكسب ، حتى اذا عجز عن الكسب بالطرق المشروعة عمد إلى الغش . وكان لروح السلطة سلطان على طبيعته ، حتى أن كل رسائل أتباعه ، لم تفلت من استقصائه ولو كانت خاصة . وكان كلما خف ضغط الأعمال العامة يجلس بين أخصائه ، فيحدد لبعض سيدات البلاط عدد أفراد أسرتها ، أو مصاريف منزلها ، أو نفقات الخيل التي تقتنيها .

هذا ، وكانت روح حب السلطة ، التي تفسد الحرية والسرور ، ممثلة بأجلى معانيها في علاقات نابليون مع أعضاء أسرته . ومع ذلك كان يحفظ في قلبه حباً خالصاً لأمه ولأخوته وأخواته ؛ وليس في حياته شيء أمجد من تحمله للشدائد التي تحملها في حداثته ، أو من المروءة التي أظهرها أيام رجولته لرفاهة أسرته . ويرجع ذلك من جهة إلى صفة حب العشيرة القرشقية ، وإلى اعتقاده من جهة أخرى في وجوب التحقق من أن أهله كانوا في هناءة ، ليبرهن لفرنسا وللعالم أجمع ، أن أسرة بونابرت أحسن من آل بربون ، إذا اتخذت الأسرات قاعدة للتقدير والموازنة . وقد كان في تأسيس الامبراطورية فرصة

أكبر من أى فرصة سابقة لتأييد ذلك القول : فآل بربون الذين حكموا فرنسا ، وكانوا لايزالون حكام إسبانيا ونابلى ، أسرة فرنسية قضت السياسة والمطامع الحربية أن يصبحوا أداة الملكية بين الشعوب اللاتينية ، وليس ببعيد أن يكون هناك مستقبل لايقل عظمة عن عظمة آل بربون مخبوءاً في طيات المقادير لأبناء ليتيشيا . ولو تم ذلك لكانت حادثة من خوارق الحوادث ، وبرهانا ساطعا على إمكان قلب نظام العالم القديم البطىء رأساً على عقب ، بجهود رجل ذى مهارة فائقة ، خلق من أبناء ليتيشيا أمراء وكبراء في أمبراطورية يبلغ اتساعها ما بلغه ملك شارلمان . إنما كان هناك شرط قاس للنجاح فى ذلك المضمار ، وهو أن الرفعة والمراكز السامية كانت تشرى بالطاعة العمياء لرئيس الأسرة .

من يوم أن أعلن نابليون الحرب على إنجلترا كان يعد المعدات لغزوها . قال يوماً : « ليس المانش إلا حفرة لايتطلب عبورها كثيرا من الأقدام » . وقد زعم أنه إذا تم ذلك ستركع إنجلترا عند قدميه ؛ فقد قال في حديث عن ذلك الموضوع فى سنت هيلانه ، أن أربعة أيام كانت تكفى لدخوله لندن « لافاتحا بل محرراً مثل وليام الثالث[1] »

(١) وليام الثالث هو وليام أورانج ابن اخت شارل الثانى ملك إنجلترا (١٦٦٠ — ١٦٨٥) م جاء بعد شارل المذكور جيمس الثانى (١٦٨٥ — ١٦٨٨) . غير أن إنجلترا لم تطق صبرا على ميالة جيمس الكاثوليكية ، فخلعته وولت وليام العرش ، فقبل وجاء إنجلترا سنة ١٦٨٨ .

مع امتيازه فى المروءة وفي التنزه عن الهوى والتحيز ؛ وأنه كان عازما بعد إعلان الجمهورية في إنجلترا على إلغاء مجلس اللوردات ، و إصلاح مجلس النواب ، وتوزيع ثروة الأعيان الوطنيين على الفقراء . وعند ذلك يرحب به الرعاع ؛ ويمنح هو البحارة «كل شيء» يطلبونه[1] ، ويقيم جمهورية منفصلة فى أيرلندا . وهكذا تصبح الجزيرتان وقد دال حكم الخاصة فى الأولى ، وزال حكم الأجنبي فى الثانية[2]، تشاطران فرنسا عهد التجديد .

ليس ثمة قيمة فى تلك الخرافات : إذ لو سلمنا جدلا بأمكان فتح نابليون إنجلترا فلا مجال للشك في مصيرها إلى ما صارت إليه بروسيا بعد موقعة ينا[3] (Jena) : فيبتز الجباة الفرنسيون منها كل ماتستطيع دفعه من الضرائب ، ويُلقى على عاتقها جيش احتلال ، ثم لا يمضى زمن طويل حتى يهب القوم في وجه الجباة والجنود ويطردوهم من أرض الوطن . قال أحد مشهورى الكتاب الحربيين الأوربيين : إن من سوء

---

(١) ذكر المؤلف البحارة ، وأراد أن يشير إلى حالة التمرد التى كانت انتشرت فى الأسطول الانجليزى فى بحر المانش سنة ١٧٩٧ ، لأجل تحسين المرتبات والأجور . ولم يكن هناك سبب سياسي لتلك الفتنة فيستغله نابليون سنة ١٨٠٤ ، بل قد أجيبت مطالب البحارة فى السنة التى تمردوا فيها .

(٢) المقصود بالجزيرة الأولى إنجلترا ، وبالثانية أيرلندا ، وقد أورد المؤلف تلك العبارة بخصوص الجزيرتين ، ليشير إلى الحالة السياسية فى الجزر البريطانية فى أوائل القرن التاسع عشر فى نظر نابليون .

(٣) انظر حرب نابليون مع بروسيا فى هذا الفصل من الكتاب .

حظ أوربا كون العلم الثلاثى الألوان لم يخفق أبداً على حصن لندن وقصر وندزور [1] ؛ إذ لو كان استولى نابليون على إنجلترا لاستنفد هنالك بعض قوته التى آذى بها أوربا ، ولأصبحت إنجلترا عاجزة عن احتكار ميدان الاستعمار ، ذلك الاحتكار الذى يثير الآن نار الحقد عليها فى قلوب مزاحميها من الدول الأوربية . ربما كان من المعقول القول بأنه لو كان نزل جيش فرنسى بأرض أنجلترا لقضى على سيادة نابليون فى أوربا فى مدة أقصر مما حصل ، غير أن هنالك ما يفند ذلك الرأى . ثم أن التاريخ لا ينكر أنه كان خيراً لتقدم العالم أن يؤول أكبر نصيب فى الاستعمار لدولة تدين بالحرية السياسية والصناعية ، بدلا من دولة أو دول تبغي الاستعمار من أجل الاحتكار التجارى . هذا ومهما يلحق نابليون بانجلترا من العطب ، فليس ثمة ما يدعو للاعتقاد فى عدم استطاعتها عند سقوطه استرداد سيادتها التجارية والبحرية ، حتى تسبق فى ميدان التوسع الاستعمارى الدول الأخرى التى كانت مصالحها لا تزال جلها — أو كلها — مرتبطة بقارة أوربا ليس غير .

---

(١) حصن لندن (Tower of London) كما هو الآن عبارة عن قلعة قديمة ، كانت ذات أهمية فى القرون الوسطى ، حين كان لكل مدينة قلعة وباب . وقصر وندزور (Windsor Castle) قصر قديم بناه وليام الفاتح فى القرن الحادى عشر ، وأدخل فيه آل تيودور عدة تعديلات . والقصر من أجمل مناظر ضواحى لندن ، وفيه مسكن خصوصي لملك إنجلترا ، وبه جزء مخصص لضيافة الملوك الذين يزورون مملكته ، وبالقصر أيضاً مقبرة الأسرة المالكة .

مثلا كانت هزيمة إنجلترا فى سنة ١٨٠٤ أو سنة ١٨٠٥ كافية لارجاع جزيرة سيلان أو مستعمرة الرأس إلى الهولنديين ؛ لكنه لم يكن من المعقول أن تؤدى تلك الهزيمة إلى مدّ سنة في أجل الامبراطورية الاستعمارية الألمانية ، أو يزيد فداناً إلى مساحتها(١).

يلزم لغزو إنجلترا ثلاث أمور هامة . وهي جيش قوى ، ونظام يكفل نقل الجيوش والمؤن ، وبحرية قوية تحمى عبورها وإنزالها إلى البر . لم يكن إعداد أى واحد من تلك الأمور هيناء إلا أن الأول أسهل من الثانى ، وهذا أسهل من الثالث .استطاع نابليون،أثناء الفترة ما بين مايو سنة ١٨٠٣ ومايو سنة ١٨٠٥ ، تعبئة جيش مؤلف من ٢١٠٫٠٠٠ مقاتل بفضل نظام التجنيد الاجبارى والقسوة التي استعملها المديرون فى إنفاذه ؛ فأدى ذلك إلى كثير من الآلام ، ولم ينتج النتيجة المرجوة بدليل قول نابليون : " إن خمس المجندين من حثالة الأمة ". غير أن أولئك المجندين ، الذين كانوا معظمهم من فقراء المدن وفلاحى الأرياف ، ما لبثوا بفضل تدريب ضباطهم الكفاة المحنكين ، أن صاروا جيشاً منظما فى معسكرات التمرين،التى أقيمت على الشواطىء الفرنسية الواقعة على بحر الشمال وبحر المانش ، حتى

(١) يشير المؤلف هنا إلى الامبراطورية الألمانية قبل الحرب العظمى،ويرد على أقوال المؤرخين الذين يكتبون ضد الامبراطورية البريطانية الحالية .

كان في وسع نابليون في أى وقت من عامى ١٨٠٤ و١٨٠٥ أن يرسل إلى شواطىء مقاطعة كنت (Kent)، الواقعة فى أقصى الجنوب الشرقى من إنجلترا ، قوة هجومية مؤلفة من ١٠٠ر٠٠٠ مقاتل ، لايقلون بأساً ومهارة عن أى الجيوش التى حاربت فى ذلك العصر . أما مسألة تجهز وسائل النقل لذلك الجيش فكانت أكثر صعوبة : ففى مايو سنة ١٨٠٤ صدرت الأوامر فعلا ببناء ٢١٠ من النقالات البحرية المستوية القيعان؛ وفى يوليه صدر الأمر ببناء ١٤١٠ ؛ وفى أغسطس ببناء ٢٠٠٠ ؛ وبذل مجهود عظيم لتفهيم الشعب الفرنسى ضرورة الاعانات المالية. لكن بصرف النظر عن استحالة بناء ذلك العدد العظيم من السفن النقالة ، بدون تعطيل كل الأعمال المرتبطة ببناء السفن الحربية ، كان من المستحيل سفر تلك النقالات من المرافيء التى بنيت فيها ، إلى المرفأ الذى عين لرحيل الجنود إلى إنجلترا ، بدون أن تلحق بها الطرادات الانجليزية عطباً كبيراً . أضف إلى ذلك أن السفن التى تم إنجازها نقصت عما قدّر نابليون ، فلم يزد عدد السفن التي اجتمعت عند بولونيا على ١٥٠٠ ؛ وعلى الرغم من توسيع ذلك الميناء ، فأنه كان غير صالح لانزال الجنود إلا بعد عناء كبير .

فضلا عن عدم كفاية المعدات المتقدمة ورداءتها ، كان نقص المطلب الثالث العيب المشؤوم فى كل المشروع : ذلك أنه خيل لنابليون

فى خريف ١٨٠٣ ان فى مقدوره عبور المانش فى ليلة دامسة الظلام هادئة الرياح ، بدون حاجة إلى أسطول يحرس النقالات . مثل ذلك العمل كان كالسعى إلى الحتف بالظلف ، لأنه لم يحسب فيه حسابا لأوقات المد والجزر وحالاتهما المتعددة في بحر المانش ، ولا لمخرج بولونيا الضيق ، ولا لصعوبة إبقاء عدد عظيم من السفن مستوية القيعان ، بعضها بقرب بعض ، عند هبوب ريح فجاة فى وسط الليل البهيم . ولو فرضنا بناء على الخطة المرسومة أن يخرج أيضاً أسطول من النقالات الهولنديةمن جزيرة تكسل (Texel) الواقعة عندمدخل بحر زيدرزى ، لمعاونة أسطول النقالات الفرنسية ، فلن يستطيع الأسطولان عمل شيء إذا لم تحرسهما السفن الحربية . اقتنع نابليون أخيراً أن أول خطوة في سبيل النجاح هى جمع كل قواته البحرية فى المانش ، حتى إذا أمكنه أن يجمع فى مضايق المانش أسطولا حربيا فرنسياً متفوقا لمدة قصيرة عن أى أسطول انجليزى يمكن تسييره ضده ، فعند ذلك يستطيع أسطولا النقالات العبور . هنا وهنا بالضبط كانت الصعوبة الكبرى : وهي أن الأسطول الحربى الفرنسى ، فضلا عن كونه أقل قوة وعددا من الأسطول الانجليزى ، كان مبعثراً فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى خليج بسكاى وموانى المانش . وكان أكبر جزء منه محاصرا فى ميناء برست ، ليلا ونهارا ، صيفاً

وشتاء ، ومعرضا لكل تقلبات الجو رديئة ومعتدلة ، بأسطول تحت قيادة أمير البحر الأنجليزي كورنوالس (Cornwallis) . ثم كان نلسن واقفا بالمرصاد لأسطول طولون، على رغم أن تلك المراقبة الدقيقة لم تكن جزءا من خطته . برهن نابليون على مهارته وإقدامه فى الأمور البحرية لما رأى حرج مركزه ، وعلم أنه لا يمكن حل تلك العقدة إلا باجلاء أمراء البحر الأنجليزي عن مراكزهم ، واستدراجهم إلى بحار بعيدة . والحقيقة أن مكايده العديدة ، وما تضمنت من مهارة وجرأة، بهرت العقول . — فمن تظاهر بالأقلاع إلى مصر ، ثم إلى إيرلندا ، ثم إلى جزر الهند الغربية ؛ ومن تسيير أسطول طولون إلى ميناء شربورج ، ومروره بعد مخادعات طويلة أمام أسطول كورنوالس . لو كان البخار مستعملا إذ ذاك في السفن ، وكان عند نابليون أمراء بحر ذوو جرأة ، وبحارة ذوو كفاية ، لأمكن تنفيذ بعض تلك الخطط بالدقة . إلا أن نابليون كان ينتظر كثيراً ويأمل كثيرا من بحرية ناقصة خائرة القوى ، ونسى أن الرياح والمد والجزر لا تسخر بأمر إنسان .

زعم بعض الباحثين أن كل تلك الخطط والاستعدادات المتقنة كانت كلها خدعا فى حد ذاتها ، وأن نابليون لم يقصد يوماً أن يعبر المانش . لكن من قرأ الرسائل الكثيرة الدقيقة الحارة ، التى استغرقت ثلاث سنين ، والتى دارت كلها حول المسألة البحرية ،

لايشك لحظة واحدة فى أن نابليون كان جاداً في خططه لغزو إنجلترا، أو فى عزمه على إنفاذها فى ظرفين على الأقل : أولهما في خريف سنة ١٨٠٣ ، وثانيهما فى صيف سنة ١٨٠٤ ، وربما فى ربيع وصيف سنة ١٨٠٥ أيضاً . ثم إذا لم يكن جاداً فى عزمه فلماذا أمر بضرب نيشان عليه صورة هرقل يخنق إحدى بنات البحر[1] من وجه ، وعليه من الوجه الآخر «ذكرى غزو إنجلترا . ضرب في لندن سنة ١٨٠٤ »، ولماذا صرف الأمبراطور خمسة أسابيع على الشاطىء الشمالى ، في صيف سنة ١٨٠٤ ، يبذل كل ما أوتى من نشاط فى إعداد المعدات البحرية ، وتستهويه نشوة الطرب عند رؤية البحر؟ أكان هازلا عند ما خصص عشرين مليون فرنك فى مارس سنة ١٨٠٥ ، لأصلاح الطرق في بيكاردى (Picardy)، وهي المقاطعة الفرنسية المطلة على الشواطىء الأنجليزية الجنوبية ؟ أو حينما رسم خطة دقيقة بعد كثير من التنميق والتعديل ، تتضمن جمع كل السفن الحربية الفرنسية عند جزيرة مارتينيك فى الهند الغربية ، حتى إذا تم تضليل الأسطول الأنجليزى أسرعت السفن الفرنسية قافلة إلى بولونيا ؟ الحقيقة أنه لما وضح عدم إمكان إنفاذ المشروع ، أصبح من

(١) هرقل بطل الشجاعة فى الأقاصيص اليونانية القديمة ، وقد رسم على النيشان رمزاً لنابليون ـ أما بنت البحر فرسمت رمزاً إلى إنجلترا.

السهل ، بل من الطبيعى ، القول بأن غزو إنجلترا لم يُقصد أبداً . عند ذلك أعلن نابليون بلهجة متغطرسة ، أن عبور المانش لم يكن إلا إيهاماً، قصد به التمكن من تعبئة الجيش وتموينه وتدريبه ، استعداداً لحرب أوربية بدون إثارة خاطر أحد ؛ وأن الملايين التى صرفت على العمارة البحرية ، وعلى إصلاح الطرق والموانئ ، لم تكن إلا لذر الرماد فى عين الأجنبى ؛ وأن السلاح الذى وجهه باستمرار ومهارة نحو إنجلترا، لم يكن إلا موجهاً لاثارة دولة أخرى في الجانب الآخر من أوربا ، أعنى النمسا .

لا تخلو تلك المعاذير من بعض الحق ، لأن احتمال نشوب الحرب فى أوربا ، الذى كان يشغل رأس نابليون ، جعل الجيوش المحتشدة عند بولونيا نافعة من وجهتين : أحداهما وأهمهما توجيهها ضد لندن ، وثانيتهما — في حالة فشل المشروع البحرى — ضد عصبة الدول الأوربية ، التى كان من المحقق ، عاجلا أو آجلا ، أن يكونها بِت رئيس الوزارة الانجليزية حين ذاك . وفى الحقيقة أنه إذا استعصى غزو إنجلترا ، فلا يبقى إلا طريقان لاثابتها إلى رشدها وهما : إما إنفاذ ضربة قاضية في الهند ، وإما إقامة حصار قارى فى وجه التجارة الانجليزية . جرّب نابليون الطريق الأولى سنة ١٧٩٨ ؛ وبعد نقض معاهدة أميان ، كان جل همه موجهاً نحو الطريق الثانية ، ظنا منه أن

هزيمة إنجلترا تستلزم التسلط على دول أوربا أولا ، حتى إذا فشل غزو الجزائر البريطانية المتقدم ذكره ، كان من اللازم التحرش بدولة اوربية إلى حد يكون عنده قطع العلائق معها أمراً يسيرا .

لم يكن فى التاريخ سابقة يتعلم نابليون منها فن إثارة الخواطر . وتفسير ذلك أن البلاط النمساوى ، بسبب ما تكاثر عليه من المصائب الحربية المتوالية ، كان على استعداد لقبول كثير من ضروب الأذلال قبل أن ينزل إلى ميدان القتال من جديد . فمثلا وقفت النمسا جامدة وهي ترى غزو ولاية هنوفر بألمانيا، وإعادة احتلال مملكة نابلى ، وإكراه إسبانيا على دفع إعانة مالية ، وقبلت وهي تحرق الأرم القبض على الأمير دانجيان ، وهو في أرض الأمبراطورية النمساوية ، والحكم عليه بالأعدام بعد محاكمة سرية . ولما أعلن نابليون نفسه إمبراطورا رضيت صاغرة ، وكذلك فعلت لما أخذت نابليون عزة الملك، وسافر إلى إكس لاشابل عاصمة إمبراطورية شارلمان القديمة ، ليتسلم الوثائق التى اعترفت النمسا فيها بمركزه الجديد . السبب فى ذلك كله ، أن هيئة كبار الفنيين الحربيين قررت أن النمسا ليست على استعداد للحرب بعد ، وأن الأرشيدوق شارل النمساوى ، الذى كان ينصح بالتروى، تغلب برأيه مدة طويلة على آراء المتحمسين القائلين بالتعجيل .

خرجت النمسا فجأة من ذلك الموقف السلبى من جراء أعمال

نابليون فى إيطاليا : وذلك أن آل هابسبورج شاهدوا مرغمين سلسلة من التغييرات التى لم ترق نظرهم ، منها تأسيس جمهورية فى لمبارديا على حسابهم سنة ١٧٩٧ ، واسترجاعها على حسابهم أيضاً سنة ١٨٠٠، وتأسيس جمهورية بها ثانية بعد ذلك بسنتين ، على نظام أدق واشد خطرا تحت رآسة نابليون . كانت النمسا تغض الطرف عن كل تلك الاجراءات ، آملة أن تصبح ,, الجمهورية الأيطالية ،، فاصلا بين الفرنسيين فى بيدمُنت والنمساويين فى البندقية . لكن ظهر فجأة سنة ١٨٠٤ مشروع جديدمنذرا بالأخطار : إذ أعلن نابليون أن احتفاظه برآسة الجمهورية الأيطالية لايتفق ومركزه الجديد كأمبراطور فرنسا ، وعلى ذلك أخطرت النمسا بتحويل الجمهورية الأيطالية ملكية وراثية ، وبقبول يوسف بونابرت لعرشها ، مع الضمان الكافى لبقاء تاجى إيطاليا وفرنسا لا يحملهما رأس واحدا . إلا أن ذلك المشروع على ما فيه من شبهات ، وما تضمنه من مخاوف ، أستبدل بآخر كان أدعى لأقلاق بال النمساويين : وهو أن قبول يوسف بونابرت للعرش الأيطالى كان سابقا لأوانه ؛ لأنه بعدأن فكر وأدرك أنه من ضمن المرشحين لعرش الأمبراطورية الفرنسية، آثر البقاء فى فرنسا منتظرا ماتأتى به الأيام ، على أن يقبل مركزاً فى لمبارديا مملوءا بالمتاعب محملا بالمسئولية . ثم فكر نابليون فى تبنى أكبر

أولاد أخيه لويس ، وفى منحه وهو في الثالثة من عمره لقب ملك إيطاليا ، حتى يبلغ أشده فيملك زمام عرشها بيده . إلا أن ذلك المشروع أُهمل لمعارضة أبي الولد ؛ فاستقر رأى الأمبراطور على أمر ظهر منه جليا مبلغ أطماعه : ذلك أنه عزم على أخذ التاج الأيطالى لنفسه ، فيصبح ملك أيطاليا ، على أن يكون ربيبه يوجين بوهارنيه قائما بالأمر عنه فى ميلان . جعل ذلك الترتيب مؤقتاً ريثما يخلى البريطانيون مالطا ، والروسيون جزيرة كورفو فى بحر الأرخبيل . لكن كان من المستحيل على أى سياسى ذكى أن يصدق كل تلك الأقوال والتحفظات ، أو يعتقد أن نفسية نابليون تسمح بالتنازل عن تاج وقع فى يده مرة . وفي الحقيقة لم يخف نابليون نياته ، وسرعان ما أصبح شارلمان الجديد ، وملك أكس لاشابل وميلان ، والمهيمن على فرنسا وأيطاليا ، فضلا عن توجه البابا إليه وتبريكه حديثا إمبراطورا على الفرنسيين . على ذلك ذهب نابليون فى يونيه سنة ١٨٠٥ إلى إيطاليا ، وتوج نفسه بكل هدوء فى كاتدرائية ميلان بتاج ملوك لمبارديا الحديدى ، كما كان يفعل أباطرة الدولة الرومانية المقدسة فى القرون الوسطى ، إذ يأتون وحولهم الفرسان الألمان ليثبتوا للملأ حقوقهم الخيالية على سهل لمباردى . أجل كانت سلطة نابليون أوسع مما كان لبرباروسا الذى دانت له البلاد فى القرون الوسطى ، وامتازت عنها بأنها لم تلق من يناهضها . ولقد

انتهز فرصة زيارته لايطاليا تلك المرة فكون «« إقطاعا إيطاليا »» لأخته إليز (Elise) من بلدة بيومبينو (Piombino) الواقعة على الشاطئ الايطالى فى مواجهة جزيرة إلبا ، وضم إلى الامبراطورية الفرنسية الساحل الذى تتكون منه الجمهورية الليجورية [1] .

كانت الروسيا و إنجلترا تحرضان النمسا بالحاح لمحاربة نابليون الذى أرغمها على نحو ماتقدم . والسبب أن القيصر اسكندر — ذلك الشاب الخراق الطموح — كان غاضبا من أجل إعدام دانجيان، بدرجة أنه وقع فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٠٤ على معاهدة دفاعية مع النمسا، ضد أى اعتداءات جديدة من جانب فرنسا . وقعت تلك الاعتداءات لما خرقت فرنسا حرمة معاهدة لونيفيل بجرأة ، فوردت الأخبار على البلاط النمساوى أنه إذا لم تهب النمسا بسرعة ، فأنها لن تلق معونة رجال الروسيا ولا أموال إنجلترا فيما بعد . على ذلك انضم فرنسيس إمبراطور النمسا للتحالف [2] ، فى ٧ يونيه سنة ١٨٠٥ ، وبدأ فى تعبئة جيوشه . بيد أن عين نابليون الساهرة لم تغفل عن تلك الحركة ، ولما كان من المحتمل ان تنصرم بضعة شهور قبل أن تتأهب النمسا للحرب ، رأى أن يمضى

---

(١) هذا هو الاسم الذى أطلق على جمهورية جنوا بعد أن فتحها الفرنسيون سنة ١٧٩٧ ، وألغوا نظام الجمهورية القديمة .

(٢) هذا هو المعروف بالتحالف الثالث ، وقد نجح فى تكوينه بت رئيس الوزارة الانجليزية من الروسيا والنمسا والسويد وإنجلترا ، وكانت إسبانيا وباقاريا فى ذلك الوقت فى جانب نابليون .

هو في إعداد خطته العظيمة والاخيرة ضد إنجلترا ، حتى إذا مافشلت انقض على جموع النمساويين ليكتسحهم دفعة واحدة .

ثم كتب نابليون فى ٢٣ أغسطس ، وهو فى بولونيا إلى تاليران ، قال : « وقام أسطول من فرول (Ferrol) مؤلف من أربع وثلاثين سفينة ، ولم يجد للعدو أثراً ؛ فاذا نفذ ذلك الأسطول الأوامر المعطاة له ، ولحق بالأسطول المقلع من برست (Brest) ليدخلا المانش معا ، فأن هناك أملا أن أصبح المسيطر على إنجلترا » . ثم قال ، وإذا لم يتم ذلك « فسأغادر معسكرى فى هذه الجهة ، وأكون فى يوم ٢٣ سبتمبر فى ألمانيا على رأس ٢٠٠٫٠٠٠ مقاتل ، وأبعث ٢٥٫٠٠٠ جندى أخرى إلى مملكة نابلى والبندقية ، وأكون قد وسعت ممتلكات منتخب باڤاريا ، فلا أعود أرهب جانب النمسا » . ولكن قبل كتابة تلك الرسالة بأسبوع ، أى فى ١٥ أغسطس ، كان أمير البحر ڤيلنيف ، قائد الأساطيل الفرنسية والأسبانية المتحالفة ، قد أخفق فى محاولته ، وأصدر الأمر بالأياب إلى قادس على شاطىء إسبانيا الجنوبى[1] .

---

(١) تفصيل ماحدث أن أمير البحر فيلنيف (Villeneuve) نجح أولا فى استدراج نلسن نحو جزائر الهند الغربية فى ربيع سنة ١٨٠٠ ؛ غير أن نلسن كشف الحيلة لما شاهد السفن الفرنسية تتأهب للرجوع عند جزيرة أنتيجا أحدى جزائر الهند الغربية ؛ على ذلك ارسل نلسن رسولا على ظهر أسرع سفنه لتحذير الحكومة الانجليزية ، التى ارسلت إلى أمير البحر كورنوالس ، الذى كان يحاصر الأساطيل الفرنسية الراسية فى برست وفرول ، أمراً بترك الحصار والخروج إلى

هكذا فشل المقصد الأول بفضل يقظة البحرية الأنجليزية، فلم يبق لنابليون إلا أن ينفذ الأمر العظيم الآخر. كان النمساويون قد عقدوا النية على تسيير الجزء الأعظم من جيوشهم إلى إيطاليا، وعلى إبقاء ٥٠٫٠٠٠ جندى فقط للقتال فى جنوب ألمانيا. يرجع ذلك الترتيب إلى شىء من سوء تقدير الأحوال. ثم زاد الموقف حرجا قلة صبر النمساويين وعدم مبالاتهم بضرورة انتظار وصول الأمداد الروسية. تفصيل ذلك أنه بالرغم من الاتفاق على انتظار وصول ٥٠٫٠٠٠ مقاتل روسى إلى بلدة براوناو (Braunau) على نهر الأن (Inn) فى ٢٠ أكتوبر، ظن الجنرال النمساوى ماك (Mack) من الحزم أن يتقدم نحو الحدود الفرنسية، بغية أن ينضم إليه أهل ألمانيا الجنوبية، أو أن يحدث وصوله فرنسا ثورة داخلية. وسرعان ما لقيت تلك الغلطة جزاءاً وفاقا؛ إذ بينا كان ماك يحلم باختراق الغابة السوداء دون أن يلقى مقاومة، إذا بجيش يبلغ عدده مثل عدد جيشه ثلاث مرات، ويمتاز بأنه أحسن منه قيادة وأكفأ ضباطا وأدق نظاما، يعبر مسرعا

البحر لمقابلة لمير البحر الفرنسى، فقابله عند رأس فنستر (Finistre) فى جنوب إسبانيا، فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٠٥، وألحق به الهزيمة. عند ذلك اضطر فيلنيف إلى الالتجاء إلى ميناء قادس، وجاء أسطول إنجليزى لمحاصرته فيها. ثم حاول فيلنيف الخروج إلى عرض البحر والانتقام لهزيمته عند رأس فنستر، فكانت النتيجة أن لحقت به الهزيمة التامة عند رأس الطرف الأغر فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ على يد أمير أمراء البحر نلسن الذى جرح أثناء المعركة ومات بعدها بقليل.

ألمانيا من طرق شتى على خطط موضوعة بدقة رياضية . وسرعان ما أحاطت الشباك بقنصها الغافل ، ولم تمض ثلاثة أسابيع على عبور الجيش الأعظم [1] نهر الرين ، حتى كان ماك وجيشه النمساوى قد سلما عند أُلم (Ulm) . عند ذلك كتب نابليون : « لقد نفذت خطتى كما رسمتها بالضبط ». وقد لا يعي التاريخ ، بما فيه من ذكريات وأمثال ، ونخص بالذكر منها حياة القائد البروسى ملتكه [2] ، مثلا كان تنفيذ خطة التطويق منطبقاً تمام الانطباق على الخطة الأصلية كما حصل فى أُلم .

بينما الروسيون والنمساويون يتقهقرون أمام نابليون ، كانت سحب حالكة تتجمع فى شمال ألمانيا . كانت الحكومة البروسية وقتئذ غير الهيئة الرائعة التي تُسَيِّر الآن قوى خمسين مليون ألمانى ، على نظام عسكرى كله وطنية متحمسة [3] . وكانت بروسيا نفسها أقل ثروة وسكاناً ودرجة من المستوى المنخفض الذى تعيش فيه إيرلندا الحديثة ،

---

(١) أطلق هذا الاسم لأول مرة على الجيش الذي أعده نابليون لغزو انجلترا ، وقد بقى ذلك الاسم لاصقا بجيش الامبراطور فى حروبه المتعددة .

(٢) برنهارد فون ملتكه (Bernhard Von Moltke) هو القائد البرى البروسي الذى بقى رئيساً لهيئة أركان الحرب فى الجيش البروسى ثلاثين عاما . ولد سنة ١٨٠٠ ، وتوفى سنة ١٨٩١ ، وهو أعظم أستاذ ، جاد به النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فى علم خطط القتال وتدابيره .

(٣) يصف المؤلف الامبراطورية الألمانية قبل الحرب العظمى .

حتى خيل أنها نبذت تحت حكم فردريك وليام الثالث أطماعها كدولة من دول الدرجة الأولى . مثل ذلك أنها اتبعت خلال عشر سنوات سياسة حيدة دائمة ، بلا شجاعة ولا تبصر ، رغم إثارات تكفى لاستفزاز أمة ذات شمم للقتال . ولقد جاء الوقت الذى لم تستطع بعده بروسيا صبرا : ففى خريف سنة ١٨٠٥ بلغ السيل الزبى ، لما سار جزء من الجيش الفرنسى مخترقا ألمانيا فى طريقه إلى ألم ، ثقة منه أن لا جناح عليه في خرق حرمة حياد بروسيا . ظاهر أنه لو تركت أمثال تلك الجرائم بلا عقاب ، فلا قيمة لمنطقة الحياد ، التي كانت تحت حماية بروسيا بمقتضى معاهدة بال . لذلك عقد ملك بروسيا مع قيصر الروسيا معاهدة تحالف فى بوتسدام ، مؤداها أن تعرض بروسيا استعدادها للتدخل فى جانب نابليون . وضعت شروط تلك المنحة بشكل يجعلها تؤدى للحرب بعد شهر ، تكون بروسيا فى أثنائه قد أعدت عدتها : ذلك أنها طلبت من غازى ألم أن ينسحب من هولندا وألمانيا ونابلى وسويسرا وبيدمنت ، وإلا أطلقت فى سبيل مواصلاته مائة وثمانين ألف بروسى .

كان من الحزم أن يرجىء امبراطورا النمسا والروسيا الحرب لوقت نزول الجيش البروسى إلى الميدان ، لاسيما وأن جميع الظروف كانت تقول في التأنى السلامة وفي العجلة الندامة . وتفصيل ذلك أن نابليون

رغم استيلائه على ڤينا كان معرضاً للهجوم من كل صوب وحدب بجيوش الأرشيدوق شارل ، الذى رجع بسرعة من إيطاليا ، وبجيوش الروسيا التى ارتدت بعد ألم إلى بوهيميا ، حيث أخذت تنضم إليها فلول الجيش النمساوى ، التى نجحت في الخلاص من الشرك الذى نصب فى ألم . لو أنه أضيف إلى تلك الوحدات الهائلة ، رغم تفوقها، قوة جيش بروسى يحارب فى وادى الدانوب الأوسط ، لأصبح مركز نابليون فى موراڤيا حرجا . كان الأمبراطور متيقظا كل اليقظة لخاطر ذلك المركز ، حتى أنه فتح باب المفاوضات مع كل من الأسكندر وفرنسيس عله يفسد بينهما . على أنه تخلص من ذلك المأزق لا بالسياسة ، بل بغرور القيصر أسكندر ، الذى اعتقد أنه يمكنه وحيداً قهر نابليون ، فاراد أن ينفرد بذلك الفخار ، وعقد النية على إجبار نابليون على القتال : كان اليوم الثانى من ديسمبر سنة ١٨٠٥ الموافق عيد تتويج نابليون ، حين وقعت الواقعة الكبرى ، التى أخذت أسمها من قرية أسترلتز (Austerlitz) فى موراڤيا ، حيث أقام الأمبراطوران مراكزهما الرئيسية . فى ليلة الواقعة ساد معسكرات الفرنسيين روح مدهش ملؤه الثقة ؛ وأنارت ظلام الليل البارد أضواء الرقص بالمشاعل ، الذى اشترك فيه سبعون ألفاً هاتفين للأمبراطور ، مبشرين بالنصر في الصباح . أما جيش الحلفاء

البالغ ثمانين ألفاً ، فكان معسكراً على مرتفعات براتزن (Pratzen) التى عرفها نابليون جيداً من قبل ، حتى إذا أشرقت الشمس أمكنه رؤية أعدائه ينحدرون من الهضبة ،، انحدار السيل إلى الوادى ،، . كانت خطة نابليون أن يحول كل مجهود الهجوم الروسى ضد جناحه الأيمن ، حتى يتيسر له بعد ذلك تسيير قوة كبيرة إلى مرتفعات براتزن ، ليشتت قلب الجيش الروسى . رتبت الحركات بالدقة اللازمة للنجاح في كل الحروب ، مثلا وجه نابليون إلى القائد سولت [1] السؤال الآتى : ،، كم من الوقت يلزمك للوصول إلى مرتفعات براتزن ؟ ،، فأجاب سولت : ،، يلزمنى أقل من عشرين دقيقة ،، . وعندها رد عليه نابليون : ،، إذا كانت المسألة كذلك ، فيمكننا أن ننتظر ربع ساعة آخر ،، . ثم لما علم نابليون من طقطقة البنادق ودوى المدافع ، أن الروس قد اشتبكوا مع جناحه الأيمن ، سير مورا وبرنادوت [2] وسولت ضد قلب الأحلاف . وقد حارب

---

(١) ولد نيقولا سولت (Nicola Ssoult) سنة ١٧٦٩ . دخل الجيش جنديا عاديا وترقى فيه حتى كانت أيام نابليون فترقى فى أيامه أيضاً . وهو بلا شك من أعظم قواد نابليون قدرا وخبرة ومهارة فى الحرب . ولما سقط نابليون أبعد سولت عن فرنسا ، وبقى كذلك حتى استدعته الحكومة الفرنسية نفسها سنة ١٨١٩ ، وخدم الملكية الجديدة .

(٢) ولد جان برنادوت (Jean Bernadotte) سنة ١٧٦٤ . دخل البحرية الفرنسية ، وأظهر كفاية أيام الثورة ، فترقى وقتئذ بسرعة ، وأصبح من الرجال المعروفين . ويظهر أنه لم يكن بينه وبين نابليون ثقة أبدا ، لأنه كان من المعارضين فى انقلاب برومير ؛ مع ذلك أصبح برنادوت

الروس بتلك الشجاعة التى كثيراً ما أكسبتهم فخارا فى تاريخ الحروب . بيد أن الفرنسيين ظهروا عليهم لكثرة عددهم وإقدامهم : فاستولى سولت على المرتفعات حوالى الظهر ، وأخذت فلول جيش كوتوسوف (Kutusoff) تنحدر متقهقرة على الجانب الشمالى للهضبة ، بينا تحول قلب الجيش الفرنسى إلى اليمين وحمل على جانب ومؤخرة الجناح الروسى الأيسر . رأى الأمبراطور بعينه من كنيسة سانت أنطونى كيف أُبيدت ثلاث فرق روسية. ولما تبودلت الطلقات الأخيرة ، ركب إلى الميدان في ساعة الغسق فى تلك الليلة الباردة ، وتفقد بامعان غريب غنائم اليوم من جثث هامدة وأجسام تنبعث منها أصوات الآلام .

وقفت الحرب فجأة عند تلك الضربة المميتة ، فانسحب القيصر المدحور إلى الشمال، واضطر هو جقتز (Haugwitz) المفوض البروسى،

مارشالا سنة ١٨٠٦ . من المهم ملاحظة أن برنادوت امتاز دون بقية قواد فرنسا فى ذلك العهد بحلمه وكرمه وحسن معاملته للأسرى . ذلك أنه حدث سنة ١٨٠٩ أن السويد ملت الحرب ضد نابليون ، فعزلت ملكها جستاف الرابع ، وولت مكانه شارل الثالث عشر وكان ضعيفاً هرما وليس له ولد ؛ فاختارت السويد برنادوت وليا للعهد لما عرفت عنه من حسن المعاملة للأسرى السويديين فى أثناء الحرب، وكوسيلة لتقوية أواصر المحالفة مع نابليون . ولقد انزعجت انجلترا والروسيا من ذلك الترتيب ؛ غير أنه لم يكن ثمت داع للتخوف ، لأن السويد اختارت فى الحقيقة أقل الفرنسيين ودا مع نابليون . ولما قبل برنادوت منصبه الجديد رفض أن يعد الأمبراطور بالانضمام للحصار القارى . ثم مات شارل الثالث عشر سنة ١٨١٠ فتولى برنادوت ؛ عند ذلك طلب نابليون من برنادوت أن ينضم إلى الحصار القارى بلا قيد ولا شرط، فلم يقبل برنادوت وانضم إلى الروسيا سنة ١٨١٢ ودخل الصفوف ضد نابليون .

الذى بقى في ڤينا ومصير أوربا فى كفتى ميزان ، إلى التوقيع باسمه على صلح شائن فى برسبورج (Pressberg) . أما النمسا فقد وقع عليها الجزاء الأوفي ، وباءت بغضب نابليون للمرة الثالثة ؛ وبمعاهدة شونبرون (Schonbrunn) ، في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٠٥ ، وافق فرنسيس على التنازل عن البندقية وإستريا (Istria) ودلماشيا ، وعن خط الطوانى الجبلية بالتيرول ، وعن الأراض المنتثرة فى الجنوب الغربى من ألمانيا التى كانت من أقدم أملاك آل هابسبورج .

أصبح نابليون بعد أسترلتز سيد إيطاليا وجنوب ألمانيا ؛ وقديما كان يواجهه فى إيطاليا ثلاث قوات خارجة عن نفوذه وهي البندقية وروما ونابلى — دول ضعيفة بنفسها ، قوية بشد أزر النمسا لها أدبياً وحربيا — ومن ثم أصبحت مسألتها تستدعى علاجا دقيقاً . غير أنه لما أباد نابليون جيشاً نمساوياً عند أُلم ؛ وكسر جزءا من جيش نمساوى آخر عند أسترلتز ، أصبح قادراً على الانقضاض على أملاك وأحلاف آل هابسبورج في إيطاليا : فضم البندقية إلى مملكته الأيطالية ، وأرسل مسينا لطرد آل بربون من نابلى ، وطلب بخشونة إلى البابا أن ينضم إلى الحصار القارى ، ونتج عن تردد المجلس البابوى أن أعلن نابليون نفسه إمبراطور روما والرئيس الدنيوى فى الكنيسة . بذلك أصبحت إيطاليا في قبضته ، ولكى يكون مركزه فيها موطدا ، أعطى

بمار التيرول لحليفه أمير باڤاريا، الذى أصبح ملكا وصهرا جزاء مساعدته في الحرب . ومن المحقق أن يحرص حارس إيطاليا الجديد على ما أؤتمن عليه، لأن ابنته التى تزوجت بوجين ربيب نابليون ، أصبحت الملكة فى ميلان .

بتلك التدابير الفعالة طُهِّرَتْ إيطاليا لثمان سنوات من كل أثر نمساوى خبيث . ولقد ذاقت إيطاليا حلو العيش ومره على يد غازيها العظيم ، وكانت تلك الفترة من أحرج الفترات وأهمها فى دور تكوينها: إذ أُرسل أبناؤها في حروب خارجية ، وخربت دور الفنون الجميلة بمدنها ، ونهب خزائنها الوكلاء الماليون ، عمال الاستبداد الحربى الفرنسى . لكنها على الأقل نالت من حكم نابليون ، ما كان يستحيل على النمسا أن تنيلها إياه ، وهو إذكاء نار الآمال القومية ، ونظرة جديدة إلى العالم الحديث،ومبادىء التدريب الجدى فى المسائل العامة.

من مزايا مركز نابليون أنه كان لانفراده بالسلطة فى فرنسا ، يستطيع فى أى وقت ، وبدون أن تعترضه العراقيل ، أن يستفيد من الظروف في تحقيق أغراضه الحربية.مثل ذلك أنه لم يدخل الحرب الآنفة الذكر إلا بعد تفقد الحال السياسية فى ألمانيا ، حيث رأى أن الدويلات الألمانية الجنوبية توجس خيفة من مطامع النمسا ، وأن من الممكن استمالتها إلى جانب فرنسا ، بأعطائها شيئا يسد رمقها.بتلك

الطريقة سارت بادن وفرتمبرج وباڤاريا مع التيار الفرنسى، واشتركت فى معسكر أسترلتز ؛ وبعد الانتصار طلبت ونالت الأرض والألقاب التى تكافأ بها أمثال تلك الخدمات . ولم تكن المساومة فى مصلحة طرف واحد ، لأن نابليون نال بسرعة مدهشة ثلاثا من بنات أمراء الدويلات الثلاث : زوّج إحداهن إلى ربيبه[1] ، والثانية إلى ابن عم ربيبه ، والثالثة لأخيه جيروم ؛ وبتلك المصاهرات الغريبة الموفقة ، طبع نابليون مشروعه الهائل بطابع من الوقار ، وربط ثلاث بيوتات قديمة ، ذات مجد غير ضئيل ، بعلاقات غرامية أجنبية.

مهدت تلك المحالفات التى تمت وتأصلت ، طريقاً للضربة الأخيرة والقاضية على مركز النمسا فى ألمانيا : إذ محا نابليون الدولة الرومانية المقدسة فى يونيه سنة ١٨٠٦ ، وأقام بدل ذلك النظام الألمانى العتيق الواهن عصبة قوية ، لا تستند إلى مبادئ قومية ، مكونة من أمراء يستمدون منه كل سلطة ، وعليهم عهد مقطوع ، أن يمدوا الأمبراطورية الفرنسية بمعونات حربية معينة . وكذلك برهن اتحاد الرين — وهو اسم تلك العصبة — برهاناً قاطعا على الوهن الذى قد تصير إليه أمة متمدينة ، بتأثير التفكير السيء والعواطف الخاطئة فى السياسة . سبر نابليون غور ذلك الوهن الألمانى ، وهو جاهل بكتابة

---

(١) أنظر ص ١٦٧ .

او قراءة كلمة واحدة باللغة الألمانية ، ما عدا فرتز الذى كان مترجما إلى الفرنسية ، فكان لا يعرف عنها شيئا ، حتى أنه وضع اسم كانت[1] فى قائمة الفلاسفة المحتقرين، ذوى الأحلام الطائشة ، ودعاة التدجيل فى العالم .

فى تلك الآونة لم تفقد المسألة القديمة الخاصة بعقوبة حكومة "الأعيان الجبناء فى لندن" — على حد قول نابليون — شيئا من حدتهما ، سوى أن مشروع الغزو أضحى خارجا عن المعقول، ونبذت الفكرة منذ أغسطس ، ثم حالت موقعة الطرف[2] الأغر بتاتاً دون العودة اليها . فكر نابليون فى مشروع غير جديد ، لمشابهته بعض سياسته الأولى وسياسة حكومة الأدارة أيضا : وذلك أنه عقد النية على إغلاق الموانئ الأوربية في وجه متاجر إنجلترا ومستعمراتها؛ ولم يذق الراحة لحظة أثناء إنفاذ ذلك المشروع الهائل ، لاتساع الدائرة التي يتناولها اتساعا لا يجد الباحث له مثيلا إلا فى تاريخ طغاة آسيا . ولم يعظم على ذهنه الثاقب ، وبصيرته النافذة ، ودقته الهندسية ، التى امتاز بها ، أن يتصور قارة بأسرها تخضع لأشارته ؛ فنصب أحد أخوته حاكما على نابلى ، والآخر على هولندا ، وخيل أليه أن

---

(١) كانت (Kant) أكبر فلاسفة العصور الحديثة . ولد سنة ١٧٢٤ فى مدينة كونجزبرج فى بروسيا الشرقية، ومات بها سنة ١٨٠٤ ،وكان أثناء حياته أستاذ الفلسفة فى جامعتها، وله مؤلفات كثيرة ومذهب خاص فى ذلك العلم الجليل .

(٢) انظر ص ١٣٥ ، ولا سيما الحاشية رقم (١) .

خضوع إسبانيا لن يقل عن خضوع لجهورن أوجنوا أو أنفرس . إنما كان هناك ثلاث ثغرات خطيرة ، في السياج الجمركى الذى أقامه ، واقعة في ألمانيا والروسيا والبرتغال ، لو تركت لتهدم مشروعه من أساسه . صادف أن ساحل ألمانيا الشمالى كان أهم تلك الثغرات ، ولابد أن يدخل ضمن النظام القارى ، رضيت بروسيا أم كرهت .

كانت الحكومة البروسية قد أرغمت بمعاهدة برسبورج على أن تقبل من نابليون منتخبية هانوفر ، التابعة للأسرة المالكة فى إنجلترا ، والتى كانت فى الواقع مطمح أنظار الساسة فى برلين . لكنهم حصلوا عليها مقابل قطع العلائق مع إنجلترا : إذ حاول البروسيون سدى أن يرفضوا تلك المنحة ، التى أيقنوا أن استلابها محال بدون أن يعرضوا نفوسهم لعقاب الأسطول البريطانى . لكن لما كان غرض نابليون الوحيد من سياسة الكرم الممزوج بالمخادعة أن يلقى الشقاق بين بروسيا وإنجلترا ، فأنه رفض بتاتاً أن يسترجع ما أعطى . ثم أعلنت الحرب ، ووقع ما كان فى الحسبان : إذحاصرت إنجلترا الموانئ البروسية ، واستولت على السفائن التابعة لبروسيا ، التى أصبح مركزها مركز اللص الذى اكره على صناعته . عندذلك بلغت روح الكراهة للفرنسيين أقصاها فى برلين ، وقال الناس من الحماقة أن تدخل بروسيا فى حرب مع إنجلترا حليفتها الطبيعية ، طوعا

لأمر أجنبي مستبد ، لاتزال جيوشه الكبيرة المظفرة معسكرة في جنوب ألمانيا . بالرغم مما حدث لم يحرك نابليون ساكناً لتهدئة المخاوف البروسية ، ولما ظهر أنه وعد ، في خلال مفاوضات عقيمة مع الحكومة الانجليزية ، بأرجاع هانوفر إلى إنجلترا ، طفحت كأس بروسيا ، واصدر فردريك وليام الأمر بتعبئة الجيوش البروسية .

كان نابليون على أتم استعداد للحرب : ذلك أنه بالرغم من امتلاء رسائله في صيف سنة ١٨٠٦ بمسائل إيطاليا ، مما يحمل على الاعتقاد بأنه كان أكثر اشتغالا بتثبيت أخيه يوسف في مملكته الجديدة عن مسائل الشمال ، فأن عينه كانت ساهرة ترقب البروسيين ، علماً منه بأن الحرب قد تنشب بينه وبينهم ، وأنها أن نشبت يكن جيش أسترلتز مستعداً لخوضها . لذلك لما دنت الساعة قضى نابليون على عدوه بخطة تعتبر من أرقى الخطط في فن الحرب : وتفصيل تلك الخطة أن الجيش البروسي ، الذي كان ينعم بشهرة لا يستحقها ، زحف إلى الأمام تحت إمرة قائده الهرم الدوق برنسويك ، متبعاً شمال غابة ثورنجيا (Thuringia) ، على أمل أن يقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي الزاحف من الرين ، أو يتجنب هجمته . كان من المحتمل أن ينتصر نابليون حتى ولو اتبع ذلك الطريق ، لأنه كان يفوق خصمه في العدد والمقدرة . إلا أن مثل ذلك الانتصار كان عادياً وغير حاسم ،

إذ يترتب عليه أن يرتد البروسيون إلى خطوط مواصلاتهم ، حيث يحاربون حرباً دفاعية ، حتى ينضم إليهم حلفاؤهم الروسيون . أراد نابليون نصراً مبيناً حاسما ، لايقتصر على هزيمة البروسيين ، بل يشمل قطع خط الرجعة عليهم ، ثم القضاء على جيشهم . لذلك جمع جيوشه عند نهر المين (Main) ، وتقدم بسرعة في اتجاه شمالى شرقى مخترقاً مسالك الغابة المكسوة بأشجار الصنوبر ، وسار نحو نهر السال (Saale) ، ومعه ١٦٠٠٠٠ مقاتل ، واثقاً من النجاح ، يحمل بين جنبيه احتقارا لخصم بليد غافل . كان الجو صحوا ، والأرض مكسوة بالكلأ الصالح للرعى ، فلم يضل الطريق جندى واحد فى ذلك الجيش العرمرم ، الذى سار ثلاثين ميلا فى اليوم . وفي مساء ١٢ أكتوبر وصل دافو [1] على رأس الجيش الثالث مدينة ناومبرج (Naumderg) ، ففصل بذلك بين ملك بروسيا وحاضرة مملكته ، واستولى أيضاً على مستودعات الذخائر البروسية . أفسدت تلك الأخبار المقلقة على برنسويك خطته ، واضطرته إلى اقتراح تقهقر عام نحو الشمال . لكن فات الوقت الذى كان يسمح بالافلات من العاصفة ، التى كانت تندفع من الجنوب . ثم انقض نابليون يوم ١٤ أكتوبر ، عن غير قصد

---

(١) لويس نيقولا دافو (Louis Nicolas Davoûst) سنة ١٧٧٠ ، وتبع نابليون فى المدرسة الحربية . وقد برز أثناء حروب الثورة ، ورافق نابليون إلى مصر ، وكان له الفضل فى الانتصار فى موقعة أبى قير البرية .

بقوات متفوقة في العدد ، على الجيوش البروسية الأمامية المرابطة عند ينا (Jena) ، تحت قيادة هوهنلوهه (Hohenlohe) ، فانتصر انتصاراً حاسما ؛ ويرجع الفضل الأكبر لدافو ، الذى برهن عند التقائه بالجيش البروسى الرئيسى عند آورشتات (Auerstadt) ، أن فى مقدور جزء صغير من جيش أسترلتز ، أن ينتصر بدون نابليون ، ورغم مواجهة عدو متفوق عنه فى المشاة والخيالة والمدفعية .

اصبحت بروسيا تحت قدم نابليون بعد تلك الضربة المزدوجة ، التى حدثت فى يوم واحد ، والتى أعقبها مطاردة عنيفة . كتب نابليون قبل الواقعة بيومين ، إلى فردريك وليام الثالث ملك بروسيا ، خطابا فى قالب غريب من البلاغة الراقية ، التي ما كان أقدر نابليون على صوغها في الظروف الخطيرة ، حذره من الهزيمة المحققة ، ونصح إليه بطلب الصلح قبل فوات الفرصة . أما وقد أريقت الدماء ، فقد رفض الفاتح أن يستمع لطلب الهدنة ، وعقد النية على إذلال البروسيين حتى لا يعارضوا أمره مرة أخرى . فحاصر جميع معاقلهم واستولى عليها ، وأقام مركز قيادة جيوشه فى عاصمتهم ، وفرض غرامة حربية باهظة على قوم كانوا من الأصل مرهقين بالضرائب . بتلك الخطة الحاسمة ، ,, انتقم نابليون لهزيمة رسباخ [1] (Rossbach) " .

(١) بلدة صغيرة فى سكسونيا واقعة على نهر الآلب ، وعندها هزم فردريك الأكبر ملك بروسيا القائد الفرنسى سوبيز (Soubise) سنة ١٧٥٧ ، أي فى مدة حكم لويس الخامس عشر فى فرنسا .

ثم أصدر في يوم ٢١ نوفمبر من برلين ، أول سلسلة المرسومات الشهيرة التي أعلنت أن الجزائر البريطانية في حالة حصر ، وحرمت المتاجرة أو المراسلة معها .

كان من المحتم ان يخوض نابليون غمار حرب أخرى قبل أن يجني ثمار تلك الانتصارات الباهرة . والسبب في ذلك أنه على الرغم من اضطرار بلوخر للتسليم عند لوبك (Lubeck)، بقي جزء صغير من الجيش البروسي لم يمسسه ضرر . فلو أن جيشاً بروسياً تقدم عن طريق بولندا ، لمعاونة ذلك الجيش الصغير ، لأمكن تعويض الهزيمة التي وقعت عند السال . لذلك زحف نابليون إلى ڤارسو (Warsaw) وحاول أن يشتبك في موقعة حاسمة في ديسمبر . لكن العدو نجا من الشباك التي طرحت على مدى واسع لاقتناصه ، وبرهنت الحركات الحربية التي قام بها نابليون عند بلدتي پولتسك (Pultsk) وجوليمن (Golymin) على أن الخطة السريعة المدهشة ، التي اتبعت في ألم لا يمكن تكرارها في وسط شتاء بولندا القارس ، بين الأوحال البولندية. قضى الأمبراطور شهر يناير في ڤارسو ، حيث هام بحب سيدة بولندية جميلة ، اسمها الكونتس ڤالفسكا (Walweska) التي أعقبت منه ولداً ، قدر له أن يصبح وزير الخارجية في فرنسا زمن الإمبراطورية الثانية . غير أن الانغماس في الملاهي لم يقلل من يقظته ،

ولما علم فى فبراير أن القائد الروسى بنجسن (B nnigsen) يزحف لرفع الحصار عن دانتزج ، أسرع شمالا لمهاجمته . وقد صارت الملحمة المضطربة الهمجية ، التى وقعت عند بروسيش - أيلاو (Prussich-Eylau) ، والثلج المتساقط يعمى الأبصار ، مثلا من أمثلة الملاحم التى تؤيد نظرية تلستوى [1] القائلة : إن مقدرة القائد لاتهم كثيراً فى الحرب ، وإن النصر لا يأتى إلا من وجود فرق كثيرة العدد يصعب تحديد أوضاعها . ولقد كان ذلك اليوم ، الذى اختلطت فيه الدماء بالثلج ، كأول حادثة محزنة في قصة لذيذة : إذ وقف نابليون لعدوه ، وحاز النصر بعد أن خسر ٢٥٠٠٠ رجل ، ولم يتقدم خطوة واحدة فى سبيل الصلح .

ثم أنفذ نابليون بخفة مدهشة سهاما لامعة ، كسهام البرق الخاطف بعضها تلو بعض ، فى جو ملبد بغيوم تلك الحرب غير الحاسمة ، فاخترق بها ظله القاتم ، رغم اختلال النظام فى جيشه لقلة المئونة ، ورغم تهديد السويديين لمؤخرته ، وقرب أعدائه النمساويين من جناحيه . وتفصيل

---

(١) تولستوى اسم لأسرة روسية عريقة نبغ أفراد كثيرون منها فى السياسة والحرب والأدب . والكونت ليو تلستوى (Leo Tolostoi) أحد أفرادها ، شاعر وروائى ومصلح اجتماعى ومتصوف دينى . تربى فى موسكو ودخل جامعة قازان ، وخدم سنة ١٨٥٥ فى حرب القرم المشهورة بين تركيا وانجلترا وفرنسا والروسيا . بعد ذلك انسحب من الجيش ، وكان قد أصبح شاعرا مجيدا وروائيا معروفا . وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « الحرب والسلم » ، وفيه يصف وصفا رائقا تاريخ حملة نابليون على الروسيا سنة ١٨١٢ ، ودفاع الروسيين عن بلادهم .

ما عمله نابليون ، أنه عقد مع السويديين هدنة ، وأعلن تمنياته السلمية للنمسا ، ثم فتح باب مفاوضات عقيمة مع خصميه الرئيسيين. ولكى يخلق المتاعب للقيصر فى الوقت نفسه ، عقد معاهدة مع شاه العجم ، ونصح بشدة سلطان تركيا للقيام من جديد في وجه عدوهما المشترك، متنبئاً أن الساعة قد اقتربت لنهضة الدولة العثمانية . ثم حرك بدهائه العاطفة القومية بين البولنديين إلى حد يكفى لخدمة أغراض فرنسا بدون إثارة مخاوف النمسا . عند ذلك حدث أن ارتكب بنجسن القائد الروسى غلطة حربية فاحشة ، خلصت نابليون من مركز معناه أن كل تاخير فى الحرب كان يضيف إلى مركزه الحرج خطراً جديداً. ذلك أن هناك رافداً صغيراً اسمه آل (Alle) ، يصب فى نهر پرجل (Pregel) ، الذى يصب فى البحر البلطى عند كونجزبرج (Konigsberg) ، وعند أحد منعطفات الآل تقع بلدة فريدلاند (Friedland) . في ذلك المركز الردىء ، حيث النهر وراءه ، وبجيش صغير جدا ، وقع بنجسن فى مخالب نابليون ؛ وكان نصر الفرنسيين مبينا لدرجة أن قيصر الروسيا ذا الملك المنيع اعتقد أن مملكه أمسى فى خطر جسيم .

فى ٨ يوليه سنة ١٨٠٧ عقد صلح تلست (Tilsit) ، وهو عبارة عن تسوية تدل على الحال غير العادية بين الدول المتعاقدة ، لا على

توافق مصالحها : من المعلوم أن تحالفا روسيا فرنسيا في عصرنا الحالى ليس إلا نتيجة طبيعية لما صارت إليه ألمانيا من التماسك والقوة [1] ، ولقد حصل ذلك التحالف فعلا ، وتقوى حديثا لمزاحمة فرنسا والروسيا مما الأمبراطورية البريطانية . لكن لما تقابل نابليون والقيصر على ظهر طوف في نهر النيمن (Niemen) ، كانت ألمانيا عبارة عن مجموعة من الحكومات الضعيفة المتطاحنة ، وكان يفصل الأطراف الشرقية من الروسيا عن المصانع الأنجليزية على الهوجلى ، أحد مصاب نهر الكنج بالهند ، مساحات شاسعة من الأرض الجرداء . لذلك كان الروس والأنجليز مرتبطين بمصالح تجارية ، خلافا لما تكوّن بينهما فى أواخر القرن التاسع عشر من العداء فى الشرق ، فكان معظم التجارة الروسية الخارجية مع إنجلترا ، وكان لا يوجد تاجر فى العاصمة الروسية إلا وتصبح تجارته عرضة للأذى لو نقض التحالف الروسى الأنجليزى .

غير أن القيصر إسكندر كان معتقدا خطأ ، أن لا فائدة من القيام بشيء بعد فريدلاند . وكان فضلا عن ذلك متألما من المعاونة الفاترة ، التى أدتها إليه حليفته إنجلترا أثناء الحرب السالفة . لذلك كان ميالا

---

(١) هذه العبارة صحيحة طبعا بخصوص ألمانيا قبل الحرب العظمى .

لقبول تحالف زينه له نابليون بكل ماعنده من تضليل ، وأزجاه له بمستقبل تفوق مزاياه بكثير حرمان طبقة الخاصة فى العاصمة الروسية من بعض ضروب الرفاهة الواردة من وراء البحار ؛ فانه ليس بين الأمانى التاريخية ، التى يتعلل بها الشعب الروسى المتفانى فى خدمة الكنيسة الأغريقية ، أمنية أعظم من استرداد الأمبراطورية البيزنطية من يد الأتراك . ولما لم يكن الأسكندر مجردا عن الميول التى استولت على بعض عظماء أسلافه ، فأنه لما اقترح نابليون أن تقسم تركيا غرض سيسعى التحالف بينه وبين القيصر لتحقيقه ، نبذ الاسكندر كل شكوكه ظهريا ، ووقع فى الأحبولة .

كانت هناك معاهدة عامة وأخرى خاصة : اعترف الأسكندر بمقتضى المعاهدة الأولى بالتغيرات التى أحدثها نابليون ، أو اقترح إجراءها فى مصور أوربا السياسى. وتفصيل ذلك أنه نزع من بروسيا مقاطعاتها الغربية والشرقية ، وا قام مملكة جديدة باسم وستفاليا (Westphalia) تحت إمرة أخيه جيروم من جهة ، ودوقية جديدة باسم ڤارسو تحت إمرة ملك سكسونيا من جهة أخرى . أما المعاهدة الخاصة ، فتضمنت أمورا أهم مما تقدم : إذ عينت السياسة التى تتبع فى المستقبل ، إذا رفضت إنجلترا توسط الروسيا بينها وبين نابليون ، أو رفضت

تركيا توسط فرنسا بينها وبين الروسيا . كان المتفق عليه ، إذا وقعت المسألة الأولى ، أن تنضم الروسيا للحصار القارى ، وتعاون فوق ذلك فرنسا على إرغام الدنمارك والسويد والبرتقال والنمسا على محاربة التجارة الأنجليزية . وكان المتفق عليه فى المسألة الثانية ، أن يساعد نابليون القيصر فى اقتسام الممتلكات التركية بينهما ماعدا القسطنطينية والروملى . ولقد كان ذلك الاستثناء كحاشية تفسيرية فى صحيفة أطماع نابليون ، لأنه لما طلب الاسكندر العاصمة العثمانية ، قابله نابليون بالرفض البات قائلا : ,, القسطنطينية ! ذلك محال . هذا معناه السيادة على العالم ،، .

كان نابليون أثناء المفاوضات فى أحسن حالاته النفسية ، وكيف لايكون كذلك ، وقد أعقب آلام الحرب ومخاوفها فى بولندا ، ولائم وحفلات وصلح باهر ، أعلن بعدها أنه يحب القيصر: إذ قال ,, إنه إمبراطور ظريف طيب القلب ، يحمل رأسا أكبر مما يعتقد الناس ،،. والحقيقة أن نابليون أحس بأنه حصل بالتحالف الروسى على الاتفاق والمعونة اللازمتين لتثبيت ملكه فى الغرب . أما ملكة بروسيا فقد أدخلت في قلبه السرور ، لاسيما وأنه رفض مطالبها رغم توسلاتها لديه . وقد كان من دواعى سروره أن أصبحت بروسيا تحت قدميه ، مقطعة الأوصال ، خاوية الخزائن ، مثقلة بجيش احتلال

فرنسى . وكان نابليون يرجو، بل ينتظر، أن تطأطئ إنجلترا الرأس أمام عظمة تلك الانتصارات ، وأن تقبل الشروط الروسية ، وتنزل عن فتوحها الاستعمارية ، وتصلح قوانينها البحرية . وفى تلك الحالة يصبح نابليون حرا فى توجيه أطماعه نحو الشرق ؛ أما إذا تمادى الأنجليز فى غيهم فمركزه يمكنه من "التسلط على البحار بالحرب على الأرض" .



الفصل السابع

خصائص الامبراطورية

بلغت إمبراطورية نابليون فى ذلك الظرف مبلغاً فاق أفكار وأمانى الشعب الفرنسى، مع أنها لم تكن وصلت إلى حدها الأقصى. قال تاليران يوماً للقيصر : « إن أقصى فتوح فرنسا هي نهر الرين وجبال الألب وجبال البرانس، أما ما زاد عنها فمن فتوح نابليون » . والدليل على صحة تلك العبارة أنه على الرغم من استمرار الانتصارات الحربية التى أخرست النقاد وأبقت روح التفانى والحماسة فى الجيش ، كان الامبراطور شاعراً بالحقيقة الماثلة أمامه ، وهى أن الأمة ملت الحرب، وأن كل انتصار جديد يلقى لدى الرأى العام حماسة أقل مما لقيه سابقه، وأن الامبراطورية العظيمة ترتكز على شخصية نابليون لا على رضا الأمة . وآية ذلك أنه لما وصلت أنباء مارنجو إلى باريس فاق الاستغراق في الفرح حد المعقول ، لكن بعد ذلك بست سنين لم تحرك أخبارنا أحداً . ولقد كتبت مدام جونو (Madame Junot)، التى عاشت بين الجنود ، أن الجمهور الفرنسى لم يكن ميالا لمحاربة

النمسا سنة ١٨٠٥، مع أنه رغب فى محاربة إنجلترا؛ وفى حين أن كل مشروعات الامبراطور في القارة الاوربية كان ينظر إليها بعين الملل أو الفزع، كان روح الاقدام والتوسع فيما وراء البحار، وهو سر نمو الأمبراطورية البريطانية، معدوما جملة من نفسية الشعب الفرنسى فى ذلك الوقت، حتى أن الحملة على سان دمنجو لم تكن فى نظر الناس وسيلة لمعاقبة مستعمرة متمردة فقط، بل لتأديب الجمهوريين الفرنسيين أيضا.

إذا ذكرنا ذلك التنافر بين المصلحة الوطنية الفرنسية، وبين إيحاءات أطماع نابليون، سهل علينا تعليل كثير من مميزات سياسته الأمبراطورية. فقد أدرك الامبراطور بذكائه وفطنته أنه إذا ألقى عبء المحافظة على ممتلكاته على عاتق فرنسا، أدى ذلك إلى تقويض دعائم عرشه. لذا كانت القاعدة الاساسية فى سياسة الأمبراطورية أن لا ترهق جيوب الشعب الفرنسى بقدر الأمكان، وأن تتحمل الدول الاجنبية التى تحت يده نفقات ما تتطلبه أطماعه. لاريب أن فرنسا تحملت بعض أعباء مالية فوق أعبائها السابقة، وأن دافع الضرائب بدأ يحس بمتاعب الحرب من طريق غير مباشر، لما ارتفعت أثمان النبيذ والملح والطباق. لكن مادامت الأمة طليقة من أى ضريبة مباشرة جديدة، ومن تدهور نقودها، فأن

آلام الحرب تظل بعيدة عن عقول البعيدين عن ميدان القتال. لذلك لم يفرض نابليون ضريبة على الدخل، ولم يسمح بأصدار ورق نقدى، وعوض أصحاب المصانع والمتاجر، الذين هم على وجه العموم أشد الطبقات تأثراً بمتاعب الحرب، بنظام يجعل أسواق هولندا وألمانيا وإيطاليا مفتوحة للتجارة الفرنسية، بدون تخفيض التعريفات الداخلية من أجل أتباع الأمبراطورية الجدد. نتج عن كل ماتقدم في السياسة المالية، أن لم يشعر بالأزمة الاقتصادية أغنى أعضاء الأمبراطورية وأعظمها مدنية، بل توابعها الفقيرة. أى أن فرنسا نجت، فى حين أن نصف أرض الأقاليم الأيطالية والألمانية والهولندية، التابعة للأمبراطورية، كانت مخصصة باستمرار للوازم الأمبراطورية، فضلا عن أن سكان تلك الأقاليم كان مفروضاً عليهم غرامة ذات ثلاث شعب: وهى المعونات الحربية، وإيواء الجنود الفرنسية المرابطة ببلادهم، وضرورة تكوين وإعداد فرق محلية للاندماج فى الجيش الأعظم.

حاول نابليون أن يوجد فى فرنسا شعوراً إمبراطوريا بوسائل تدل على امتزاج الرفعة والخسة فى نفسه، الأمر الذى نجده فى حديثه وأخلاقه. مثل ذلك أنه لام القائد مارمون عند انتهاء الحرب الأيطالية الأولى، لأهماله تجميع ثروة لنفسه، كما فعل مسينا، وكثير من الضباط الذين ظفروا بثروة طائلة من أسلاب وغنائم

إيطاليا . ثم كان من دواعى سروره أن يكون لقواده مغانم خاصة في حروبهم وفى الدول التى تدين له بفضل شجاعتهم . ولما توطدت دعائم الأمبراطورية ، طبق نابليون ذلك المبدأ بأوسع معانيه : فجعل من أقاليم البندقية و إستريا ودلماشيا ، التى انتزعها من النمسا ، ضيعات أنعم بها على بعض الدوقات والأمراء . وبذلك أصبح الركن المهدد في الأمبراطورية الفرنسية في يد مجموعة من الأسرات الحربية تحميها مقابل اتفاقات مالية ، كما كانت الحال أيام ملتزمى الحدود فى القرن الخامس الميلادى . ولقد كانت تلك الأموال الطائلة التى أغدقت على هؤلاء الحراس — لا من الخزينة الفرنسية بل من ريع أرض توابع الامبراطورية — تمنح أيضا كافة الأسرات الحربية، لتحبب الأمبراطورية إليهم . أما مصالح الجندى العادى فكان منظوراً إليها دون ذلك الاهتمام ، حتى أن أبطال ينا وفريدلاند دفعت لهم من مؤخر رواتبهم نقود انحط أربعون فى المائة من قيمتها .

لقد كان تكوين طبقة أعيان جديدة ، ذات ثروة طائلة وعقار ثابت ، خروج على مبدأ الثورة القائل بالمساواة الاجتماعية ، أكبر أهمية من نشان الليجيون دونور . ولكن نابليون دافع عن خطته بقوله إن الألقاب لم يصحبها أى امتياز سياسى ، وأن أحدا لا يستطيع أن يتهمه بالسعى لتكوين طبقة أعيان . والحقيقة أنه أراد أن يحوط

أسرته بدائرة من الأسرات ذات الجاه والثروة ، تحمى ضيعاتها امتيازات قانونية ، فتصبح كلها معا كجزائر بارزة فى وسط محيط المزارع الصغيرة التي يمتلكها الفلاحون .

أسس نابليون أيضاً معهدا فى الفترة التى نحن بصددها جريا وراء الغاية الأصلية ، وهى تقوية وحدة الأمبراطورية - ذلك المعهد هو الجامعة الفرنسية . من الطبيعي أن تلاقى فكرة تكوين هيئة واحدة ، تحوى كل فروع التعليم العام من معلم القرية إلى أستاذ الجامعة ، وتسير مسترشدة بمبادئ رئيسية معينة قائمة على سياسة صحيحة ، استحسانا عند الذين يؤمنون بمبدأ عدم وضع حد لتفهيم الناس واجب الحكومة . ثم كان نابليون لايعتقد فى الحياة البشرية التى لاتستند إلى نظام ثابت ، ولذا كان معجبا باعمال الهيئات الكاثوليكية فى غرس خلق الطاعة العمياء . كتب فى ١٥ فبراير سنة ١٨٠٥ فى ذلك الصدد قال : " لايمكن الثبات على حال سياسية ، إذا لم تدعمها مبادئ معينة يتبعها المعلمون . وطالما جهل الأطفال ما إذا كان واجبا عليهم أن يكونوا جمهوريين أو ملكيين ، كاثوليكيين أو ملحدين ، فان الحكومة تبقى عاجزة عن تكوين أمة " . لذلك قر رأيه على تربية نشء فرنسا على الصفات العسكرية الدينية ، التى تحترم الغير ، محتذيا في ذلك حذو الاسبارطيين واليسوعيين . ولذلك أيضا كان طراز

المدرسة الثانوية التى اختارها ، جامعاً بين حياة الأديرة والمعسكرات، ومعلموها من العزاب ، ونظامها عسكرى، وديانتها ذلك التعلم الذى يمثل فيه الامبراطور كأداة قوة الله وظله على الأرض . وكانت كل تلك المدارس الثانوية تابعة لمجلس الجامعة الفرنسية ، وهـذه تابعة للحكومة ، بخلاف إنجلترا حيث تعتمد الجامعات القديمة والمدارس على هبات محبوسة ، ولا تجد ذلك التضييق المتعب الذى يترتب على مراقبة الحكومة، فحافظت بفضل حرية نظمها على تقاليـد معتبرة محترمة . أما الجامعة الفرنسية التى أنشأها نابليون، فقد بقيت ثلاثة أجيال بعـد سقوط الأمبراطورية ، وُجهت فى أثنائها إليها الانتقادات التى تثيرها عادة كل محاولة غرضها احتكار التعليم ؛ إذ المساواة العقلية التامة بين أربعين مليوناً من الأوربيين يستحيل تحقيقها ، وهى مع ذلك غير مرغوب فيها . ولما كان نابليون لم يعمل شيئاً للمدارس الابتدائية ، فان سواد الأمة لم يتأثر بنظام الجامعة .

ورغم كل ذلك أصبح أثراً خالدا ذلك القسم من أعمال نابليون الذى تناول النظم القديمة فى فرنسا . هنا بنى نابليون على أساس الطبائع الفرنسية الموروثة ، وسار في الاتجاه الذى امتاز به تاريخ فرنسا ، وهو التفاف الأقاليم الفرنسـية حول مركز واحد ، وخضع لذلك النبوغ المنظم الذى امتازت به الشعوب اللاتينيـة .

أما الأمبراطورية نفسها فكانت نسيجا أقل متانة ، لانها مع تقويتها للعناصر الكامنة فى الشعور القومى ، كما حصل فى إيطاليا ، لم تخرج عن كونها نتيجة فجائية للحرب ، أو على حد عبارة نابليون „ نتيجة الانتصار على إنجلترا ،، . ثم أن حدودها كانت دائما فى تغيير وتعديل ، كأن مصوّر أوربا منظار أشكال ، تقلبها يد عابثه كثيرة الأهواء . فمثلا كانت هولندا أولا جمهورية تابعة ، وثانياً ملكية تابعة ، وأخيراً صارت ولاية تابعة لفرنسا ، تسام الخسف منذ أظهر الملك لويس (١) فتوراً فى تطبيق قوانين الحصار تماما . لاغرو أن مثل ذلك التقلب كان من شأنه أن يزعج عمال الأمبراطور فى البلدان الاجنبية ، والحكومة الرشيدة تعتمد دائما على التحقق من بقاء جزء على الأقل من أركانها وطيدا . لكن من أين يأتى ذلك التحقق وسياسة نابليون كالرمل المتقلب : فمن ذلك أنه قصد بدستور وستفاليا (٢) الذى كان أعظم الدساتير الألمانيــة ، أن يكون نموذجا لأقاليم تلك البلاد ، وكان حقا مفخرة شعوب هسى وبرنزويك وبروسيا ، الذين تكون

---

(١) لويس بونابرت ملك هولندا وأخو نابليون .

(٢) وستفاليا هى المملكة التى كونها نابليون من إمارة هسى — كاسل (Hesse-Cassel) وبعض الولايات التى انتزعها من بروسيا غرب نهر الألب ، بمقتضى معاهدة تلست ، وولى عليها أخاه جيروم .

منهم سكان تلك الدولة غير المتجانسة . ولكن ما الضمانات التي تكفل ألا يكون نصيب دستور وستفاليا ، كنصيب الدستور الأيطالى ، الذى انهار أمام أول عاصفة معارضة ؟ أو ألا يطلع النهار على الوستفاليين ، وقد صدر مرسوم إمبراطورى ، باعتبارهم فرنسيين ، وقد محيت مملكتهم الدستورية من عالم الوجود ، واعتبرت عاصمتهم كاسل (Cassel) ثالثة مدائن الأمبراطورية أو رابعتها ؟

كثيراً ما كان نابليون يسمى دولته "اتحادا دوليا" . فاذا اعتبرنا المعنى العلمى لتلك الكلمة ، وجب أن يكون هناك تقسيم للسيادة بين حكومة الاتحاد ، وبين حكومات الولايات ، أو الأقاليم المكون منها ذلك الاتحاد . وأن تكون حكومة الاتحاد ذات سيادة فى حدود أغراض معينة ، وتكون حكومات الأقاليم ذات سيادة فى حدود اغراض معينة أخرى . وهناك أيضاً تخصيص فى الواجبات وتوزيع في الحقوق ، وحدود معينة مضمونة ضد الاعتداء من أحد الجانبين : إذ أن روح الحكومة الاتحادية تقوم على أن هناك شعوباً تمتاز بصفات خاصة ، وتدين بتقاليد ومصالح معينة ، تتحد لمصلحة مشتركة ، وتتعاهد على مبادئ دقيقة قوامها التراضي المتبادل ، حتى يوفق بين المصالح الخاصة من جهة ، والمصلحة العامة من جهة أخرى . كما أنه ليس هناك مظهر يمتاز به أى اتحاد أكثر من التخصيص الدقيق فى الأعباء المالية . كانت الأمبراطورية

النابليونية خلوا من كل شيء من ذلك : فلم يكن فيها مشاطرة في السيادة، ولا تحديد للأعمال ، ولا تقسيم عادل في أعباء السلم والحرب . وبالاختصار لم يكن هناك دستور ؛ بل كانت الامبراطورية كدوائر ثلاث ذات مركز واحد ، أولها فرنسا والولايات الملحقة بها ، وثانيها التوابع الألمانية والايطالية التي كونها نابليون ، وهي وستفاليا وبرج ومملكة إيطاليا ؛ وثالثها الدول ذات الاستقلال الداخلي ، مثل باڤاريا وڤرتمبرج ، التي كان عليها بمقتضى شروط اتحاد الرين أن تمد الجيش بفرق من عندها. لايلام نابليون — أكثر مما تلام الامبراطورية البريطانية على النظام المفكك القائمة عليه حالا — من أجل عدم وجود وحدة تشريعية تربط تلك الممتلكات الواسعة . كلاهما ملوم إذا توخينا في المقارنة الحرف وتركنا المعنى . تفسير ذلك أن الأمبراطورية البريطانية تربطها المصلحة المشتركة والميول المتجانسة ؛ أما التماسك الذي كان يربط أختها الفرنسية ، فكان أكثر تفككا ، بقدر ماهو أكثر دقة في نظامه ، لارتكازه على إرادة مستبد ، وارتكانه على قوة جيش من جندية إجبارية مختلفة الأجناس .

كانت الوظائف الكبرى التي أوجدتها الأمبراطورية مفتوحة لأشخاص خارج طبقات الموظفين المدنيين في فرنسا من أهالي الأقاليم التي اندمجت في الأمبراطورية . فكان يفد على

باريس ، من البلجيك وهولندا وبيدمنت وجنوا وتسكانيا وروما؛ أعضاء لمجلس الشيوخ ، أو الغرفة التشريعية ، أو مجلس الدولة .
لم يغب عن نابليون أن تلك الفرص ستساعد على إيجاد روح إمبراطورى ، وستدرب رعاياه الجدد على قبول النظام الانشائى الشامل المتبع فى معالجة الأمور العامة ، والذى سار بمقتضاه الكفاة من أعضاء المجلس بفضل ما أظهره نابليون من خلق متين وفكر ثاقب . ومن البدهى أن الشعب إذا ريض على صحافة حرة ، وهيئة نيابية عاملة ، فليست الهيئات التنفيذية فى نظره المثل الأعلى فى المضى في سبيل المصلحة العامة ؛ لأنها عادة تكون عرضة لأن تضم إليها الطاعنين فى السن ، ولأن تسير على نهج واحد ممل .
وضع نابليون مشروعاً لمحاربة ذلك النقص الكامن الناتج عن تعين أعضاء مجلس الدولة ، فأمر بأن يحضر مناقشات المجلس عدد من الشبان ، ينتخبون من كل أجزاء الأمبراطورية من الأذكياء المتحمسين الأغنياء . وعقد الآمال على تكوين الهيئة التنفيذية الأمبراطورية فى المستقبل من هؤلاء "المستمعين" كما سماهم .
يلاحظ بين الدولتين النابليونية والرومانية أوجه شبه ، أن لم تكن دقيقه ، فهى أكبر ماوعاه التاريخ السياسى : فالحكم المطلق والمركزية والجزية وفرق الجنود الأجنبية وامتلاء كل من العاصمتين الأمبراطوريتين

بأسلاب العالم المتمدين — تلك هى أوجه الشبه الظاهرة المعروفة .
ولا جدال فى ذلك فقد كتب سويتونيوس[1] عن يوليوس قيصر
قال : «« إنه حل كل الجمعيات التى كانت مبنية على التقاليد القديمة »».
وروح الغيرة هذه التى أملت سياسة يوليوس قيصر ومن خلفه
من القياصرة نحو البلديات الحرة ، لهي ذات أثر ظاهر في قانون
الثورة الفرنسية وقانون نابليون - غير أن الولايات ، فى عهد
الأمبراطورية الرومانية الأولى ، كانت تتمتع بنصيب من الحرية
الداخلية ، لم تتمتع به أى ولاية فرنسية أوقطر تابع للأمبراطورية
فى عهد نابليون . ولا شك أن نظام الحكم الرومانى أيام دقلديانوس
ومن جاءوا بعده ، لم يبلغ فى الدقة وتوخى الاقتصاد والتأثير مابلغه
النظام الذى أقامه نابليون . يرى المؤرخ من جهة أخرى بعض أوجه
الشبه بين نظام إقامة ولايات على الحدود الرومانية ونظام الولايات
الكاتالونية والألبرية والبولندية ، التى أقيمت فى القرن التاسع عشر.
كما أن هناك تشابها غريباً من الوجهة الدينية ، رغم التقدم العظيم
فى الحياة الدينية في العالم . ذلك أن تقديس روما وأغسطس قيصر
يمكن مقارنته بالتعاليم الأمبراطورية ، التى صاغها نابليون ، قاضية
برفع مركز الأمبراطورية وشخص الجالس على أريكتها ، إلى مصاف

(١) سويتونيوس (Suetonius) كاتب روما في عصر الأباطرة دوميشيان وتراجان
اوهادريان ، وأهم كتبه «« تاريخ حياة الاثنى عشر قيصر الأول »».

الآلهة . وكما كانت الحكومات الرومانية تقدم القرابين الخاصة ، في معبد أورشليم ، احتراماً لديانة اليهود ، فأن نابليون اعتنق ديانة القرآن في مصر ، وأرجع الديانة الكاثوليكية إلى فرنسا . ولما رأى نفسه يوما في وسط مجمع من علماء الدين في هولندا ، أعلن أنه على وشك اعتناق المذهب البروتستنتي ، وأنه بذلك سيتبعه إلى معتنقه الجديد ثلاثون أوأربعون مليوناً من الناس . فالسياسة الدينية في كلتا الامبراطوريتين إذن كانت تمتاز قبل كل شيء بتسامح شامل نحو كل المعتقدات ، التي كانت لاتتضارب مع النظام الاجتماعي ، ولا تؤثر في الطاعة السياسية الواجبة للحكومة . لكن كان نظر نابليون في الأمور الدينية أبعد مدى من نظر القياصرة الوثنيين ، وأكثر تساهلا من القياصرة المسيحيين . والسبب في ذلك أن العواطف الدينية الأوربية أصبحت على جانب من الأهمية ، لايمكن معها أن تحتقر أو تهمل ، فضلا عما بها من الاختلافات الجامدة في إقامة شعائرها ، مما لايسمح بأي اضطهاد أو تفضيل مذهب على آخر . نهجت الامبراطورية الفرنسية على ذلك سياسة التأسيس والتنظيم ، بلا تحيز لفريق دون الآخر ، فوضعت الأنظمة للاسرائيلي والبروتستنتي والكاثوليكي ، واعتبرت أعضاء هذه المذاهب مواطنين متساويين في نظر الامبراطورية .

وعليهم حمل أعبائها على السواء . ثم لم يكن نابليون مبشرا دينيا مثل جوليان[1] أو شارلمان ، بل كان عاديا مثل بونتيوس بيلات[2]، وكانت الديانة فى نظره مصلا نافعاً ضد الاضطرابات الاجتماعية ، وكان غرضه الأصلى كسر شوكة الخلافات الدينية ، وتقليل حدة المناقشات اللاهوتية ، وإقامة حد يفصل بين الوظائف الدينية والدنيوية . أذ هاله التنافر الذى رآه عند زيارته هولندا للمرة الأولى ، فخاطب طائفة الجانسنت[3] قال : « إذا كنتم ضد البابا، فضموا صفوفكم إلى صفوف البروتستنت . أما إذا كنتم تعترفون بسلطته ، فواجب عليكم احترام قراراته » . ولا شك أنه لم يكن فى مقدور ثلة من صغار العلماء

(١) جوليان (Julian) أحد قياصرة الدولة الرومانية ، ومدة حكمه من ٣٦١ — ٣٦٣ ميلادية . ويلقب بالمرتد ، لأنه نشأ على الديانة المسيحية ثم أعلن عند اعتلائه العرش خروجه عليها .

(٢) بونتيوس بيلات (Pontius Pilate) هو الوالى الرومانى الخامس على (Judaea و Samaria) من ٢٦ — ٣٦ ميلادية . وكان معتقداً شخصياً ببراءة المسيح مما نسب إليه من التهم ، وحاول إنقاذه أثناء المحاكمة . لكنه أمر أخيراً بصلبه لأرضاء أهل أورشليم .

(٣) الجانسنست شعبة دينية تنتمى إلى كورنيليوس جانسن (Cornelius Jansen) الذى ولد فى هولندا سنة ١٥٨٥ ، ثم درس الإلهيات وصار أستاذاً فى جامعة لوفان (Louvain) سنة ١٦٣٠ . ثم عين أسقفاً على أيبر (Ypres) سنة ١٦٣٦ ، وبقى هناك حتى مات بالطاعون سنة ١٦٣٨ . وله مؤلف يقع فى أربعة أجزاء ، كان السبب فى حركة جدلية واسعة فى هولندا ، ذلك أن جانسن حاول فى مؤلفه أن يبرهن أن تعاليم المسيح بخصوص التبرك وحرية الارادة والقضاء والقدر مخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية الحديثة ولاسيما اليسوعيين . ولقد تبع مذهب جانسن كثير من أهالى أترخت ، وأطلق عليهم اسم (Oude Romsche) أى المتمذهبين بالكاثوليكية القديمة .

الهولنديين أن يقيدوا سلطة ممثل المسيح في الأرض. تلك الوظيفة الضرورية اختص بها وحده إمبراطور الفرنسيين ، الذى أصبح المصدر الأكبر للسلطة المدنية فى الدول المسيحية اللاتينية .

أحيت أيام معركة مارنجو في عقول الفرنسيين ذكريات أيام شارلمان الذى كان يردد نابليون اسمه كثيراً في مراسلاته . وقد روى كثير من الأنجليز ، الذين زاروا باريس أثناء عقد صلح أميان ، أن الاعتقاد العام كان يميل إلى احتمال اتخاذ القنصل الأول لنفسه لقب إمبراطور الغاليين . فأذا كان ذلك موضع حديث أهل باريس ومتجه شعورهم ، سهل علينا فهم التأثير الخفى الذى جعل من شارلمان — بطل الفرنكيين — مثلا أعلى لنابليون . ولقد ظهر كثير من دلائل ذلك الشعور على الأمبراطورية الفرنسية : ذلك أن الحاكم الذى يسيطر على فرنسا وبلجيكا وألمانيا والجهات الأسبانية المتاخمة لجبال البرانس، ويفتتح عهد إمبراطوريته باتفاق مع بابا روما ، ويولى نفسه ملكا على لمبارديا ، ويضع تاجها الحديدى على رأسه ، ويعطى إقطاعات حربية لتوابعه ، ويجمع مجلساً دينياً ، ويعتبر نفسه الرئيس المدنى للكنيسة الكاثوليكية فى غرب أوربا ، ويسير على رأس جيش جرار مختلف الأجناس من جميع أنحاء إمبراطوريته ليهاجم

الأمبراطورية المتبربرة الخارجة عن الدين التابعة لقيصر الروسيا[1]، أليس ذلك الحاكم شارلمان الجديد؟ اقترح المؤرخون لنابليون أشباها أخرى اقتبسوها من تاريخ القرون الوسطى، فاعتبره تين[2] مثل الكوندوتيرى[3] الأيطاليين. وقال ماسون[4]، الذى يذهب في الأعجاب بنابليون فوق كل حد، إن اليسوعيين والرهبان، الذين نصروا البابوية في القرون الوسطى، كانوا سلالة بونابرتيين طردوا، كما طرد دانتى[5] من فلورنسا، لميولهم الجبلينية[6].

(١) يقصد المؤلف هنا التهكم على نابليون لمحاربته الروسيا واعتقاده بأمكان هزيمتها، كما سيبين فى مكانه بالتفصيل فى الفصل التاسع.

(٢) هنري تين (Henri Taine) كاتب فرنسي نقادة. ولد سنة ١٨٢٨، وله مؤلفات عدة فى الأدب والتاريخ، وأهمها ما كتب عن الثورة الفرنسية.

(٣) الكوندوتيرى (Condottiere) كلمة إيطالية، معناها زعماء المرتزقة فى إيطاليا فى القرون الوسطى، كانوا يقومون بالخدمات الحربية لمن يدفع لهم أجراً مناسباً.

(٤) داوود ماسون (David Masson) كاتب اسكتلندى، ولد سنة ١٨٢٢ ومات فى آخر القرن.

(٥) دانتى (Dante) فخر الجنس الأيطالي. ولد سنة ١٢٦٥ ميلادية فى فلورنس، واشترك فى الحروب التى قامت بين أحزاب الجبلين والجويلف فى إيطاليا سنة ١٢٨٩ . ثم حول اهتمامه نحو السياسة وخدم الحزب الجبلينى. ثم نفى عن إيطاليا سنة ١٣٠٢، وبقى يتنقل بين البلاد عشرين سنة، ومات سنة ١٣٢١ .

ودانتى أول كاتب ظهر من غير رجال الكنيسة، وأول من كتب بالطليانية الحديثة لا باللاتينية، فكان بذلك من مؤسسى اللغة الطليانية الحديثة. وأشهر ما كتبه كتاب « الكوميديا الالهية » وموضوعه عبارة عن زيارة خيالية للجنة والجحيم وما بينهما، حادث فى أثنائها سكان تلك الاقاليم من رجال الأدب والعلم القدماء، وذكر كثيراً من شعراء الرومان والاغريق الوثنيين بالاعجاب، وإن لم تسمح له أفكاره الدينية بأن يكونوا من سواكن الجنة. وغرض كتابه الدفاع عن نظرية الامبراطورية

(٦) كان الجبلينيون فى إيطاليا فى القرون الوسطى حزباً يؤيد الامبراطورية. أما الجويلف فكانوا حزباً يؤيد سلطة البابوات.

لم تكن إمبراطورية نابليون رومانية ، ولا كأمبراطوريات القرون الوسطى ، بل كانت حديثة جداً من وجهة واحدة ، وهي أن نابليون كان بارعا فى الاقتصاد ، فلا ولنجتن ولا بت ، ولا جلادستون ، أمكنهم أن يبلغوا مبلغه فى تلك الميزة القائمة على التوفير الشديد المستمر بلا رحمة ، وهم — كما نعلم — أحرص ما يكون على الوقت والمال . لقد كان نابليون مقتصداً فى ملبسه ، معتدلا فى مأكله ومشربه ، بخيلا بوقته ، محتقراً لأنواع المسرات ، مدققا بكل ما أوتى من حرص على كل فرنك يصرف فى المسائل العامة . ويخيل إلينا أن التاريخ لا يذكر حكومة عظيمة ، غير إمبراطورية نابليون ، كانت سياستها تتعمد قطع كل المصروفات الكمالية ، ومحاسبة الموظفين باستمرار على كل صغير ، حتى تعذر على أى هيئة بلدية أن تقوم بأى تجربة من تلقاء نفسها لاستثمار مواردها . والدليل على صحة الحقيقة الأخيرة ، ما كتب نابليون عقب انقلاب بروميير مباشرة ، يرسم لأخيه لوسيان ، الذى كان إذ ذاك وزير الداخلية ، ما يجب اتباعه فى إدارة البلديات فى فرنسا . وقد ضرب نابليون فى تلك المذكرة ، المعتبرة من أعظم الأوراق الرسمية الخاصة بذلك العصر ، على النغمة التى لعبها هو باستمرار فى سياسته الداخلية : إذ وصف البلديات الفرنسية ، البالغة ستاً وثلاثين ألفاً ، بأنها وريثة النظام الأقطاعى فى

القرون الوسطى ، حررتها الثورة الفرنسية من نير النبلاء والقساوسة، وأصبحت بذلك ذات شخصية شرعية. ثم ذكر ما حل بها على يد رجال حكومة الأدارة، الذين أتلفوها وسلبوها، حتى صارت مثقلة بالديون غير قادرة على التصرف بحكمة في حرياتها ومواردها الجديدة . وختم مذكرته بأن المسألة المهمة فى حكومة فرنسا الداخلية ، هي السير بتلك الهيئات الواهنة السقيمة إلى حالة مالية ثابتة ؛ ورسم الطريق المؤدية إلى تحقيق ذلك ، وبيّن الخطوات التى يجب اتباعها بالتالى :
الخطوة الأولى أن تعمل قائمة بالستة والثلاثين ألف بلدية ، تقسم إلى تسعة أنواع ، حتى إذا ما أحصيت البلديات المستدينة ، وعرفت مقادير ديونها ، وجهت الحكومة كل مجهودها إلى انقاذها . الخطوة الثانية أن يزور حاكم المقاطعة البلديات الداخلة ضمن دائرة نفوذه مرتين فى السنة ليتفقد أحوالها ، وأن يقوم وكيله بتمثل ذلك أربع مرات فى السنة وإلا فصل من وظيفته . أما العمدة الذى لا يتعاون مع الحاكم فى العمل فيفصل في الحال ، والذى يمتاز عن أقرانه في خطة الاقتصاد يكافأ بزيارة باريس ، ويحظي بمقابلة القناصل[1]، ويقام له عمود تذكارى فى القرية أو المدينة التى نجح فى رفع الديون عنها . بذلك نال نابليون غرضه ، وأقام نظاماً اقتصادياً

(١) يراعى أن نابليون طبق ذلك النظام بعد أن أصبح قنصلا مباشرة ، أى أن النظام نفسه كان قائماً منذ أيام القنصلية .

دقيقاً طبقه بلا فارق على كل قرية ومدينة فى فرنسا بواسطة وزارة الداخلية ، ونجح به فى تخفيف ديون البلديات تخفيفا محسوسا . إلا أننا كلما ذكرنا تلك الأعمال المالية والانتصارات الحربية ، التى قامت بها الأمبراطورية ، التى عملت من أجلها كل تلك المجهودات ، وجب أن نذكر أيضا أن للمجن ظهراً ، وأننا إذا أتيح لنا زيارة أى مدينة من أمهات مدن فرنسا بين ١٨٠٨ و١٨١٥ ، لوجدنا المعلمين ورجال الدين يعيشون عيشة ضيق بمرتبات ضئيلة جداً ، ولرأينا المدارس خالية من التلاميذ ، والمستشفيات العمومية مفتقرة إلى المرضات والأدوات الطبية ، ولشاهدنا الصناعات كاسدة ، والحكومة تاركة الحبل على الغارب ، وقد فقدت كل عناية بالأصلاح . إذ ليس من العقل ولا من الحكمة فى المسائل المالية ، أن يسن قانونا غير قابل للتغيير ، يفرض مصاريف الحكومة في بلد من البلاد خمسة عشر سنتيما على كل ساكن. لا يمكننا الخوض في هذا الموضوع إلى أكثر من أن نقول أن المالية ، ككل الأعمال البشرية الأخرى ، تخسر كثيراً إذا طبقت عليها القواعد الآلية . إلا أن مثل تلك القواعد تشاهد دائما فى كل الأنظمة التى ترمى إلى ضرورة الاقتصاد فى الأعمال فى إمبراطورية مركزية عظيمة . ولما كان من المحتم أن تعتبر مثل تلك الحكومة الأفراد كالأرقام ، فلا غرابة أن تعتقد أن الحياة نفسها ليست إلا مسألة حسابية .

الفصل الثامن

الصدمة الأولى

تسبب عن محاولة نابليون تعميم الحصار القارى، أن اصطدم بأكبر قوتين فى المدنية الأوربية، ألا وهما الكنيسة الكاثوليكية والروح القومى. ذلك أنه كان من زمن بعيد يعتقد أن وجود الدولة البابوية مدعاة للخلل فى المسائل الأوروبية، على رغم اعتقاد الكاثوليك أن وجودها ضرورى، لضمان استقلال البابا في المسائل الدينية. أغضى نابليون عن ذلك الخلل أثناء الاتفاقات السياسية التى عملت سنة ١٧٩٧؛ وظل البابا الحاكم السياسى على إمارة ممتدة فى عرض إيطاليا من تراتشينا (Terracina) إلى ريمينى (Rimini) [1]، بعد أن قبل الاتفاقية، وأتى إلى باريس لتبريك حفلة التتويج الأمبراطورى. لقد كان خليقاً بأى سياسى رصين حازم أن يصبر على تلك الحالة مهما يعرض في سبيله من المتاعب السياسية، لأن قوة البابا لم تأت من الحكومة الضعيفة القائمة فى إمارته الصغيرة الفقيرة

---

(١) انظر مصور رقم ٣ إيطاليا .

فى إيطاليا، بل من مقدرته على إثارة ضمائر الكاثوليك فى أوربا قاطبة. غير أن نابليون لم يكن رصينا ولا حازما بعد أسترلتز، فما شعر بأنه يلعب دور شارلمان حتى أعلن أنه حاكم روما، وأن البابا تابع من توابع إمبراطوريته، معتقداً أن من السهل ومن السياسة صدع أمارة فقيرة فى الموارد المادية، بارعة فى المخاتلة. ثم وجد نابليون من امتناع البابا بيوس السابع عن الاشتراك في حرب هجومية ضد إنجلترا ذريعة كافية لالتهام إمارته. إلا أن إدماج روما رسميا فى نظام الامبراطورية الفرنسية — الذى أرجىء إلى مايو سنة ١٨٠٩ — كان سببا فى نشر البابا مرسوما بحرمان سالب الكنيسة من رحمتها. فأجاب نابليون على ذلك بفعلة وحشية شنيعة، حرض على تنفيذها. ثم أنكر اشتراكه فيها، ثم مالبث أن دافع عن ارتكابها: تلك الفعلة هى القبض تحت جنح الليل في قصر كويرينال (Quirinal) فى روما على الشيخ الوقور الذى اجترأ على مخالفة الامبراطور الفرنسى، وإرساله بسرعة مخفوراً بالجنود إلى سجن فى بلدة سافونا قرب جنوا.

من المهم هنا ذكر أن فكرة نابليون عن إمارة البابا كانت على طرفي نقيض مع الآراء والعقائد التى لقيت عطف الناس بعد سقوطه. ذلك أنه اعتبرها ولاية من ولايات الامبراطورية، يمكن حكمها بلا قلق ولا تعب من باريس، وأن البابوية نفسها لا تزيد على أنها أكبر

أسقفية ، وأن من السخف أن يكون معظم أعضاء جمعية الكرادلة من الأيطاليين ، حتى أنه اقترح أن يكون لكل دولة كاثوليكية كرادلة من بين أبنائها بنسبة عدد سكانها . ثم أعلن نابليون أن من اختصاصه دعوة المجالس الدينية ، ودفع مرتب البابا ، وتأييد الأعمال الدينية في الكنيسة الكاثوليكية بنفوذه السياسي . وعلى ذلك نقلت سجلات البلاط البابوى إلى باريس ، ودار على الألسنة احتمال تأسيس بطريركية ألمانية مستقلة عن روما . وفى الحقيقة لو طال أجل الأمبراطورية عشر سنوات أخرى ، لكان من المحتمل اضطرار العشائر الكاثوليكية فى أمريكا إلى قطع علاقاتها مع كنيسة غيرت معالمها ، وامتهنت إلى ذلك الحد .

وبينما كان النزاع بالغاً أشده ، وبينما كان كل قس كاثوليكى يصب جام لعناته على رأس نابليون ، بدأ هذا يستولى على أكبر الأمم كثلكة . ذلك أنه رأى ، لضرورة تعميم الحصار القارى ، أن يطبق النظام الفرنسى على شبه جزيرة أيبيريا ، ولا سيما مملكة البرتغال . فلم يكد يتم الصلح مع الروسيا، حتى بدأ يهيء الأسباب للسيطرة على بلاط لشبونة . ثم أردف بذلك المشروع مشروعا ، أكبر قدرا وأكثر خطرا ، نحو مملكة إسبانيا وحكومتها الفاسدة الممقوتة ، التى استكانت إلى أبعد مدى فى خدمة مصالح نابليون ، وأمدته بمعونات مالية وسفن

حربية ، وأعلنت الحرب على إنجلترا طوع أمره ، وشاهدت تخريب أسطولها عند الطرف الأغر ، من أجل حرب لم يكن لها فيها مصلحة حيوية . ولكن أثناء الحرب مع بروسيا ، ساد الاعتقاد فى مدريد أن نابليون على باب هزيمة منكرة ، فعزم جودوا (Godoy) محبوب الملكة ماريا لويزا ، والحاكم الحقيقى فى المملكة الأسبانية ، أن يهب فجأة لتخليص الدولة من قبضة نابليون . ولتنفيذ ذلك صدرت الأوامر بتعبئة الجيش الأسبانى ، لكن سرعان ما ألغيت تلك الأوامر عند وصول أبناء ينا . كان فى تلك الحادثة كفاية لتذكير نابليون بعدم استمرار سلام ثابت بينه وبين ملك الأسبان ، ولدفعه إلى سياسة زينها عقله فى سنة ١٨٠٥ ، تتلخص فى توجيه ضربة حاسمة إلى تلك الأسرة البوربونية العتيقة ، التى استراحت منها فرنسا وبارما ونابلى .

برهن نابليون أنه وما كيافللي (Machiavelli) ابنا وطن واحد بعزمه على القضاء على الملكية الأسبانية . ذلك أن التاريخ لا يذكر مؤامرة دبرت بترو وبراعة أكثر مما دبرت به تلك المؤامرة ، التى قصد بها حيرة وإرباك أمة تكره أى انقلاب عنيف ، مع نزع سلاحها ، وإلقاء الرعب فى قلوب أبنائها . وقد كانت أول خطوة خطاها نابليون أن طلب من حكومة نادمة فزعة ، فرقة حربية مكونة من خمسة عشر ألفا من صفوة الجنود ، للخدمة على الحدود الدنماركية . فلما

أجيب إلى طلبه ؛ وارسلت الجنود إلى سهل ولاية هلشتين (Holstein) التابعة للدنمارك ، عقد اتفاقا سريا عند فونتنبلو (Fontainebleau) قرب باريس ، فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٧ ، مع إسبانيا لغزو وتقسيم البرتغال . والأهمية الحقيقية لتلك الاتفاقية ، أنها مكنت نابليون من إرسال جنود فرنسية إلى إسبانيا . أما ما كان من أمر البرتغال ، فقد قبل القائم بالأمر ، تحت ضغط نابليون ، قفل الموانىء البرتغالية فى وجه التجارة الأنجليزية؛ فلو كان الحصار القارى هو الغرض الوحيد في رأس نابليون ، لكفى ذلك القبول لحماية البرتغال من أى هجوم . إلا أن نابليون كان يرجو حربا يخب فيها ، ووجد فى امتناع القائم بالأمر عن مصادرة المتاجر الأنجليزية جملة ذريعة كافية لغرضه[1] . ثم رسمت الخطة لغزو البرتغال بجيش مكون من قوات فرنسية وإسبانية ، حتى إذا ما استولى عليها الجيشان كوفىء جودوا بأمارة في جنوب البرتغال. ولا يفوتنا هنا أن جودوا كان في أشد حالات الرعب، منذ فضح حادثة المنشور العدائى الذى أذاعه فى وقت غير مناسب .

---

(١) كان القائم بالأمر هو الأمير يوحنا، وذلك بسبب اختلال القوى العقلية عند أمه الملكة ماريا الأولى . وكان على اتصال بالحكومة الأنجليزية ، وقبل إعلان الحرب على انجلترا وإقفال الموانىء البرتغالية فى وجه المتاجر الانجليزية بعلم الوزارة فى لندن . إلا أنه رفض مصادرة البضائع الأنجليزية جملة ، فكان ذلك سبب الخلاف بينه وبين نابليون.

ولذا كان مستعداً لعمل أى شيء لمصالحة نابليون . لو كان ذكاء ذلك الرجل مساوياً لجشعه ، لفكر أن ليس من طرق الأمبراطور أن يكافئ الشر بالخير ، وأن مكافاة الصديق الخائن بأمارة برتغالية أمل ضائع . ولقد قدر نابليون قيمة ذلك الأسبانى لما قال ,, أن ناظر السراى هذا ممقوت من كل الأمة ، وسأستعين بخبثه على فتح أبواب إسبانيا ،، .

في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٧ عبر جيش جونو المرابط فى مقاطعة الجيروند ، والبالغ عدده خمسا وعشرين ألفا ، الحدود الفرنسية الأسبانية عند نهر البيداسو (Bidassoa) فى طريقه إلى لشبونة . وكان المتفق عليه أن يعاونه عدد مساو من القوات الأسبانية تتقدم من ثلاث جهات . وضع نابليون ذلك الاتفاق لاخلاء إسبانيا من الجيوش فى وقت من مصلحته أن تكون المملكة خالية من وسائل الدفاع الكافية . وكانت الخطة أنه بينما يستحوذ جونو على الأسطول والأسرة المالكة والخزينة فى لشبونة ، تسير جنود فرنسية إلى أسبانيا بحجة معاونة الحملة المزدوجة ، وعندئذ يمكن إرهاب شارل الرابع ملك إسبانيا الضعيف إلى حد التنازل عن عرشه أو الهروب ، ويصبح من السهل القضاء على جودوا ، الذى تمقته الأمة ، والاستيلاء على المملكة بين استحسان الأهالى أو بموافقتهم على الأقل .

وصل جونو لشبونة في ٣٠ نوفمبر ، بعد زحف لقي في أثنائه صعوبات جمة ، فوجد أن الأسرة المالكة أبحرت على سفينة من سفن الأسطول الأنجليزى ، وأن الخزينة والأسطول البرتغاليين قد أفلتا من يده . ومع ذلك كانت القرائن تدل حتى تلك الآونة على أن مشروع نابليون قد نجح : فالبرتغال قد فتحت ، والحدود الأسبانية قد عبرت بواسطة خمسة جيوش فرنسية ، تحت ستار الاشتراك في الحملة البرتغالية لمساعدة حلفائهم الأسبان اسما ، ولتمهيد الطريق لاحتلال إسبانيا فعلا . وإذا خالج أى إسبانى شك في حقيقة مقصد الأمبراطور ، فأن كل الريب زالت في فبراير ومارس سنة ١٨٠٨ ، حينما استولى الفرنسيون على المعاقل الأسبانية المهمة ، وهي باميلونا (Pampeluna) وبرشلونة وسانسباستيان وفيجوراس (Figueras) ؛ وأيضاً حينما علم الأهالى أن مورا ، أحسن قواد الخيالة عند نابليون ، يزحف على مدريد بصفته رسول الأمبراطور.

عند ذلك جاء الظرف الذى كان يتحينه نابليون ، وهو أن شارل الرابع والملكة ماريا تريزا وجودوا هالهم التقدم الفرنسى ، فعزموا على الفرار ، وقرروا الرحيل الى أشبيلية ومنها إلى أمريكا ، للنجاة من صرامة الأمبراطور ، وغضب الأمة الخطير ، لازدياد مقتها القديم لحكمهم ولشعورها فجأة أنهم خائنون . ألا أن الهاربين أوقفوا عند

آرانجويز (Aranjuez) ، وهناك قامت ثورة كانت تنذر بأحباط كل مشروع نابليون ، لأن الثوار أجبروا الملك على التنازل عن عرشه لابنه فرديناند أمير أستورياس (Asturias) .

كان ملك أسبانيا الجديد محبوبا من أمته ، لا لفضيلة اتصف بها ، فأنه كان خلوا من الذكاء والجمال والأخلاق ، بل لأنه كان فى نظر الأمة عدواً لبلاط جلب العار لبلاده . كان إذن هيناً على فرديناند ، وهو ينعم بتلك المحبة العظيمة بين مواطنيه ، أن يلم شعث الأمة الأسبانية ضد الغزاة . ولكن من حسن حظ نابليون كان فرديناند جباناً . فبدلا من أن يعلن الحرب ألحف في طلب الصلح ، وبدلا من أن يتراجع إلى مقاطعة أندلوسيا ، لجمع أشتات الجيش الأسبانى ، ذهب إلى مدريد ، حيث عسكرت فرقة فرنسية تحت قيادة مورا . وهناك كتب خطاب تذلل لنابليون . رفض مورا ، الذى كان يعرف الجبان بمجرد رؤيته ، أن يعترف بلقب فرديناند ، فجزع الملك وخُيِّل له أن عرشه على شفا جرف ، وقَبِل أن يذهب إلى بلدة بايون في جنوب فرنسا لمقابلة الامبراطور ، على اعتقاد أن مقابلة شخصية مع نابليون لازمة للاعتراف به ملكا على إسبانيا . فما وصل إليها حتي علم أن نابليون قرر وجوب انتهاء حكم آل بوربون .

قال نابليون في سياق حديثه مع فرديناند : « إن بلادا كبلادكم

مملوءة بالرهبان يسهل إخضاعها . لا يخلو الأمر طبعا من بعض مظاهرات ، لكن الأسبانيين سيهدءون إذا علموا أنني أكفل لهم بقاء حدود بلادهم على ما هي عليه ، ودستورا فضفاضا مع المحافظة على عوائدهم الدينية والقومية ،، .

ولما ظهر أن فرديناند لم يرض بتلك الشروط،أصبح من الضروري مواجهته بأبيه وأمه . وكان بيد نابليون إقرار من شارل الرابع بأنه أرغم على التنازل عن العرش لابنه ، ولما كان الرجل لا يريد سوى أن يكون خلوا من الهموم والمتاعب ، رؤى أن يحمل هو وولده على التنازل عن العرش ، ثم يوقع هو على تنازل آخر . وهكذا مثلت رواية هزلية إسبانية أمام نابليون في ٢ مايو ، كان المثلون فيها أميراً حديث السن عبوساً ، وأبا غاضبا مسنا مصاباً بالروماتزم ، وأما سفيهة ذات لسان بذيء وخلق ذميم . وتفصيل ما حصل أن الملك المسن أمر ابنه بالتنازل ، فقوبل أمره بالرفض البات ، إلا أن كنانة نابليون كان فيها سهم أسد من أمر الأب : إذ وصلته أنباء بحدوث ثورة خطيرة ضد الفرنسيين في مدريد ، فاتهم الأمير الشاب بالتآمر وأخبره بأنه إن لم يتنازل عن العرش من ليلته ، فأنه سيعامل معاملة الخائن العاصي . فكتب فرديناند تنازلا مخافة أن يصيبه ما أصاب الدوق دانجيان . ولما كان والده قد وقع على معاهدة بينه وبين نابليون في

اليوم السابق، تنازل فيها عن كل حقوقه فى عرش إسبانيا للامبراطور، فأن الرواية المضحكة المبكية التى مثلت فى بايون ختمت على ما يرام. ثم قبل يوسف بونابرت عرش إسبانيا بعد أن رفضه لويس ، ولما خيِّر مورا بين البرتغال ونابلى ، دله بعد نظره على أن يختار الحكم فى إيطاليا .

اعترف نابليون فيما بعد أن السبب في خراب ملكه هو ما سماه بالقرحة الأسبانية . ولا غرابة فى ذلك ، فأنه أراد إخضاع بلاداً لم يصادف مثلها فى كل حياته المتنوعة الحوادث : فأيطاليا والنمسا وألمانيا لم تكن سوى اصطلاحات جغرافية ، مكونة من دول متعددة لاتسود فيها عاطفة مشتركة ، خاضعة لحكومات لم يكن لها في قلوب الناس أصل ولا قبول . أما إسبانيا فكانت أمة واحدة منفصلة عن الدول الأخرى انفصالا تاماً ، حتى أصبحت لا تتأثر بالحوادث التى تحرك الأفكار وتغيرها. الدليل على ذلك أن ريح الثورة الفرنسية لم تهب على ما وراء جبال البرانس ، ولم تصادف الحريات الدستورية وحقوق الانسان والتسامح الدينى ، وغيرها من العبارات التى حققتها الثورة الفرنسية ، هوى فى فؤاد الأسبانى الذى كان يرى فى نابليون عدو دينه ، وخاطف مليكه وغازى بلاده . وسرعان ما انتشرت فى أنحاء إسبانيا حركة فجائية كانت درسا لكل أوربا ؛ ولما سلمت الفرقة الفرنسية

بقيادة ديبون (Dupont) ، فى ٢٣ يونيه ، لجيش أسبانى عنـد بايلن (Baylen) ، أدرك نابليون خطأه فى تقدير صعوبات مشروعه ، وعلم أن إسبانيا لا تغزو بدستور حبر على ورق ، ولا يمكن السيطرة عليها بجيش مفكك العرى ، مكون من مجندين حديثين لم يدربوا بعد على أصول القتال .

كانت الثورة الأسبانية الحلقة الأولى من سلسلة طويلة من الحركات القومية ، التى قضت فى آخر الأمر على الأمبراطورية النابليونية القضاء الأخير . فى تلك الثورة كانت الصعوبات الهائلة الناتجة من طبيعة أرض إسبانيا : كجدب الهضبة الوسطى ، وتقاطع كل السلاسل الجبلية مع طريق الزحف من بايون إلى قادس ، وقلة الطرق ورداءتها ، ونظام الأنهار الذى كان عقبة لا عوناً فى المواصلات — كل تلك الصعوبات — جعلت إسبانيا صالحة جداً لحرب الكر والفر. وازداد سوء حظ نابليون فى ذلك النضال، الذى أثاره دون أن يحسب للعواقب حساباً ، إذ مهدت حرب شبه الجزيرة ميداناً لجيش إنجلترا البرى يبلى فيه أحسن البلاء . ذلك أن وزارة الدوق بورتلاند فى لندن قررت ، بدلا من صرف قوة إنجلترا الحربية فى حروب لا طائل تحتها

فى جزائر السكر (١) الموبوءة بالحميات ، أن يشترك الجيش البريطانى فى النضال القومى في إسبانيا والبرتغال . كان لذلك القرار شأن عظيم في مصير تلك الحرب : لأنه بينما نتج عن وجود جيش القائد الانجليزى ولزلى (Wellesley) شد أزر المقاومة الباسلة ، التى قام بها الأسبان على سوء نظامهم ، كان اشتباك الأسبان مع الفرنسيين ، فى جهات مبعثرة ، عونا كبيراً للحركات الحربية البريطانية . ولقد كان خليقاً بنابليون أن يعتبر من الضربة الأولى عند ڤميرو (Vimiero) ، فى ٢١ أغسطس سنة ١٨٠٨ ، حين بددت الجيوش الانجليزية القليلة العدد بقيادة ولزلى جيش جونو ، وطهرت البرتغال من الفرنسيين .

رفض نابليون أن يعتبر ، وظل طول مدة الحرب يستخف بصعوبات أرض إسبانيا ، ويصدر إلى قواده أوامر تنفيذها من ارابع المستحيلات . وربما قوى ثقته بحسن المستقبل تلك النتائج الباهرة ، التى انقضت بها الحرب القصيرة فى شتاء ١٨٠٨ المتداخلة فى ١٨٠٩ ، لما زحف بنفسه على رأس جيش عظيم مكون من ٢٠٠،٠٠٠ مقاتل ، وقضى على مقاومة الأسبانيين فى الشمال ، وأعاد أخاه يوسف ملكا فى مدريد ، ثم طارد السير جون مور (Sir John Moore) القائد الانجليزى على سهل ليون إلى سفح تلال غاليسيا . غير أنه لم يكن ثمة داع للتفاؤل

---

(١) جزائر السكر هى مجموعة فى جزائر الهند الغربية .

من وراء ذلك . ولو أن نابليون اتعظ من منذرات بايلن وڤميرو ، وحصر أعماله الحربية فى الأقاليم الواقعة شمال نهر الأيبرو ، لكان حكيماً . لكن الذى حصل هو أن تقدمه الجرىء اضطره لمواصلة حرب استنفدت زهرة جيوشه ، وأضعفت قبضته الحربية على روسيا ، وشجعت كل أعدائه فى أوربا .

ليس من شىء يبين خلق نابليون أكثر من أنه فتح باب المفاوضة مع الروسيا للمرة الثانية ، والمشروع الأسبانى يختمر فى رأسه ، لاقتسام تركيا ، ولتسيير حملة مزدوجة عن طريق نهر الفرات لمهاجمة الممتلكات الهندية التابعة لانجلترا . رأى نابليون إسبانيا بساحلها الطويل وموانيها الكثيرة مصدر قوة بحرية بعد إيطاليا فى القيمة ، فالاستيلاء عليها ، كالاستيلاء على إيطاليا ، يساعد على كسر شوكة إنجلترا ، على اعتبار أن قادس مفتاح كلكتا . غير أن الثورة الأسبانية غيرت وجه الأشياء وعكست دورة السياسة ، فزال مشروع اقتسام تركيا ، الذى راوغ به الروسيا والنمسا ، وزال معه المشروع الهندى ، من صفحة السياسة العملية ، وحل محلهما غرض نابليون الأصلى ، وهو تجديد تحالف تلست لتبقى النمسا ساكنة ، حتى يمكنه أن يصفى حسابه مع أهل إسبانيا المذبذبين . لذلك دُعِىَ القيصر إلى مؤتمر فى ألمانيا ، عقد خصيصاً لاظهار نابليون في دوره الجديد ، كحسيب الأمراء الألمان وحاميهم . وذهب إسكندر إلى إرفرت (Erfurt) ، فى

٢٨ سبتمبر سنة ١٨٠٨ . غير أن تحمسه الشديد نحو نابليون أضحى تشوبه بعض الريبة . ومع ذلك وقع على اتفاق سرى وعد فيه بالمساعدة في حالة ما إذا بدأت النمسا بامتشاق الحسام . بذلك سُدّت منافذ الخلاف بينهما مؤقتاً ، ولكن لم يخف على أى بصير أن حالة أوربا تغيرت عن أيام تلست ، وأن التحالف الفرنسى الروسى أخذت تبلى جدته ، وأنه بينما واجهت نابليون صعوبات جديدة ، ازدادت قوة القيصر بالاستيلاء على فنلندة وإمارتى الأفلاخ والبغدان على مصبات الدانوب .

كان لفشل نابليون في إسبانيا نتيجة حتمية ، وهى فتح باب النزاع القديم مع النمسا من جديد : ذلك أن موقف فرنسيس إمبراطور النمسا لم يقتصر على الدهشة لخلع آل بربون فى إسبانيا ، لأن بين الرءوس المتوجة رابطة ملكية ، كأنها نقابة يتأثر أعضاؤها بمصائب الملوك إخوانهم . هذا ، ومن يدرى إذا كان خلع الملوك ، الذى نجح فى تيورين وبرنزويك وكاسل وفلورنس ونابلى وبايون ، لا يطبق بنجاح لآخر مرة فى ڤينا ؟ وقد ظهر في المسألة الإسبانية ، أن أطماع نابليون لا يوقفها ضعف فريسته ، أو استعدادها لإجابة ما يريد . ثم إذا كان الإمبراطور لم يتردد فى خلع حليفه فى الحرب ، فلا مجال إذاً للظن أن يفلت المحايد من يده . وبالاختصار قد بدأ روح جديد يسرى

في النمسا ، ظهرت بوادره في تكوين قوات حربية أهلية، وضاعفت تكوينه أنباء الثورة الأسبانية . وفى ديسمبر سنة ١٨٠٨ قر الرأى على انتهاز اشتغال نابليون بالحرب فى إسبانيا للاستعداد من أجل إعلان الحرب فى الربيع التالى . كان أقطاب تلك السياسة ثلاثة وهم الأرشيدوق شارل ، والكونت ستاديون (Count Stadion) رئيس الوزارة ، وسفير حديث السن عرف نابليون فى باريس، وقُدّر له أن يلعب دوراً كبيراً فى القضاء عليه : ذلك الشاب هومترنيخ (Metternich) ، الذى صار اسمه رمزاً للقوة الرجعية أكثر من جيل من الزمان ، مع أن السفينة السياسية التى ركب متنها أُنزلت لأول مرة فى وقت المد الذى أحدثته الحركات القومية فى بحر السياسة.

في تلك السنة بلغ نابليون التاسعة والثلاثين من عمره . نعم إنه أضحى بدينا ، إلا أن صحته كانت جيدة ، ولم يعتور نشاطه وتحمله المصاعب شيء . يبرهن ذلك أنه عبر أثناء تعقبه السير جون مورجبال الجوادارما (Guadarrama) ، على رأس جيشه سيراً على القدم ، في وسط عاصفة ثلجية أعمت الأبصار ، وقطع ٢١٤ ميلا فى اثنى عشر يوما فى جو ديسمبر ، متجشما الجليد والثلج ، وعاد من ڤلادوليد (بلد الوليد) الى باريس فى أقل من ستة أيام ، فكان فى تلك المرة لا يقل فى المهارة عن المرات الكثيرة التى قام فيها بأسفار كلها عقبات بسرعة الطير . ثم أن ثقته بالمستقبل كانت عالية كعلوها أيام الحملة المصرية . وكان جيشه

يبلغ ٨٠٠٫٠٠٠ مقاتل حسب الأحصاءات الرسمية . وبالرغم من اضطرار ٣٠٠٫٠٠٠ للبقاء في إسبانيا ، فأن عوامل ثلاثة جعلته يشعر أن ليس ثمة ما يخيفه من النمسويين ، وهي «جنوده الأجباريون ، واسمه الرنان ، وأحذيته الطويلة » ، وهذه الأخيرة على الخصوص هى التى أمنته .

يرجع السبب فى عدم تحول حرب سنة ١٨٠٩ إلى حرب عامة لتحرير ألمانيا إلى السرعة المدهشة التى انقض بها نابليون على النمساويين فى الوادى الأوسط للدانوب ، والتى طاردهم بها إلى ڤينا قبل أن تشتعل نار الثورة فى الشمال . ذلك أنه رأى بثاقب نظره ، وبقدرته على توجيه كل الهمة إلى جلائل الأمور ، أن العمود الفقرى للمقاومة فى وسط أوربا هو الجيش النمسوى ، فأذا كسر ذلك الجيش بحيث لا تقوم له قائمة بعدها ، شلت الوطنية الألمانية والتيرولية . إلا أن الحرب كادت في أول أمرها تعود بالخسران ، من جراء خطط برتييه (Berthier) ، الذى كان ماهراً كأركان حرب لا كقائد . ذلك أن نابليون أمر بتجميع كل فرق الجيش حول راتزبون (Ratisbon) ، وأضاف تعليمات تقضى بأنه فى حالة عبور النمسويين نهر الأن (Inn) قبل ١٥ إبريل ، يجب على الجيش الفرنسى أن يتراجع إلى نهر لخ (Lech) . نفذ الجزء الأول من التعليمات تقريباً ، وزحفت فرقة داڤو (Davoûst) إلى

براتزبون فى ١٦ إبريل ، أى فى اليوم الذى نجح فيه الأرشيدوق شارل فى عبور نهر الأيسار (Isar) ، على رأس ١٢٦٫٠٠٠ مقاتل . بلغ الخطر بمركز الفرنسيين أشده ، لأن داڤو كان فى راتزبون ، وبرتييه فى أجزبرج على مسافة ٧٦ ميلا غربا ، وكانت هناك بين جناحى الجيش فرقة باڤارية ضعيفة معسكرة عند آبنسبرج (Abensberg) . ولو كان الأرشيدوق من مهرة القواد لهزم فرقة داڤو المكونة من ٦٠٫٠٠٠ مقاتل قبل أن تصل إليه الأمداد ، ولتقدم بعد ذلك وقضى على فكرة برتييه . لكن بينما الأرشيدوق فى غفلته ، إذا بنابليون ينهب الأرض « بأحذيته الطويلة » نحو ميدان القتال ؛ لأنه سمع بأعلان الحرب فى الساعة الثامنة من مساء ١٢ إبريل وهو فى باريس ، وعند الساعة الرابعة صباحا من اليوم السابع عشر كان فى دوناوڤورث (Donauworth) يهيمن على أعمال الميدان . ولقد حازت الحركات الحربية التى قام بها تلك المرة إعجاب معظم النقاد الحربيين ، واعتبرها نابليون أحسن أعماله الحربية ، على الرغم مما كان ينقصها من دقة فى بعض تفاصيلها . ذلك أنه جمع أشتات جيشه بأصدار الأمر إلى داڤو بالتراجع مع الجناح الأيسر ، وإلى مسينا بالتقدم مع الجناح الأيمن . ثم زحف لكسر عدوه فرقة فرقة ، فضرب الجناح الأيمن النمسوى ضربة ألقت وحداته صرعى عند آبنسبرج . ثم أجبر الجناح الأيسر إلى التقهقر بلا نظام

حتى عبر نهر الأيسار عند لاندشوت (Landslut) ، وأخيراً سارع نابليون نفسه لنجدة داقو ، الذى كان يحارب القوات الرئيسية ، التى كانت تحت إمرة الأرشيدوق عند إجمهل (Eckmuhl) ، وبذلك تغيرت مواضع كفتى الميزان . فارتد النمساويون إلى راتزبون ، واشتبكوا فى موقعة يوم ٢٧ ابريل ، ثم انسحبوا بانتظام عابرين الدانوب ، وقد خسروا خمسين ألف مقاتل في تلك الحرب ، التى دامت خمسة أيام ، حيث كانت الغلبة لقوة الابتكار السريع على التردد فى ساحة القتال .

ثم علم نابليون فى إبريل ، أن الأرشيدوق بعد عبور الأيسار انحرف شمالا عن طريق التقدم المستقيمة ، ,, فاستوى قائما ، وتألقت عيناه ، وظهرت على نظرته وصوته وإشارته نشوة الفرح ،، . ثم قال : ,, الا ن وقعوا فى يدى ! لقد ضاع جيشهم ! سنكون فى ڤينا في ظرف شهر ،، .

كان نابليون معتدلا فى آماله : إذ لم تمض ثلاثة أسابيع ، إلا وهو نزيل قصر شونبرون (Schònbrunn) بالعاصمة النمساوية .

مثل الفصل الثانى من تلك الرواية على ضفاف الدانوب السريع الجريان ، على بعد ثلاثة أميال من ڤينا ، حيث تشطر النهر شطرين جزيرة لوباو (Lobau) الكبيرة المكسوة بالغابات . قال نابليون فيما بعد يصف ما كان أمامه من الأعمال الحربية فى تلك المرة : ,, إن عبور نهر كالدانوب أمام عدو يعرف المكان جيداً ، ويملك عطف

السكان لهو أكثر الأعمال الحربية خطراً ». ولما كانت النمسا تجنى كثيراً وفرنسا تخسر كثيرا بسبب الأبطاء في العبور، تحتمت محاولة تلك العملية الصعبة. وفى ليل ٢٠ مايو عبرت فرقة القائد مسينا، وفرقة الحرس والخيالة الخفيفة تحت إمرة القائد لان، النهر من الجزيرة إلى الضفة الشمالية، حيث قوبلوا مقابلة كافية لالحاق الوهن باى جيوش عادية: إذ لبث جيش فرنسى مكون من ٣٦٠٠٠ طول النهار حول قريتى أسبرن (Aspern) وإسنج (Essling)، يحارب قوات متفوقة عليه، سدت فى وجهه السبل، وقطعت عنه الامداد، بتهديم الجسور. وفى ليلة ٢٢ أرسلت أمداد، ولكنها لم تك من القوة بحيث تغير أوضاع كفتى الميزان، وبعد انقضاء يوم آخر، في حرب سجال حمى وطيسها، سحب نابليون جيوشه إلى الجزيرة، وخسر فى وسط معمعة أسبرن - إسلنج القائد لان، الذى كان أشجع الشجعان. عند ذلك أدركت أوربا أن قهر نابليون ليس عليها بمستحيل.

بعد ذلك بثلاثة أسابيع، وقعت الواقعة التى ختمت بها الحرب، وهي المعروفة للتاريخ بواقعة ڤاجرام (Wagram). عبر نابليون نهر الدانوب فى ليلة ٥ يوليو بجيش عرمرم يزيد على عدوه بنسبة عشرين فى المائة. وفى اليوم التالى تأهب للقتال. برهنت تلك الواقعة أن الشجاعة النمسوية ليست حادثا عرضيا، وأن التفوق الفرنسى ليس

من ضرورات النظام الطبيعي . ذلك أنه بعد قتال عنيف ، بدأ فى فجر يوم من أيام يوليو ، واستمر حتى بعد الظهر ، انسحب الأرشيدوق شارل من الميدان مغلوباً ، لكنه غير مفلول القوى ، وبدون أن يترك أسيراً أو علما في يد العدو . فكان المهزوم هو الأرشيدوق شارل حقا لا الجندى النمساوى ، وكان المنتصر رجال المدفعية الفرنسية لا مشاة الجيش الأعظم ، الذى لم يعد بعد الأداة الفاخرة ، كما كان في أيامه الأولى . وسبب ذلك أن زهرة الجيش كانت تهلك فى أسبانيا . هذا وقد برهن الذعر الشائن ، الذى استولى على الجيوش أصيل الواقعة ، لما ذاع خبر اقتراب جيش الأرشيدوق جون ، أن هناك بونا شاسعاً بين المجندين الأحداث الذين حاربوا فى ڤاجرام وبين الجنود المدربين الذين حاربوا فى أركولا وأسترلتز .

عقدت هدنة بين الأمبراطورين مداها أربعة شهور ، ظل فى أثنائها كلا الفريقين يتتبع باهتمام المنازعات القائمة فى الجهات الأخرى من أوربا ، أملا فى ابتسام الحظ مرة . وكان الخطران الرئيسيان أمام نابليون أن تعلن بروسيا الحرب ، أو يقر رأى القيصر ، الذى كانت مساعدته الحربية من أضعف المساعدات ، على نقض التحالف مع فرنسا . وكان هناك خطر آخر بعيد الاحتمال ، وهو حصول هزيمة منكرة في إسبانيا ، أو نزول الأنجليز على شاطيء البحر البلطى ، فى وقت ما كان أنسبه لاثارة العناصر الثورية ، التى تحتشد فى شمال ألمانيا.

لكن كل تلك الغيوم انقشعت بانقضاء الصيف وحلول الخريف، فالبروسيون لم يعلنوا الحرب، وظل التحالف الروسى قائماً مؤقتاً، على أن تأخذ الروسيا جزءاً من غاليسيا من النمساويين. ثم وردت أنباء من إسبانيا أُعتبرت أعظم ما تكون في صالح الفرنسيين، وهي أن ولزلى تقهقر إلى البرتغال بعد موقعة تالافيرا (Talavera)، وأن حملة إنجليزية، وجهتها الاسمية مهاجمة أنفرس، سارت إلى حيث تنفذ قواها في مستنقعات والشرين (Walcheren) الموبوءة بالحميات، فلم تنل أربا، سوى أن نابليون اتخذ وجودها ذريعة لتجنيد جيوش جديدة. ثم قامت في شمال ألمانيا ثلاث ثورات طائشة لا اتصال بينها، أُخمدت الواحدة تلو الاخرى. أمام كل ذلك، ونظراً لتفشى الامراض في الجيش النمساوى، جاء فرنسيس يطلب الصلح صاغراً.

ذكر نابليون علنا في أثناء المفاوضات أن الاجدر بفرنسيس أن يتنازل عن العرش، إذ قال للأمير لشتنشتين (Lichtenstein) المفوض النمسوى: «أريد أن أتفق مع رجل أعتمد على اعترافه بالجميل، فلا يعود إلى مناجزتى مدة حياتى. كثيرا ما برهنت السباع والفيلة على قوة العاطفة وتأثيرها في القلب، لكن سيدك لا تحركه العواطف».

لاغرو أن إمبراطور النمسا، الذى كان عدوه نزيل قصره، عجز عن أن يحذو حذو العجماوات، التى تعترف بالجميل. لذلك سلبه

نابليون إقليما يبلغ سكانه أربعة ملايين ، بما فيه ميناء تريست العامرة والساحل الشمالي للبحر الأدرياتي . هذا فضلا عن الأهانة التي لحقت بالنمسا في تلك المعاهدة ، التي عقدت في فينا نفسها ، في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٩ ، من جراء ترك التيروليين الشجعان ، الذين بذلوا كل مرتخص وغال في سبيل الرجوع إلى حظيرة الوطن ، لانتقام نابليون .

حدث بعد الصلح بمدة يسيرة ، أن عقد أشهر زواج سياسي يذكره التاريخ الحديث : ذلك أن نابليون طلق جوزفين بعد رجوعه إلى باريس ، وطلب يد أرشيدوقة نمساوية ، ونال موافقتها . كان محالا أن يحوله عن السبب الأعلى الذي من أجله أقدم على ذلك ، دموع وتوسلات امرأة جميلة ، أحبها مرة ملء قلبه ، وبقي يشعر نحوها بعاطفة الحب . والسبب في ذلك أن جوزفين لم تعقب منه نسلا ، ولما كانت الأمبراطورية في حاجة إلى وارث للعرش ، قرر مجلس الشيوخ الخاضع لكل أوامر الأمبراطور ، انحلال عقد الزواج . ثم أفتى مجلس الأساقفة في باريس بجراءة أعظم ، أن الزواج لم يحصل أبدا .

كان اختيار بديل صالح موضع أخذ ورد ردحا من الزمن ؛ وفتحت مفاوضات عدة في وقت واحد مع بلاطي ڤينا وسان بطرسبورج . وأخيرا قرر نابليون التزوج من ماري لويز النمساوية ، لأنها كانت في سن الزواج من جهة ، ولأنها كانت كاثوليكية من جهة

أخرى ، ولأنه أحس بعدم رضاء البلاط الروسى به ، واعتقد أنهم سيرفضونه من جهة ثالثة . ولما قال لاكويه (Lacuée) وزير الحربية، وكان معارضا في الزواج النمساوى ، إن النمسا لم تعد دولة عظيمة ، رد عليه نابليون : «« إذن يخيل إلى أنك لم تحضر واقعة فاجرام »». من الطبيعى أن يستشهد نابليون بحوادث الحرب الماضية ، ليحمل على الاعتقاد أن التحالف النمساوى سيكون دعامة قوية يستند إليها هيكل الأمبراطورية الفرنسية المختل . هكذا تزوج القورشيقى الصغير من أعرق أسرة في أوروبا . ولقد تلبدت بسبب ذلك الزواج غيوم من الشر : فأن المرأة لم تكن بالمخلصة ، وانقلبت دولتها عدوة ، وعاش وليد ذلك الزواج الهابسبورجى البونابرتى عيشة رديئة تعسة ، بين أعداء اسم أبيه .



الفصل التاسع

انهيار البناء

يقع سقوط نابليون في ثلاث روايات متصلة الحوادث وهي موسكو وليپزج وفونتنبلو ، يتلوها فصل ختامى فى واترلو . وقد امتازت المجهودات التى بذلت ، والضحايا التي ذهبت فى ذلك النضال الأخير ، بالجسامة والتهور إلى مدى جعل الخلف يعتقد بزيادة مابذل عن طاقة ذلك العصر المخضب بالدماء . فالدول التى اشتركت في الحرب اشتراكا فعلياً كانت أكثر عدداً ، والجيوش أكثر نفرا ، والخسائر التى لحقت المتحاربين من جراء القتال ونفاد المؤن أكثر هولا ، مما رأته حرب سابقة . بلغ عدد القتلى فى واقعة بورودينو (Borodino) وحدها ثمانين ألفاً ، وعدد جرحى ليپزج مائة وعشرين ألفا . غير أن نابليون على الرغم من اضطراره إلى الارتداد وراء نهر الرين بخسارة ما يقرب من مليون رجل ، لم يذعن لفكرة اعتزال الملك إلا بعد الاشتباك فيما يقرب من عشرين واقعة . والسبب أن ذلك كله حدث فى عصر لا عهد له بالتلغراف ، أو التليفون ، أو الطرق

الحديدية، أو بأى تأثير جدى من الصحافة فى عقول الجمهور. فكانت الأمم لا تثار بسرعة، وكانت الأفكار بطيئة التغيير، والناس أصعب قياداً عند إثارتهم وتنظيمهم للأغراض الحربية. إلا أن ذلك العصر، الذى كانت الأسفار فيه بطيئة، والمواصلات رديئة، رأى أوربا جمعاء تسلس قيادها طوعا لتأثير قوة إرادة واحدة، سيرت الفلاحين الفرنسيين إلى موسكو، وأتت بفرق القوازق والكالموك الروسية إلى باريس للالتحام فى نضال سداه ولحمته مصالح وأطماع الأمم العشرة الكبرى فى الدنيا القديمة.

لا ريب أن مغزى تلك المأساة الثلاثية الهائلة انتصار الروح القومى على السيطرة الأجنبية، تلك السيطرة التى تدرب وتشجع بلا قصد الوسيلة التى تقضى عليها. ففى إسبانيا والروسيا وإنجلترا، وفى بروسيا أخيرا، اصطدم نابليون بقوة لم تخطر نتائجها على باله، وتمتاز، كما برهنت الحوادث، بالقدرة على التجدد والرجوع دائماً لسيرتها الأولى. نعم كان نابليون يعرف مظاهرات الشوارع، وكيف يمكن تفريق المتظاهرين باطلاق حفنة من البارود، كما حصل فى باريس[1] وپاڤيا[2]

(١) حادثة باريس تقدم ذكرها. انظر ص ٢٥ — ٢٦.

(٢) تفصيل حادثة پاڤيا أن نابليون لما دخل ميلان ظافراً فى مايو سنة ١٧٩٦، إبان الحرب الأيطالية الأولى، جمع كثيراً من النفائس، بناء على تعليمات حكومة الادارة، وأخذ جميع مواشى فلاحى لمبارديا لتموين الجيش. فثار الفلاحون، وهاجموا پاڤيا، وقتلوا كل من لقوا من الجنود الفرنسية. أخمدت تلك الثورة بشدة باطلاق البارود على الثوار، ثم استبيحت پاڤيا فنهبها الجنود.

والقاهرة [1] . إلا أنه أخطأ لما اعتبر كل الحركات القومية من ذلك النوع لا قيمة لها ، ولا شجاعة فيها ، وسهل إخمادها بشيء من الصلابة الحربية . فحسب مثلا أن ليس من خطر في إسبانيا إلا الجيش الانجليزي ، وأنه يكفي لاخماد ثورة الكالابريين في جنوب إيطاليا إضرام النار في بعض المباني ، وإعدام بعض الأفراد رميا بالرصاص . ولقد قال في شيء من الاستخفاف في أحدى رسائله : « يجب علينا أن نميت الروح القومي في ألمانيا » ، كأن من الممكن تدريب أمة عظيمة على نسيان مدنيتها القديمة بسهولة ، كما يدرب الجندي الجديد في « التابور » على ترك عادة السير المسترخي البطيء . قد يكون السبب في وقوع نابليون في ذلك الخطأ طول وجوده في مركز الآمر الناهي ، لأنه ليس من شيء أكثر خطراً على الذكاء من الاسترسال في الأمر . ولا شك أن الانفراد بالحكم ، وما يترتب عليه من ثقيل الأعمال ، أضر بعقل نابليون ، وآذاه في أخلاقه ، إذ أصبح أقل انصاتا للنصيحة ، وأسرع غضبا

---

(١) بعد واقعة أبي قير البحرية ، زعم الفرنسيون أنهم سيعمرون في مصر طويلا . ولكنهم أتوا بأعمال استفزت المصريين ، كهدم بعض الأماكن من أجل تنظيم الشوارع ، والتشديد في جباية الضرائب بنظام أوربي ، وسوء معاملة نابليون لبعض العلماء الذين أبوا وضع الشارة الفرنسية على صدورهم . وفوق ذلك تواترت الاشاعات بأن السلطان يعد جيشا عظيما لطرد الفرنسيين ، فكان كل ذلك سبباً لقيام ثورة في القاهرة . لكن سرعان ما أخمدها نابليون : فوضع المدافع على ربي المقطم ، وهدد مراكز الثورة في الأزهر وجهة الحسينية ، ودخلت الجنود الفرنسية الأزهر بخيلها فانتهكوا حرمته ، وما زال نابليون بالمصريين حتى طلبوا منه الأمان .



نابليون بونابرت أثناء واقعة واجرام

جزء من صورة كبيرة رسم هوراس فرنيه (Horace Vernét)

محفوظة بمتحف فرساى

وأقل احتمالا لمخالفة أوامره ، وإن فى تتابع وزراء الخارجية من تالىران إلى شامبانىي (Champagny) ، إلى ماريه (Maret) ، الذين كان كل منهم يقل عن سابقه فى المقدرة واستقلال الرأى ، لأحسن دليل على اتساع شقة الخلاف بين سياسة الامبراطور ومصالح فرنسا.

كان سقوط نابليون النتيجة المنطقية للنظام القارى ، الذى وجه إليه أكبر جزء من نشاطه فى السنتين التاليتين لموقعة واجرام . ذلك أن مشروع إغلاق كل موانى أوربا فى وجه المتاجر الانجليزية أو مستعمراتها لم يستلزم توسيع دائرة فتوح نابليون فقط ، بل نتج عنه أن ضم نابليون لفرنسا هولندا والمدن الهنسية [1] ودوقية أولدنبورج (Oldenburg) . وبصرف النظر عن الاستياء والفزع العامين ، اللذين نتجا عن تلك الأعمال ، فأن الحصار البحرى جر صنوف الفاقة وويلاتها على رأس كل فرنسى .

---

(۱) يرجع تاريخ المدن الهنسية للقرون الوسطى ، وقد أطلق هذا الاسم على مجموعة من المدن الألمانية ، التى كونت فيما بينها عصبة تجارية اسمها الهنسية (Hanseatic League) سنة ١٢٤١ ، لحماية الموانى الألمانية ، التى تستعملها تلك المدن فى متاجرها من قرصان البحر الدنماركيين والسويديين . ثم أخذت العصبة فى الاضمحلال لما ابتدأت التجارة تتحول فى أواخر القرن الخامس عشر إلى المحيط الأطلسى. وجاءت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ــ١٦٤٨) فكانت نتيجتها انتثار عقد المدن الهنسية ، ولم يبق منها إلا ثلاث مدن ألمانية حافظة لظل العصبة القديمة ، وهى هامبورج (Hamburg) ولوبك (Lubeck) وبرمن (Bremen) ، وهى التى استولى عليها نابليون لأحكام السياج . الذى أراد إقامته فى وجه التجارة الانجليزية .

وصف جيته[1] الشاعر الفيلسوف الألمانى نابليون بأنه أحد الرسل المبعوثين لإقامة مدنية أعلى من المدنية التى قامت فى أوربا فى آخر القرن الثامن عشر. لكن إذا كان من مقتضيات الرسالة أن يبلغ ثمن الطباق ما بلغ، وأن يندر وجود البن والسكر فى الأسواق، وأن تبقى السفن فى الموانى حتى تبلى، وأن تصرف المحال التجارية الكبرى الواحد بعد الآخر عمالها، وتغلق أبوابها، فأننا نعرف أن أناساً أقل فلسفة وشاعرية من جيته لم يروا فى أعمال نابليون إلا الاستبداد القاسى والإسراف بلا مبرر: فالحصار القارى تمخض عن الخسائر فى كل مكان، وأصبحت البلاد التجارية مثل هولندا ودوقية برج خراباً؛ والحق أنه لم يوجد فى سياسة نابليون — إذا استثنينا التجنيد الإجبارى — ما جعل حكمه مكروهاً فى أوربا أكثر من الحصار القارى.

لا يخفى أنه لو أمكن تنفيذ المشروع بدقة، لجاز أن ينتج عنه الأثر المطلوب. لكن ثروة إنجلترا الطائلة لا تعتمد اعتمادا كليا على التجارة، كما زعم نابليون، لأن معظمها عبارة عن ثمرة نشاطها الصناعى. أما نقطة الضعف فى حالتها الاقتصادية، فهى أن سكانها نموا نمواً سريعاً،

---

(١) ولد يوهان ولفجانج فون جيته (Johann Wolfgang von Goethe) سنة ١٧٤٩، وهو أعظم شعراء الألمان فى العصر الحديث، ومن أكبر رجال الأدب فى عصره. وحدث أنه وقع فى حب فتاة مخطوبة هام بها وكتب كتابه «آلام فرتر» يصف لواعج حبه. وبعد ذلك اشتغل بالأدب، ومازال يتقلب بين الأدب والسياسة، ويخرج كتبا عدة منها روايته فاوست (Faust) الشهيرة وكتاب الشعر والحقيقة. ولقد عمر اثنتين وثمانين سنة ممتعاً بشهرة عالمية فائقة ومات سنة ١٨٤٢.

حتى أصبحت بحاجة من آن لآخر إلى استيراد القمح من أوربا .
ولو أن كميات الغلال الأجنبية قطعت عن السوق الأنجليزية ، لكان من المحتمل أن تقع الدولة فى مجاعة أليمة تضطرها لطلب الصلح . لكن ذلك النظام لم يتبع ، بل سمح للمصدرين الفرنسيين برخصات خاصة لأرسال غلالهم لأنجلترا . ليس غريبا إذاً أن يفشل الحصار فى تحقيق ما وضع له ، بسبب التجارة الواسعة التى سمح بها بمقتضى تلك الرخصات الخاصة ، وبسبب النشاط العظيم بين المهربين . إنما الغريب أن يظل نابليون معتقدا أن إصدار القرارات، التي كان كل منها أشد تضييقا من سابقه ، والتي يستحيل تنفيذها بالدقة ، سيمكنه من إرغام إنجلترا على الخضوع .

حمل ذلك السبب نابليون ، وأسباب أخرى أهمها مسألة زواجه، على أن يعدل عن عزمه الأول ، وهو العودة لأسبانيا ؛ لأنه اقتنع بعض الشيء بأنه إذا أدار اللولب الضاغط على التجارة الأنجليزية دورة أخرى ، فأن حرب شبه الجزيرة يقضى عليها من جذورها . لذلك أناب عنه مسينا ، أقدر قواده ، لغزو البرتغال . إلا أنه لم يفرده بقيادة الجيوش الفرنسية فى إسبانيا ، ولم يزوده بجيش كاف ، ولم يترك له الحرية التامة فى العمل .

ولقد رأى مسينا وهو يعسكر على مرتفعات بوساكو[1] (Bussaco)، وأمام خطوط توريس- ڤدراس(Torres-Vedras)، وفى معسكره الشتوى عند سنتاريم (Santarem) ، ما لم يدر بخلد نابوليون قط : وهو إمكان تدريب البرتغاليين على مواجهة النار . رأى مسينا أيضاً أن خطة التخريب العام ، التى قام بها ولنجتون فى أنحاء البرتغال ، كانت صدمة شديدة للنظام الفرنسى القاضى بتموين الجيوش الفرنسية بميرة البلاد التى تحتلها . لذلك كله نكص الغزاة على أعقابهم ، ونجت البرتغال : إذ عبر مسينا فى إبريل سنة ١٨١١ الحدود الأسبانية بجيش ساخط متمرد ، مختل النظام ، خالى الوفاض ، بادى الأنفاض ، بعد أن خسر ثمانية وثلاثين فى المائة من رجاله ؛ فبرهن بارتداده المشهود على مهارة ولنجتون وعدم حكمة نابليون ، وعلى الفشل النهائى فى محاولة إجبار البرتغال على دخول حلقة الحصار القارى .

كان يتهدد الحصار مصيبة أدهى من الطرف الأوربى الآخر نتيجة سياسة نابليون ، التى أدت إلى إضعاف التحالف الفرنسى الروسى . وتفصيل ذلك أن القيصر كان غير مستريح من أول الأمر للمعاملة القاسية التى خصت بها بروسيا ، ولتشجيع الآمال القومية

---

(١) انظر مصور أسبانيا للتحقق من ميادين حرب شبه الجزيرة .

بين البولنديين بإنشاء دوقية ڤارسو . ثم إنه قبل التحالف مع فرنسا على رغم عدم رضاء الأشراف والدوائر التجارية في الروسيا ، تحت تأثير شخصية نابليون من جهة ، ولينتهي من جهة أخرى من مشادة مؤقتة قامت بينه وبين إنجلترا . هذا وكان القيصر يعتقد أن مصادقة نابليون تعينه على تنفيذ أطماعه في الشرق . لكن سرعان ما أذهبت الحوادث الزبد جفاء ، وشفت عما تحته من حقائق ، إذ أخرت الثورة الأسبانية اقتسام تركيا إلى أجل غير مسمى . لذلك دخلت الروسيا حرب سنة ١٨٠٩ مضطرة ، وعلى غير رغبتها ضد النمسا ، وأمدت فرنسا بمساعدة فاترة . أدرك نابليون بسرعة أن أوربا على باب انقلاب سياسي . تفصيل ذلك أنه على الرغم من مكافأة القيصر على خدماته بجزء من غاليسيا ، فأنه أعطى الجزء الأكبر من ذلك الأقليم ، بمقتضى معاهدة شونبرون ، إلى البولنديين بقصد الاعتماد عليهم في حالة وقوع حرب مع الروسيا . وقد عدت وزارة خارجية روسيا توسيع رقعة دوقية ڤارسو نذيرا بالويل ، فطلبت من نابليون وعدا صريحا بأنه لن يوافق على إحياء مملكة بولندا[1] . لكنه أبى

(١) كانت بولندا حتى عام ١٧٧٢ مملكة مستقلة واقعة بين الروسيا والنمسا وبروسيا . وفي تلك السنة اقترح فردريك الأكبر ملك بروسيا على ماريا تريز إمبراطورة النمسا ، وكاترين الثانية قيصرة الروسيا إقفال باب التزاحم بين الدول الثلاث بتقسيم بولندا الضعيفة فيما بينهم ، وبهذا تم ما يسمى في التاريخ بتقسيم بولندا الأول الذي قضى على استقلال تلك الدولة التعيسة ، حتى كانت الحرب العظمى ، إذ أرجعت معاهدة فرساي إلى البلاد استقلالها ، وهي الآن جمهورية .

أن يقطع على نفسه ذلك العهد ، لاعتقاده باحتمال وقوع حرب مع الروسيا ، حيث تكون الوطنية البولندية عونا له على النصر . لو كان نابليون بلا حليف في أوربا لسار فى سياسته بشىء من الحذر ، لكنه ، وهوزوج مارى لويز ، أحس بأنه ليس مضطرا للتراضى مع الروسين.

لم يكن ليؤدى ذلك التوتر إلى حرب ، لولا أسباب مالية جعلت من المحال على الروسيا البقاء على سياسة الحصار القارى : وهى أنه لما طلب نابليون من القيصر ، في منتصف أكتوبر سنة ١٨١٠، أن يمنع من السفر جميع السفن الانجليزية الراسية فى المياه الروسية والرافعة أعلاما محايدة ،قوبل طلبه بالرفض ، لأن الروسيا لاتستطيع الاستغناء عن حاصلات المستعمرات الانجليزية ، ولأن المراكب التى تحملها لموانيها ترفع أعلاما محايدة . وفي أواخر سبتمبر سنة ١٨١٠ ، صدر أمر عال روسى لتسهيل دخول المراكب المحايدة إلى الموانئ الروسية، ولفرض ضرائب جمركية باهظة على الأنبذة والحرائر التى كانت أهم الصادرات الفرنسية . بالاختصار رأى نابليون أن ذلك الانقلاب في نظام الروسيا المالى إعلان للعداء .

قال بعض المؤرخين إن الحرب كانت واقعة لا محالة ، وألقى بعض آخر اللوم على القيصر . والحقيقة أنه لا سبيل لاتقاء الحروب ،

إذا اعتبرنا أخلاق وأعمال مثيريها جزءا من نظام ثابت فى الطبيعة .
والدليل على ذلك أن ما نعلمه عن نابليون وعن القيصر ، وعن أحوال التجارة والمالية الدوليتين فى ذلك الوقت ، لم يترك مجالا للشك فى قرب وقوع الحرب . إنما ليس في تغيير الرسوم الجمركية فى دولة ما ـ فى ذاته ـ ما يدعو إلى نشوب حرب : إذ كان للروسيا كل الحق ، بعد أن رأت ما لحق ميزانيتها من العجز ، فى تعديل رسومها الجمركية إلى ما يناسب حاجاتها الداخلية ، ولم يكن لنابليون أى حق في التدخل . فالتصادم لم ينشأ لأن القيصر كان يبحث عن مشكلة ، بل لأن نابليون اعتبر أن أى تهاون فى تنفيذ نظام الحصار القارى يكون بمثابة طعنة في إمبراطوريته ومركزه .

كانت حالة نابليون العقلية ، سنة الاستعداد التى سبقت الحرب الروسية ، برهانا قاطعاً على أنه لم يهتم لاجتناب الحرب . ذلك أنه لم يعتبر النضال القريب عائقا قد ظهر لتعكير صفو السلام الأوربى تجب إزالته ، بل كان مملوءا حماسة وطربا يشبهان ما يجيش فى صدر القرصان عند ما يظهر له باب للسطو والنهب . قال نابليون فى ذلك الصدد : « يريد الناس أن يعرفوا إلى أين نحن مسوقون . إنا عازمون على القضاء على البقية الباقية من أوربا ، وعلى أن ننقض كاللصوص على لصوص أقل منا جرأة ، لنصبح المسيطرين على الهند » . وبدأ فعلا يجهز

الحملات إلى القطر المصرى ومستعمرة الرأس ، وقال لناربون (Narbonne)[1] عن موسكو إنها محط رحال القاصد إلى الهند وعن الحرب الروسية إنها ليست إلا الدور الافتتاحى لزحفه المظفر فى أصقاع الشرق . ليس شيء من ذلك غريبا ، فقد اعترف نابليون منذ عام ١٨٠٤ أنه مل أوربا العتيقة ، والآن يقول إنه سيسيطر على العالم في ثلاث سنين .

مما أخذ على مقدرة نابليون فى وضع الخطط الحربية ، أنه حاول جديا فتح دولة كالروسيا ، حيث تنهزم الجيوش الصغيرة ، وتموت الجيوش الكبيرة جوعا بسرعة أكثر مما حصل في إسبانيا . غير أن حادثا سبق وقوعه قبل ذلك وترتب عليه نجاح ، وليس من المستحيل وقوعه مرة أخرى فتكون نتيجته كسابقه، أى نصر كبير على الحدود يتبعه صلح سريع[2]. ولم يترك نابليون شيئاً فى السياسة أو الحرب إلا استعمله ؛ واعتمد على ضعف القيصر لتخليصه من صعوبات القتال فى أرض كالصحراء. إلا أنه أخطأ في تقدير طباع خصمه ، ولم يلبث أن وجد نفسه أمام خطة سداها اجتناب الحرب وحرمانه من القتال ، ولحمتها

---

(١) ولد الكونت لويس دي ناربون (Comte Louis de Narbonne) سنة ١٧٥٥ ؛ وهو أحد ساسة فرنسا المشهورين، ووزير الحربية فى عهد لويس السادس عشر . وكان وزيراً قديراً ، غير أن المشاحنات الحزبية بين اليعقوبيين والجيرونديين أدت إلى عزله سنة ١٧٨٤ ، وتوفى سنة ١٨١٣.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى موقعة فريدلاند .

استدراج جيشه الجرار إلى قلب مهمه قفر. ومع ذلك لم ينصت نابليون لصوت حكمته ورويته، وعزم على اقتفاء أثر الجيش الروسى، حتى وصل موسكو. ولو أن القيصر أنصت لمطالبه من موسكو، لماشهد العالم سلسلة المآسى الحربية الطويلة، التى لاتفتأ تذكر كلما ذكر نابليون.

غير أن الحملة الروسية سنة ١٨١٢ ستبقى دائما البرهان القاطع على ما ينتج عن انفراد دولة واحدة بالقوة الحربية في أوربا، بقطع النظر عن عيوب الخطط الحربية التى سار عليها القتال. ذلك أن الحرب لم تكن مسألة تنازع بين أمتين، بل مسألة تنازع للبقاء بين أطماع رجل واحد، وبين وطنية قوم أمجاد على جانب عظيم من التدين. أما الشعب الفرنسى، الذى لم يعلم بوقوع الحرب إلا بعد عشرة أيام من نشوب القتال، فقد تلقى الأخبار بالرضاء المعهود. في وسط كل ذلك وقف نابليون هادئا صامتا، معتمدا على أنه على رغم فشله فى ضم السويديين والأتراك إلى جانبه، قد أعد الوسائل لإثارة حماسة البولنديين، وحصل من النمسا وبروسيا على جيش لحماية جناحى جيش بلغ عدده ستمائة ألف مقاتل، لم يسبق لنابليون أن قاد مثلهم، بعد أن جندهم بطرق لاتختلف عن غارات العبيد: إذ كان ثلثا عددهم من الأقاليم التابعة أو المتحالفة مع الأمبراطورية، لاشتغال زهرة جيوش فرنسا بالخدمة في إسبانيا. ومع ذلك فقد حارب من أجل

نابليون ذلك الجمع المتنوع الوحدات ، من ألمانيين وأيطاليين وهولنديين وبولنديين ، وأراق الدماء تحت إمرة ضباطه الفرنسيين ، ولم يحدث عصيانا ، ولم يمتنع عن مواصلة القتال . ولا شك أنه لو فني الجيش الأعظم عن آخره في محاولته ، فلا يرجع ذلك إلى الجنود أنفسهم ، بل إلى أسباب نقشت نقشا عميقا على وجه الطبيعة ، ليس فى مقدور أى قوة بشرية مهما تعظم أن تتغلب عليها .

كانت خطة نابليون الأصلية مرتبة على استمرار الحرب سنتين ، فيقاتل الروسيين في السنة الأولى فى ليتوانيا [1] ، ثم يتقدم فى الثانية من سمولنسك إلى موسكو . بناء على تلك الخطة كان لديه متسع من الوقت للعناية بالاستعداد العناية الواجبة ، ولأرجاء القتال حتي شهر يونيه ، حين تكون سهول ليتوانيا صالحة لأمداد خيله بالعلف. ولو أن القيصر انتظر في الخنادق التي أشير عليه بعملها عند دريسا (Drissa)، تقليدا أعمى لخطوط ولنجتن فى تورس ـ ڤدراس ، لكسب نابليون الحرب . غير أن التفوق العددى العظيم، الذى امتاز به الجيش الفاتح، أضر بالفرنسيين ، ونفع الروسيين ، على عكس ما كان منتظرا . السبب أن القواد الروسيين ، على رغم تطلعهم لمنازلة العدو ، كانوا مضطرين إلى التقهقر دون الاشتباك مع جيش عدده أكثر من ثلاثة

---

(١) انظر مصور الروسيا لمعرفة ميادين الحرب الروسية .

أضعاف القوات التي تحت إمرتهم . ثم أن جيش نابليون البالغ ٦١٠٫٠٠٠ مقاتل، عدا سرايا المؤن ، لم ينجح في حركات التطويق ، ولم يكن فيه الخفة اللازمة للقيام بحركات المطاردة. والنتيجة أن الإمبراطور وجد نفسه في منتصف أغسطس في سمو لنسك ، عند الطرف الشرقي من أرض جرداء قاحلة ، وقد فقد من جيشه مائة ألف مقاتل، دون ظفر حاسم يمكن التحدث به . وفي خرائب سمولنسك المحترقة ، وفي مستهل الخريف، عزم نابليون على الزحف على موسكو . ذلك أنه فضل أن يقامر بكل ما لديه ، فيخسره أو يكسب مثله ، على أن يواجه تقهقراً غير مشرف ، أو خسارة تعود على جيشه من سكونه في الشتاء الشتواتي . عند ذلك وقف الجيش الروسي في طريق نابليون بقيادة كوتوسوف (Kutusoff) الوطني المحنك ، الذي لبى صوت الأمة لإنقاذ الوطن ، واشتبك في موقعة بورودينو (Borodino) ، التي وصفها تلستوي وصفاً خالداً بأسلوبه البديع . ولقد فتحت مذبحة بورودينو لنابليون الطريق إلى موسكو ، ولكنها لم تأت بشيء لإخماد العزيمة الصادقة في قلب عدوه. ثم ترك كوتوسوف موسكو، وانسحب إلى نقطة في الجنوب غير بعيدة عن العاصمة ، أملا في الانقضاض فجأة على الجيش الفرنسي المفكك . غير أن استيلاء الفرنسيين على موسكو لم يجد شيئا ، اللهم إلا أنه زاد حنق الروسيين، إذ وجد نابليون المدينة

لدى دخوله خاوية على عروشها ، وقد أسلمها للتدمير الغل الوطنى المتأجج فى قلب حاكمها ، بأشعال النار التى اندلعت ألسنتها من كل صوب ، بشكل حير الكل فى أمر مصدرها . وعلى الرغم من ذلك بقي نابليون فى موسكو ، بين كتلة كئيبة من الخرائب المحترقة السوداء ، حتى ١٨ أكتوبر ، أملا فى أن يأتى الأسكندر صاغراً . ووضع فى أثناء تلك الفترة قانونا للمماثل والملاهي الفرنسية . ولما بدأ يتقهقر كان الأوان قد فات بشهر كامل ؛ إذ على الرغم من تأخر هطول الثلوج فى ذلك الخريف ، فأن ما هطل منها في وقت تقهقره كان كافيا لايقاع خسائر فادحة بجيش بالى الأطمار ، دامى الأقدام ، يجر أذيال الخيبة ، مهرولا أمام حراب القوازق . ولما كف الروسيون عن المطاردة عند نهر نيمن (Niemen) ، الذى كان إذ ذاك الحد الغربى للامبراطورية الروسية ، كان الجيش الأعظم قد فقد خمسمائة ألف أو يزيدون .

مثلت الرواية الثانية في المانيا . وبينا يظهر فيها نابليون بدور عظيم خطير من أدوار حياته ، إذا بها نفسها فصل مهم فى تطور الأمة الألمانية . لايخفى أنه أصبح من الضرورى تكوين جيش كبير يقوم مقام الجيش ، الذى قضى عليه قضاء مبرماً فى الروسيا ، لحماية المراكز البعيدة فى الأمبراطورية . ولقد كان بين سكان فرنسا ، البالغ عددهم ٣٦ مليوناً ، ما لايقل عن مليونين ونصف من الرجال الصالحين للخدمة

الحربية ، على رغم ما تكبدته فرنسا من الخسائر فى الحروب الأخيرة . إلا أننا نتساءل كم من هؤلاء يمكن تجنيدهم بسرعة ، وإعدادهم باللوازم الكاملة لحرب بعيـدة المزار ؟ أمكن نابليون ، فى أربعة شهور ، وبدون الوسائل الحديثة التى تساعد على التعبئة السريعة ، أن يعـد للقتال فى ألمانيا ٢٢٦٫٠٠٠ مقاتل و٤٥٧ مدفعاً . وتم ذلك العمل، الذى يكفى لاذاعة صيت وزير من وزراء الحربية فى العصر الحاضر ، بعد حرب طاحنة ، ومع العلم بأنه جزء من برنامج أعمال الامبراطورية. أسرع نابليون بعد ذلك إلى الميدان ، وباشر أعمالا حربية شاقة جدا . لأنه فضلا عن الجيش ، الذى سيره القيصر للانتقام ، كانت بروسيا قد انضمت لأعدائه ، وأصبح معنى هزيمته خروج النمسا عن حيدتها وكف اتحاد الرين عن مساعدته .

كانت الواقعتان الأوليان انتصارين مزيفين لنابليون . ذلك أنه التقى عند لوتزن (Lutzen)[1] قرب ليبزج، ثم عند بوتزن (Bautzen) فى سيليسيا ، بقوة تفوق جيشه عدداً ، مكونة من البروسين والروسيين، ولم يوفق فى أحدهما إلى انتصار حاسم . لم يكن السبب في ذلك فتور مواهبه الخاصة ، لأن بوادر الملل ، التى ظهرت على نابليون فى الأدوار الأخيرة لتلك الحرب، لم تتطرق إليه في الأدوار

---

(١) انظر مصور أوربا الوسطى للتحقق من ميادين القتال فى تلك الحرب المدهشة .

الافتتاحية . ولاسبيل إذاً إلى استنباط السبب مما تقدم . غير أن أول ما يجب على القائد الوصول إلى ساحة القتال بجيش يفوق عدوه عدداً، والأسراع إلى الاشتباك والفرصة فى جانبه . قام نابليون بتلك العملية التى هى أصعب العمليات الحديثة فى لوتزن وبوتزن خير قيام : فكان تخيره للأرض الصالحة ، ومواهبه فى القيادة ، كما هو معهود فيه . وحدث، أثناء تراجع الفرقة الثالثة من جيشه أمام الهجوم عند لوتزن، أنه ركض بجواده على رأس حرس من الأحداث ، فكان منظراً بديعا تجددت به شجاعة الفرقة المكسورة . ولا شك أن في حمل جيش من المجندين الأحداث ، الذين كان تدريبهم الحربى الوحيد مكتسبا من سيرهم إلى الميدان ، على تلقي ضربات تلك الواقعتين الهائلتين لدليلا على قوة تلك الأرادة الحديدية . أما الواقعتان فكانتا سجالا ، لأن خيالة نابليون كانت من الضعف بحيث لم تقو على مطاردة الأعداء .

لم يكن لمثل ذلك الانتصار قيمة . وبالرغم من أن نابليون أجلى العدو عن سكسونيا وسيليسيا ، وكسب موقعتين ، كان عالماً أنه لا يمكنه إنفاذ ضربة قاضية بلا إمدادات كبيرة لا سيما من الخيالة ، وأن قواده ملوا الحرب ، وأن جيشه الذى لم يدرب بعد أنقصه الموت أو المرض أو الهرب إلى نصف قوته . ثم إنه لم يعد يعتمد

على النمسا وصداقتها ، واعتقد أنه إذا لم يتخـذ احتياطات سريعة تهديدية ، فمن المحتمل أن تصبح النمسا فى صف أعدائه . وسبب ذلك الاعتقاد أن النمسا كانت مهتمة بتعبئة جيوشها فى بوهيميا ، بيد أنها كانت مستعدة لمسالمة نابليون إذا تنازل عن الولايات الأليرية وعن فتوحه البولندية والألمانية . غير أنه رفض تلك الشروط ، واعتبرها إهانة كبرى ، وعزم على تسيير جيش من إيطاليا إلى لايباخ (Laybach) ، حتى يعدل النمساويون عن سخافتهم . بناء على تلك الأفـكار ، وقّع نابليون فى ٤ يونيو فى بلاسفتز (Plaswitz) على هدنة تستغرق شهرين . ولم يفـكر فى التنازل عن فتوحه ؛ وإنما كان يبغى بتشجيع الـكلام فى الصلح كسب الوقت ، لأعداد مجندين جدد يقذف بهم إلى حيث يهلـكون . والدليل على ذلك ما جاء في مذكرات مترنخ ، مبيناً كيف ألح السفير النمساوى على نابليون فى ٢٦ يونيو فى قبول شروطه وإقامة السلام فى أوربا ، وإلى رد نابليون بغضب . إذ قال : „ ماذا تنتظر منى ؟ أتنتظر أن ألحق العار بنفسى ؟ ذلك محال . سأعرف كيف أموت ، ولـكنى لن أنزل عن شبر من الأرض . أن ملوكـكم الذين ولدوا فى الملك يمكن أن ينهزموا عشرين مرة ، ومع ذلك يؤوبون إلى عواصمهم . أما أنا فلا قبل لى بذلك ، فقد بلغت الملك عن طريق الحرب „ . ثم سأله مترنخ ماذا هو صانع ، إذا حل بجيشه المـكون

من المجندين الأحداث ، ماحل بالجيش الأعظم أثناء الحملة الروسية. فعلت وجه الأمبراطور صفرة ، ثم عبس وقال بعنف : « إنك لست جندياً ، ولا تعرف ما يجيش بصدر الجندى . لقد نشأت فى ميادين الحرب ، ومثلى لا يعبأ إلا قليلا بضياع حياة مليون رجل » . وبينا هو يلفظ هذه الكلمات بصوت عال قذف بقبعته فى زاوية من زوايا الغرفة . عند ذلك قال له السفير ، بعد ما استأذن بالخروج : « مولاى على ملكك العفاء ! لقد كنت أشعر بذلك عند ما وفدت ، وها أنا واثق كل الثقة لدى ارتحالى عنك » .

أجمع النقاد الحربيون على ضرر عقد الهدنة ؛ لأنها وإن مكنت نابليون من جمع الأمدادات ، كانت أكثر نفعاً لأعدائه . الدليل أنه لما ابتدأت الحرب فى أغسطس ، كانت النمسا والسويد قد انضمتا إلى صف الحلفاء ، فأصبح جيشهم ٨٦٠٫٠٠٠ يقابلهم ٧٠٠٫٠٠٠ من الفرنسيين، بما فيهم من الجنود الأسبانية والأيطالية . وإنا لنتساءل عما إذا كان في استطاعة أى قائد حازم فى ظروف نابليون أن يتنبأ فى يونيه بتلك النتيجة . تلك مسألة تفتح مجالا للتشكك ، وكل ما نعرفه بالتأكيد ، هو أن الحرب عادت والظروف أقل ملاءمة لنابليون ، فكانت جيوشه كتلة قوامها أحداث غير مدربين ، وكان أعداؤه أوثق تماسكا وأعز نفراً ، ولم تكن عزائمهم بأقل قوة مما كانت قبل .

تقع درسدن عاصمة سكسونيا على نهر الألب ، على مسافة عشرين ميلا شمال الحدود الجبلية لبوهيميا . هنالك عزم نابليون على الوقوف بجيشه ، لا لحماية خط نهر الألب فقط ، بل ليتمكن من المحافظة على ولاء حلفائه السكسونيين ، وثقة حلفائه البولنديين ، ولاعتقاده أنه بوقوفه فى ذلك المكان الملائم يقابل جمع الهجمات، التى يوجهها إليه الجيوش الثلاثة المتحالفة الزاحفة ، من بوهيميا وسيليسيا وبراندنبرج . لكنه اعترف فيما بعد بسوء اختياره ، لقرب درسدن من الجبال ، حيث يمكن تمزيق الجيش الذى يتقهقر إلى بوهيميا،قبل أن يتمكن من الوصول إلى المضايق والممار ليحتمى فيها .

كانت واقعة درسدن مفعمة بالنكبات حقاً . إذ اتفق الحلفاء على أن يجتنبوا ما استطاعوا ملاقاةنابليون نفسه ، وأن يهاجموا قواده بنشاط كلما التقوا بهم . نجحت تلك الخطة ، وذاقت فرق القائدين أودينو [1] وناى [2] ، اللتان كانتا أرسلتا لمقابلة جيش الشمال، مرارة الهزيمة عند

---

(١) ولد شارل نيكولا أودينو (Charles Nicolas Oudinot) سنة ١٧٦٧، وهو من أعظم قواد الامبراطورية المعدودين فى فرنسا، وقد ظهر فى مواقع عدة على البروسيين والنمساويين، وحضر واقعتى أسترلتز و ينا ، وكان السبب فى انتصار الفرنسيين فى واقعة فريد لاند .

(٢) ولد ميشيل ناى (Michel Ney) سنة ١٧٦٩ . وهو من أعظم قواد الامبراطورية النابليونية ، ومن أشدهم إخلاصاً لنابليون ، الذى منحه وسام الشرف لانتصاره انتصاراً مبيناً فى واقعة فريد لاند ، وسماه أشجع الشجعان (Le Brave des braves) .ويلاحظ أنه

بلدتى جروس بيرن (Gross Beeren) ودنفتز (Dennewitz) ، حيث وقعت واقعتان خالدتان فى التاريخ الحربى البروسى، برهنتا على بعث العظمة البروسية من جديد . وفى الطرف الشرقى من ميدان الحرب الواسع هزم بلوخر قائد جيش سيليسيا القائد الفرنسي ماكدونالد عند نهر الكاتزباخ (Katzbach) . أما الواقعة الوحيدة التى شذت عن سلسلة الهزائم الشنيعة المتقدمة ، فحدثت فى أول أدوار القتال . والسبب أن زحف الجيش البوهيمي على درسدن في ٢٢ أغسطس، كان مبنياً على الاعتقاد الراسخ أن المدينة ستضطر للتسليم ، نظراً لرداءة تحصينها، قبل أن يتمكن نابليون من الرجوع لحمايتها، ولانشغاله ضد بلوخر فى سيليسيا . إلا أن الحوادث برهنت على خطأ ذلك التقدير ، لأن شفارزنبرج (Schwarzenberg) كان بطىء الزحف بقدر ما كان نابليون سريعا في الرجوع . وفى أثناء الواقعة ، التى نشبت خارج اسوار درسدن ، كان الدفاع أحسن حالا ، لوجود القيادة فى يد الأمبراطور : فبعد حرب استغرقت يومى ٢٦ و ٢٧ أغسطس ارتد الجيش البوهيمى إلى الحدود . ولو تابع نابليون ذلك الظفر بنشاطه

لما نفى نابليون إلي جزيرة إلبا سنة ١٨١٤ خضع ناى للبوربونيين ؛ ولما فر نابليون إلى فرنسا ، بعثت الحكومة ناى على رأس أربعة الافنجندى ، للقبض على ولي نعمته القديم . غير انه سلم جنوده لنابليون ، وانضم إليه ، وحارب معه فى واترلو . ثم لما انهزم نابليون فى تلك الواقعة ، حاول ناى الهروب إلى سويسرا فلم يفلح . وقبض عليه . وحكم عليه بالاعدام، أمام مجلس الأعيان الفرنسي، وأعدم رمياً بالرصاص سنة ١٨١٥ .

القديم ، لأصبحت درسدن فى صف ينا ، كواحدة من انتصاراته الحاسمة . ولكن التاريخ حافل بأمثلة حوادث عظيمة ، كان للصحة والعافية أثر فعال وخطة مقطوعة فى تكييفها : أظهر نابليون في أول أدوار تلك الموقعة مرونته وسرعته وقوة عزمته المعهودة ، فرجع بالحرس إلى درسدن بسرعة تسعين ميلا فى اثنين وسبعين ساعة. وفى اليوم الأول للواقعة ، أجلى جيشا مؤلفا من خمسة عشر ألفا عن مراكزهم بقوة تقل عن نصف ذلك العدد، فاقتصد اقتصاداً حكيماً في صفوف الاحتياطى. وفى اليوم التالى، أخذ الهجوم الفرنسي يقل عن نشاطه العادى ، على رغم وصول أمداد عظيمة إلى الامبراطور أثناء الليل ، حتى أن قلب الجيش النمساوى ظل سليما ، فى حين عزم شفارزنبرج على التقهقر ، عندما وصلت إليه الأخبار ، فى الساعة الخامسة صباحا، تنبئه بهزيمة الجناح الأيسر من جيشه . فلو أن نابليون في أوج قوته ، لكان في مقدوره مطاردة فلول النمساويين ، وإلحاق العطب بصفوفهم ، لأن الجيش البوهيمي كان الجيش الرئيسى للحلفاء ، وكان يحتوى على نمساويين وروسيين وبروسيين ، ويرافقه ملوك تلك الدول الثلاث ، وفى إلحاق الدمار به تأثير على أوروبا لا يمكن تقديره . كان الواجب أن يكون ذلك التدمير الغرض الأصلى من تلك الحرب ، لا سيما وأن الحظ والمهارة اجتمعا لنابليون ، وأفلح بعد لأى في إكراه شفارزنبرج على التقهقر.

وكان قمينا به هنا الا يترك أى فرصة لتحويل التقهقر هزيمة ، والهزيمة تسليما . لكن الأمطار هطلت كالسيل يوم ٢٧ ، وأصاب نابليون برد ، وأنهكه التعب بعد بقائه على صهوة جواده خمسة أيام . فلما ابتدأ العدو يلين تحت ضغطه اعتبر أن مهمته انتهت ، وأرسل في طلب جواده . ثم ركب إلى درسدن والمطر يتساقط من معطفه الرمادى . وفى الساعة السابعة مساء كتب إلى القائد برتييه أن العدو لم يتقهقر بعد ، وأن كل القرائن تدل على أن واقعة عظيمة ستنشب فى اليوم التالى . وعلى رغم ما أتى به الغد من تكذيب النبوءة ، ترك نابليون أمر المطاردة للقواد ، وبقى فى درسدن ، فى حين أن فرقة القائد ڤاندام (Vandamme)، التى أرسلت لقطع خط الرجعة على العدو ، أحيط بها. ودمرت عند كولم (Kulm) .

وفى أواسط سبتمبر نقص عدد الجيش الفرنسى في سكسونيا من ٤٠٠ر٠٠٠ إلى ٢٥٠ر٠٠٠ مقاتل ، وتفشى الهروب ، وغصت المستشفيات بالمرضى والجرحى ، وازدادت مصاعب التموين بسرعة خطيرة ، ولاسيما بعد هزيمة ناى فى ٦ سبتمبر . وكان الأمل الوحيد أن يقع أحد الجيوش المتحالفة فى شباك نابليون، فيقضى عليه قبل أن يصل الاثنان الآخران لانقاذه . غير أن ذلك الأمل كان بعيد الاحتمال ، وظل الامبراطور شهراً يروح ويغدو بجيشه متخذا درسدن مركزاً له ، فأجهد نفسه وجيشه ابتغاء الالتحام مع العدو، ولم يوفق

إلى بغيته . هنا ابتدأ يستولى عليه شيء من التردد ، فلم يقطع بالتقهقر ؛ لكنه أكره آخر الأمر بفعل الحلفاء . ذلك أن بلوخر خرج من سيليسيا في الأسبوع الأخير من سبتمبر ، وعبر نهر الألب ، واتصل في ٧ أكتوبر بالجيش البروسي السويدي تحت قيادة برنادوت ، منعطفاً من الشمال إلى خط رجعة نابليون ، بينما برز شفارزنبرج من الجبال البوهيمية ، ودار دورة بطيئة من الجنوب لمقابلته . رأى نابليون لما علم بتلك الحركة التطويقية ، أن يرسل مورا إلى ليبزج لايقاف شفارزنبرج ، إذ يحاول هو بالجيش الرئيسي أن يلحق الدمار بجيش بلوخر . لكن سرعان ما ظهر أن بلوخر لايقع في الشرك . لذلك عكست الخطة ، وفي يوم ٢ أكتوبر ، بعد أيام انقضت في حيرة مؤلمة ، عزم نابليون على الانضمام بقوته إلى مورا ، وعلى هزيمة الجيش البوهيمي الزاحف من الجنوب على ليبزج ، قبل مجيء بلوخر وبرنادوت لنجدته . دخل الأمبراطور ليبزج ظهر يوم ١٤ أكتوبر ، غير أنه انقضى يومان قبل أن يكون جيشه مستعدا للقتال في صبيحة اليوم السادس عشر .

واقعة ليبزج من الملاحم التي يحارب فيها جيش ذو عدد محدود جيشاً تصل إليه الأمداد تباعا بعد ابتداء الواقعة ، فيظفر الأخير ظفرا مبيناً بسبب تلك الأضافات المتتابعة لكتلته . بدأ نابليون القتال بجيش يبلغ عدده ١٩٠,٠٠٠ ، ضد خصم عدد رجاله ٢٠٠,٠٠٠ . على

ذلك كان عنده فى اليوم الأول ، وبالأخص فى الساعات الأولى من النهار ، فرصة صادقة في النجاح . فلو أنه وجه قواته إلى ليبزج — كما كان واجبا عليه أن يعمل — بحيث يلتحم بجيش شفارزنبرج يوم ١٥، لقابل جيشا يقل عن جيشه بكثير ، لعدم تكامل جموعه ، ولكان من المحتمل الانتصار ، أو لو لم يترك نابليون ٣٠٫٠٠٠ مقاتل فى درسدن، تحت قيادة الجنرال سان سير (St. Cyr)، — تلك الخطوة التى رفضها مرة لنفسه — لتحسنت آماله فى النجاح . مع ذلك ، وعلى الرغم من فتور الهمة ، وتضارب الخطط ، التى امتازت بها الأدوار الأولى في زحفه غربا ، فأن ذكاءه عاد إليه . وفي ١٢ أكتوبر سبق النمساويين، ووقف برجاله في الميدان بالسرعة المعهودة . إلا أنه أخطأ التقدير في مسألة حيوية، ملخصها أنه بينما كانت الحرب مستعرة فى القرى الواقعة جنوب ليبزج ضد شفارزنبرج ، سمع نابليون فجأة دوى مدافع من شمال المدينة ، فركض إلى مصدر الصوت ، ووجد مارمون مشتبكا مع بلوخر البروسى الهرم ، الذى تقدم بسرعة نحو ليبزج من الشمال الغربى ، وابتدأ يصب جام ناره على المراكز الفرنسية بنشاط ، حتى أصبح مستحيلا على نابليون أن يسحب رجلا واحدا لاستخدامه فى الملاحم العنيفة ضد شفارزنبرج ، التي اعتمد عليها للحصول على تفوق حاسم .

كان يوم ليبزج يوما عصيبا ، ومذبحة لاتنسى . وماجن الليل على نابليون حتى كان رجلا مقهوراً ، إذ فشل فى تحطيم قلب الجيش البوهيمى ، أو بالحرى أخفق فى اختراق أى نقطة فى دائرة أعدائه . ولا غرابة فى ذلك ، فأنه بينما بلغت خسائر نابليون مبلغا جسيما وصل شفارزنبرج مدد قوى بعد الظهر . فى مثل ذلك الظرف تعد الضربة غير الحاسمة بمثابة هزيمة ، والقائد الحازم هو الذى لا يضيع دقيقة فى تخليص جيشه من مأزق يزداد خطورة ويأسا من وراء التأخير. ولشد ما كانت دهشة القواد لما لم يصدر نابليون أى أمر للتقهقر. وفى اليوم التالى — يوم أحد ماطر — كتب نابليون وهو فى فسطاطه للأمبراطور النمساوى يقترح هدنة ، ويشير إلى التسليم . إلا أن أعداءه أدركوا أنه أصبح في النهاية في قبضتهم ، فعولوا على ألا تفلت الفريسة من أيديهم ، ورفضوا المفاوضات . ولما استؤنف القتال فى اليوم التالى ، وهو الثامن عشر، كان كل الاحتياطى النمساوى فى الميدان، وكان برنادوت قد زحف بجيش يبلغ ٦٥٫٠٠٠ ، لمساعدة بلوخر فى الجهة الشمالية . ثم انجلى الجيش الفرنسى كرها عن ليبزج ، بعد أن طوقته جيوش متفوقة ، وبعد الاستبسال فى الدفاع عن كل شبر من الميدان . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر أصدر الأمبراطور أوامره للتقهقر العام ، وظلت الجيوش الفرنسية تتدافع طول تلك الليلة نحو

المدينة ، لكى تعبر نهر إلستر (Elster) فى صباح اليوم التالى . وفى ذلك اليوم وقعت الطامة الكبرى ، واندفع سيل الهاربين فى هرج لا يوصف نحو الجسر الوحيد . هناك قابل القائد شاتو (Chateau)، حوالى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم ، رجلا «غريب البزة»، وسط جمع صغير ، وعليه سيما أهل المدينة مطرقا رأسه ، سابحا في بحر من الفكر ، يردد أنشودة «ما لبروك ذهب يحارب»[1] . ذلك الرجل الغريب البزة هو الامبراطور بعينه، يردد الأنشودة القديمة، بينما يمر سراعا في مخيلته ذلك المنظر المؤلم منظر جيشه المحطم المفلول .

لم يبق بعد ليبزج إلا التسليم للظافر، لأن هيكل الامبراطورية تقوض من جراء تلك الهزة المركزية . إذ هبت ألمانيا لتطرح نير نابليون ، وانقلب الباڤاريون من أحلاف إلى أعداء ، وحاربوا الجيش المتقهقر ؛ وأعلنت هولندا ولاءها لآل أورنج ، وعقدت نابلى معاهدة مع النمسا ، وتبدد حلم المملكة الفرنسية فى إسبانيا، لما طارد ولنجتن القائد سولت على جبال البرانس . وكانت الرغبة فى الصلح شديدة فى جميع أنحاء فرنسا ، لأن الطبقات الغنية والمتنورة من الأمة نظرت منذ سنين لأعمال نابليون بعين القلق والاستهجان .

---

(١) أنشودة فرنسية مشهورة مطلعها :

" Malbrouck s'en va-t'en guerre'
Mironton, mironton, mirontaine."

أما وقد فنى جيشان عظيمان فى سنتين ، وتعطلت المصانع ، وخلت خزائن الحكومة ، وأصبحت الدولة مهددة بالغزو من الخارج ، أحس كل عاقل إحساساً شديداً بالنقمة الناتجة عن العبودية السياسية. ثم على الرغم من أن كتلة الفلاحين والجنود كانت تميل لفكرة الأمبراطورية، فأن الطبقة المفكرة من الأمة بدأت تستسلم للآراء الحرة ، وتنادى بصلح مشرف ، وبسيطرة الأمة على السياسة العامة. وقد صرحت بلا وجل الهيئة التشريعية، المكونة من رجال عاديين من الطبقة الوسطى ، بعدم ثقتها بالحكومة ، وبرغبتها فى الحرية الدستورية ، فأوقف نابليون المجلس الجسور عند حده بتأنيب عنيف. بيد أن الدول المتحالفة لمحت أنه لم يعد بين نابليون وفرنسا وفاق .

هناك صنف من الناس يأبى التفكير أو الاعتراف بالإهانة .ولكن نابليون اعترف في ساعاته الهادئة[1] بأن اتحاد الرين كان "مشروعا رديئا"، وبأن الحصار القارى كان "وهما فارغا"، وبأن الامبراطورية العظمى نعيم زال ولا يمكن استرداده أبدا . ولكن عزة نفسه أبت أن تقبل تحكيم ضميره لما قال يوما ، وهو أمبراطور ، لمجلس الدولة ، وهو يحاوره : "أتريدون الهبوط من السماء التى رفعت فرنسا إليها ، وتصبحون ملكية بسيطة مرة ثانية بدلا من إمبراطورية فاخرة ؟".

---

(١) وهو فى جزيرة سنت هيلانة .

عز عليه أن يترك فرنسا أضعف مما جعلها، أو مما وجدها. ولما جالت في فكره مسألة تخلي أحلافه استولت عليه سورة الغضب، وأقسم أن لا بد من الانتقام، إذ قال: «ولتحترق ميونخ، ولتحترق على يدي»[1]. وكان عازما في حالة اضطراره إلى التسليم ألا يستكين للاهانة زمنا طويلا، بل يستعد في ظرف عامين للحرب ثانيا. وما دام هناك بصيص نجاح في ميدان الحرب فسيتجنب ذلة المصالحة، ويعتمد على الغلطات الحربية التي يحتمل وقوع أعدائه فيها، وعلى احتمال تخلي النمسا، وعلى البسالة التي تنفجر عند ما ترى الأمة الفرنسية بلادها تغزى. لذلك كانت خطته التسويف والمماطلة في المفاوضات، حتى يظهر أمام الشعب الفرنسي بمظهر المستعد للصلح، بينما يتربص للنكاية بأعدائه عند أول فرصة.

كان ذلك التصلب في طبعه هو السبب في خرابه، لأن خطة الحلفاء لم تطلب في الأصل تنازل نابليون عن العرش، أو تغيير الأسرة المالكة. والدليل على ذلك أن الحلفاء بعثوا، في نوفمبر سنة ١٨١٣، من فرنكفورت رسولا إلى باريس ليعرض المفاوضة مع نابليون على قاعدة الحدود الطبيعية لفرنسا: وهي نهر الرين وجبال الألب وجبال البرانس. وفي ٤ فبراير سنة ١٨١٤، بعد أن أجتيحت فرنسا،

---

(١) ميونخ عاصمة باقاريا التي انقلبت على نابليون بعد واقعة ليبزج.

ووقعت أول هزيمة بالجيوش المدافعة ، كان فى مقدور نابليون أن يحفظ عرشه ، لو أنه قبل التنازل عن بلجيكا وسافوى ، والموافقة على حدود المملكية القديمة . كان الواجب على نابليون أن يصيخ لصوت فطنته الشخصية ، ويستمع لنداء الواجب الوطنى لعقد الصلح .

حدث بعد هزيمة نابليون عند لاروتيير (La Rothière)[1] ، أن ظهر على نابليون كأنما قر رأيه على أن يطاطىء الرأس : إذ خول القائد كولانكور (Caulaincourt) ، في ٤ فبراير ، سلطة غير محدودة للمفاوضة مع الحلفاء . لكنه كان فى صبيحة اليوم التالى ممتداً على أرض غرفته ، يرقش مصورا بالدبابيس . والسبب أنه بلغه فى المساء أن الحلفاء قسموا قواتهم إلى فرق ، وأن شفارزنبرج سيزحف بالجيش الرئيسى إلى باريس ، متبعا الطريق الجنوبى المحاذى لنهر السين ، بينما يسير بلوخر على رأس قوة أصغر ، مكونة من البروسيين ، شمالا إلى وادى المارن . فلما جاء ماريه ، وزير الخارجية ، للتوقيع على التعليمات الصادرة للسفير ، لمح بريق الحرب فى عين سيده الذى قال : "وإنى عازم على هزيمة بلوخر" . لكن على الرغم من تحقيق ظنه ، وإحراز ثلاثة انتصارات باهرة ، فأن هزيمة بلوخر أفقدت نابليون عرش فرنسا.

---

(١) كانت الهزيمة التى لحقت بنابليون عند تلك البلدة الواقعة فى فرنسا نفسها ، على نهر أوب (Aube) أحد فروع السين ، فى فبراير سنة ١٨١٤ ، هزيمة منكرة ، إذ وقع من جيشه ٣٠٠٠ فى الأسر ، وخسر ٧٣ مدفعا ، فضلا عن ٥٠٠٠ جندى بين قتيل وجريح من جيش يبلغ عدده أربعين ألفا فقط .

كانت الحرب الدفاعية التي قام بها نابليون فى وديان السين والمارن[1] موضع الأعجاب ، إذ ظهر فيها كيف يتمكن جيش صغير ، يدير حركاته قائد ماهر واسع الخبرة ، يتحرك على خطوط داخلية ، من إلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بعدو يفوقه عددا ، تعوزه قيادة موحدة . من ذلك الانقضاض السريع على بلوخر عند تروى (Troyes)، والثلاث الضربات المتوالية عند شامبوبرت (Champaubert) ومونميراى (Montmirail) وڤوشان (Vauchamps) ، التى أفنت مقدمة الجيش البروسي على طول نهر المارن ، ثم الانتصار على الطلائع الجنوبية عند مونتيرو (Montereau) . كانت كل تلك الأعمال التى استغرقت من ١٠ إلى ١٧ فبراير كافية للدلالة على أن الأمبراطور لم يفقد شيئا من فنه القديم . ولكنها على رغم ايقافها لتيار التقدم مؤقتا كانت غير كافية لتقرير انتصار أحد الفريقين . عند ذلك عزم أحد أعداء نابليون أن يفتح لجيشه طريقا مهما يكلفه الأمر . ذلك هو بلوخر ، الذى لم يكن نابغة ، بل جنديا غليظ القلب أميا ، يتأجج قلبه الوطنى بالانتقام للمذلات التى لحقت بروسيا . فلم يأبه للاضطراب الذى ساد المعسكر النمساوى ، ووقف لا يتزعزع ، لأنه كان من هؤلاء الذين لا يستكينون للهزيمة ، بل تقدم ثانية نحو الشمال الغربى ، وانضم إلى جيش بروسى روسى قادم من بلجيكا تحت قيادة بولو (Bülow) . وبتلك الأمدادات صد بلوخر نابليون إلى كراؤون (Craonne)

(١) انظر مصور فرنسا للتحقق من ميادين تلك الحرب الهائلة .

ولون (Laon) ، فاصبح بذلك في مركز يسمح له إما بالزحف على باريس وإما بالانضمام إلى الجيش الجنوبي. اختار بلوخر الطريق الأخير، وبينما تقهقر نابليون شرقا، ليهدد خطوط مواصلات العدو، اصطدم عند أرسيس — سير — أوب (Arcis - Sur - aube) بالجيش الرئيسي لأعدائه . ومن المستحيل على ثلاثين ألف مقاتل ، قد أعياهم التعب ، أن يظهروا على مائة ألف كانوا نسبياً على أتم استعداد . لذلك صُدّ نابليون ، لكنه على الرغم من ذلك ، واصل سيره شرقا بضعة أيام، بدت فيها قدرته العظيمة . إذ يقول بعض النقاد باستحالة اتباع أية خطة أكثر ملاءمة من الخطة التي هيأها نابليون فى الأيام السابقة مباشرة لواقعة ارسيس : لأنه بجمعه حاميات الألزاس واللورين ، يمكنه تكوين جيش قوى يقطع به مواصلات الحلفاء ، ويزيد فى انقسامهم . إلا أن الخطة نفسها أهملت ، وبمجرد سماعه أن الغزاة يزحفون على باريس عزم على الاشتباك فى آخر واقعة له قرب العاصمة ، لكن العدو سبقه إليها بثلاثة أيام ، وسلمت لقيصر الروسيا قبل أن يتمكن نابليون من دخولها .

ولما حيل بين نابليون وبين العاصمة على ذلك الوجه ارتد إلى قصر فونتنبلو (Fontainebleau) قرب باريس ، متشوقا — لو وافقه قواده — إلى إستمرار النزاع ضد سلام أوربا ، والمصالح الحيوية فى فرنسا . لكن القواد سئموا حالة قل فيها الرجاء ، فأرادوا الاطمئنان على مستقبلهم قبل ضياع الفرصة . وليس من الممكن أن نعتبر هؤلاء

الرجال القادرين المخلصين مجرمين ، لما أشاروا على نابليون بالتنازل ، لعلمهم أن ملوك أوربا أرادوا ذلك ، وأن مجلس الشيوخ قرر نفس الطلب ، وأن جمهور الباريسيين متفق معهم . وكان أملهم أن يسمح للامبراطور بالتنازل لولده ، وأن تبقى الأسرة النابوليونية الحاكمة فى فرنسا . لكن القيصر ، الذى استولى تاليران على أذنه للتشفع لآل بوربون ، قرر أن يطلب من نابليون التسليم بلا شرط . ثم قبل القواد القرار بعد أن حاولوا تعديله بلا جدوى . وفي ٦ إبريل ألحوا على سيدهم لكتابة تنازل عن عرشى فرنسا وإيطاليا ؛ وبعد ذلك بخمسة أيام أمضيت معاهدة تمنح نابليون السيادة على جزيرة إلبا ، وحرساً خاصاً، ومخصصا ماليا . قيل أن نابليون تجرع سما ليلة رحيله من فونتنبلو إلى جزيرة إلبا. ولكن التاريخ يكذب تلك الرواية ، فمثل ذلك القنوط لم يكن من خلق رجل عرك الدهر ، ودرس كثيراً من مصادفات الأقدار ، وشعر فى أشد الأيام محنة أن عمله لم ينته بعد ، إذ قال يوما : „ سأظل دائما رجلا فوق مستوى البشر ‟ .

بينما يسير نابليون جنوبا مخترقا ولاية بروڤانس الملكية تشيعه اللعنات ، إذا برجل هرم شرس دميم مثقل بداء النقرس ، أقام مدة فى مزرعة جميلة بين المراعى الخضراء في مقاطعة بكنجها مشير بانجلترا ، يتأهب لتولى الحكم فى باريس[1].

---

(١) يشير المؤلف إلى لويس الثامن عشر ملك فرنسا بعد نابليون.

الفصل العاشر

الدور الأخير

تعتبر الحلقة التالية فى حياة نابليون أغرب حوادث التاريخ .مضى نابليون فى أوائل تلك الحلقة عشرة شهور يحكم مملكته الصغيرة ، ثم ما لبث أن أنسل فجأة بطريق البحر ، ونزل إلى شاطيء فرنسا على رأس ١٢٠٠ رجل ، وسار متجنبا أهل بروڤانس الملكيين ،مخترقا الممار الجبلية حتى جرينوبل (Grenoble) ، ومنها أسرع إلى باريس دون وقوع حرب أو مناوشة ، وبدون تبادل إطلاق النيران ، أو إراقة قطرة من الدماء ، فوصلها وتسلم مقاليد حكم الدولة . وهنا لايفوتنا أن نذكر أن الجيوش التى أرسلت لرده عن باريس انضمت إليه بتأثير شخصيته الساحرة . وتفصيل ذلك أنه لما وقف رجال الفرقة الخامسة فى طريقه عند ممر لافريه (Laffray) الضيق ،فى الجهة الجنوبية لبلدة جرينوبل ، جاء إليهم نابليون فاتحا معطفه الرمادى ، وطلب إليهم أن يطلقوا النار عليه ، قال : « أيها الجنود ! يمكنكم أن تطلقوا ناركم .

ألا ترون فيّ عاهلكم ؟ ألست قائدكم القديم ؟ ليس الطمع هو الذى حدا بى إلى هنا ، وإنما طلبنى من جزيرة إلبا الخمسة والأربعون رأساً المتولية أمر الحكم في باريس، وقد وافقت الثلاثة الدول الأولى فى أوروبا على رجوعى". عمى الناس عما ورد فى قوله من الأضاليل ، وقابلوه على طول الطريق بحماسة شديدة. فلو كان الأب البار بشعبه ، وقضى السنين الطوال في السهر على حل ضائقة العسر عن الفقراء ، لما كان من الممكن مقابلته بأكثر تهليلا ، كأنما نسى الناس فجأة ضرائب أيام الحرب والحصار، وضحايا النفوس. وبالاختصار افتتن الناس على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم بحديثه معهم ، لاسيما عند ما خرج من عربته ليعانق حداداً جمهوريا كهلا ، وليحاور تلميذا فى تاريخ بلده ، وليتكلم مع أديب باهتمام عن ترجمة سترابون [1]، ومع بعض المحامين عن عزمه على إصلاح قوانينه. ولما تسربت إلى باريس أخبار تقدمه الناجح ، وعدم القبض عليه ، انقلب غضب الملك قلقا وفزعا وقنوط. وما وصلت عربة نابليون إلى قصر التويليرى ، مساء ٢٠ مارس،

---

(١) ولد إسترابون (Strabon) الجغرافى الاغريقى الشهير حوالى سنة ٦٤ ق.م بمدينة أماسيا (Amasia) بأقليم بونتس (Pontus) جنوبى البحر الاسود. ومات فى أول حكم الامبراطور طيباريوس (Tiberius). وله مؤلفان عظيمان أحدهما تاريخى ، ويشتمل على ٤٧ كتابا لم يصلنا منها إلا القليل، والآخر جغرافى ويشتمل على ١٧ كتابا ، وصف فيها بلاد الدولة الرومانيه، وأتى بنبذ عن أخلاق أهلها وعاداتهم ونظام أممهم وتقاليدهم .

المطر حتى كان الملك الهرم قد غاب وحاشيته عن باريس ، وترك المدينة لرجال الامبراطورية .

لا يرجع السبب فى تلك المعجزة إلى مؤامرة مدبرة . وإنما فر نابليون من إلبا ، لأنه كان يحفظ بين جوانحه من النشاط مالم يكن في الحسبان ، ولم يجد فى الأمور التافهة الخاصة بمملكته الصغيرة ما يستنفد ذلك النشاط . ونجح فيالوصول إلىباريس ، لأن طبقتين من الناس — الجنود والفلاحين — كانتا تودان أن تريا الحكومة البوربونية تُجازى جزاء وفاقا على ما اقترفت من أعمال . وليس معنى ذلك أن حكومة لويس الثامن عشر كانت فاسدة أو مستبدة ، بل أن سياستها كانت قائمة على توطيد السلام وتخفيض النفقات ، فمنحت بمقتضى دستور مكتوب نصيبا من الحرية السياسية والمدنية ، أكبر مما تمتع به الناس على عهد نابليون . إذن لا يحق لأحد أن يتهمها بسوء النية ، أو تعطيل نهوض الأمة . لكن عدم استنادها من أول الأمر إلى تأييد الأمة ، جعلها تثير الشعور القومى ضدها ، بسبب سلسلة من الأعمال غير الحكيمة . فمثلا أغضبت الجيش باتباع سياسة متطرفة فى تقليل النفقات ، وأغضبت الفلاحين بترويج الاشاعات القائلة بأن نظام توزيع الأرض ، الذى أحدثته الثورة ، سينسخ عما قريب .

بإزاء تلك الحكومة الرجعية الجامدة ، التى تولتها عصبة من

الملكيين ، لاح نابليون كبطل الثورة الفرنسية : إذ علم كل فلاح ، أن «الأونباشي القصير» لن يطالب منه أن يرد الأرض التي كان يملكها الملتزم ورئيس الدير قبل الثورة ، وأنه مهما تكن الخسائر التي تنتج عن حكمه ، فلا خوف على الأقل من القسيس والمهاجر فى ظل نابليون ، ابن الشعب ، الذى يفهم عقولهم ، ويعرف ماتكنه قلوبهم ، والذى كانت صورته معروفة فى كل دار ، وأحاديث انتصاراته تروى وتردد فى كل مكان ، حتى أصبح مثل شارلمان جزءاً من الأساطير القومية ، يدعى بألقاب إعزاز طريفة ، وتؤلف حول شخصه قصص لا تحصى . أما حكامها المستجدون فكانوا على عكس ذلك ، لا تعرف عنهم فرنسا سوى أنهم عاشوا خمسة وعشرين سنة منفيين محتجين على أعمال الثورة الفرنسية ، وقد عميت أبصارهم عما أتته الامبراطورية من الأعمال الجليلة . وعلى الرغم من كل ما أوتى شاتوبريان (Chateaubriand)[1] من البلاغة فى أسلوبه ، الذى يأتى فى المرتبة الثانية بعد أسلوب روسو أكبر ملوك البيان فى النثر الفرنسى — فأن الأسرة القديمة لم تصادف

(١) ولد فرنسوا رينيه شاتوبريان (François René Chateaubriand) سنة ١٧٦٨ . هاجر من فرنسا إبان الثورة الفرنسية ، وظل عدة سنين يعيش عيشة ضيقة فى لندن. ثم تمكن من العودة لباريس سنة ١٨٠٠ ، واشتغل بالكتابة والتأليف ، حتى أصبح ممن يشار إليهم بالبنان. وفى أثناء ذلك دخل فى خدمة نابليون ، ثم استقال من منصبه بسبب إعدام الدوق دانجيان ، واخذ يتنقل بين دول الشرق . ولما سقط نابليون رجع إلى فرنسا ، ثم عين سفيراً لفرنسا فى إنجلترا فى عهد لويس الثامن عشر ، ومات عام ١٨٤٨ .

هوى فى قلوب الناس : إذ كرهها البعض لسالف تاريخها ، واحتقرها البعض الآخر لماضيها السيئ ، وخشيت الأكثرية ماعساه أن تعمل إذا هي تسلمت مقاليد الأمور . أجل ! لم يكن هناك خوف على الدستور فى عهد لويس الثامن عشر ؛ لكن الكونت دارتوا أخا الملك ، والوارث للعرش ، كان متعصباً دينياً ضيق الأفكار ، مبدؤه السياسى الحكم المطلق، الخاضع لأشد طبقات الكنيسة تعصبا.

وجد نابليون ضالته في تلك الحالة ، التى كان عليها الرأى العام من الريبة والسخط . لذلك كان يجوس خلال الديار ،يتكلم أحيانا بلغة اليعقوبيين ، وأحيانا بلغة الأحرار ، مما يروق سامعيه . فكان يقول للفلاحين إنه يقف حياته على درء خطر المبادئ الأقطاعية والدينية ؛ ويقول لأهل المدن إنه فاتح اعتزل الحرب ، قد ندم على مافعل ، وامتلأ قلبه بحب الحرية والسلام . ولما وجد أن لا شيء يخشاه الناس بوجه عام أكثر من ذكر الحرب مرة أخرى ، صور نفسه للناس رجلا ارتكب بلاشك أغلاطا أوحى بها الطمع ، غير كلف فى الحقيقة بحياة كلها فتوح خارجية ، أو بسياسة تخمد أنفاس الناس فى الشئون الداخلية . ثم أبان أن المثل الأعلى الذى سعى لتحقيقه مدة حياته ، هو تكوين اتحاد أوربى بقيادة فرنسا ، وأنه ليس من العدل أن يحكم الناس عليه بما أقامه من النظم فى وسط مشاغل الحرب

وأهوالها ، أو على السياسة التى كانت قسوتها نتيجة ضرورية لظروف متقلبة . وقال إنه كان يتوق لجعل فرنسا سيدة أوربا ، لكن النكبات التى حلت به علمته أن ذلك المطمع الذى سبقه إليه الكثيرون فوق المستطاع . على أن جزءاً لم يتحقق بعد من برنامجه، لا يزال ممكنا إنفاذه، وهو إعطاء فرنسا تلك النظم الحرة ، التى تأجلت بسبب صعوبات الحرب. بتلك التصريحات، التى فاه بها، حمل كارنو (Carnot) الجمهورى القديم على قبول وزارة الداخلية ، ودعا على الفور بنجامان كونستان (Benjamin Constant)، كبير علماء شرائع الأمم ، من حزب الأحرار، لرسم دستور جديد .

لو كان فى استطاعة الامبراطورية أن تتمشى حقامع الحرية والسلام ، لما وجدت الأمة الفرنسية حكومة أوفق لحاجاتها منها . وليس أدل على ذلك من أنه بعد وفاة نابليون ، بزمن طويل ، ظلت نظم الكنيسة والقوانين النابليونية والجامعة كما تركها مهندسها الأعظم، كما ظلت التقاليد الفرنسية نابوليونية تحت حكم ولاة نبذوا نبذ النواة ما للامبراطورية من الحقوق. إنما الذى قلل من عظمة نابليون هو الشك ، الذى تحول اعتقاداً راسخاً بين الفرنسيين ، أن الحرب والاستبداد جزءان لا يتجزآن ولا يتغيران من طبيعة نابليون . وقد كان محو ذلك الاعتقاد أول ما عليه الحزم ؛ ولذلك عزم نابليون على إحاطة مبادئه الحرة الجديدة

برضى الأمة من طريق الاستفتاء العام ، وبالهيبة التى تنتج عن الاحتفال فى باريس بنزوله على إرادة الأمة . وفى أول يونيه ، وسط جمع كبير دُعى إلى شان دى مارز (Champs de Mars) بباريس ، أقسم الأمبراطور يمين الطاعة للدستور الجديد ، الذى ضمن حرية الصحافة ، ومسئولية الوزراء ، والحكم النيابى . ولكن الرسميات والاحتفالات لا تغير الحقائق ، التى منها أن وجود مجلس نيابى حر ووجود نابليون أمران لا يتفقان . والدليل على ذلك أن الأمبراطور على الرغم من قبول القانون الأضافى كان عازماً - كما نوه فى سنت هيلانه - أن يحل الهيئات النيابية فى أول فرصة يوفق فيها للانتصار في الميدان .

ثم إذا كان هناك أمل أن أوربا سترضى رضاء سلبياً عن رجوع نابليون ، بعد ما قضت السنين الطوال ، وبذلت المهج ، في سبيل إخضاعه ، فقد أضحى الأمل سراباً : إذ لم تكد أنباء فراره تصل إلى ڤينا ، حتى اجتمع المفوضون عن الدول الثمانية الكبرى ، وقرروا أن نابليون أصبح طريد القانون . بعد ذلك مباشرة تعاقدت بريطانيا والروسيا والنمسا وبروسيا على أن تجهز كل منهما ١٥٠٫٠٠٠ جندى إلى الميدان ، وإبقائهم تحت السلاح „ حتى يصبح بونابرت عاجزاً تماماً عن تكدير صفو الأمور من جديد “ . بيد أن نابليون على الرغم من ذلك كله ، لم يعدم الأمل من فصل إنجلترا والنمسا عن حلقة

أعدائه . وقوى ذلك الأمل فى قلبه علمه أن مشادة وقعت فى مؤتمر
فينا بخصوص مصير بولندا وسكسونيا ، كانت الروسيا بأزائها فى جانب،
و إنجلترا والنمسا وفرنسا فى جانب آخر . وعلى الرغم من تسوية المسألة
بسلام ، حسب نابليون أن الشعور بالتباغض والارتياب لم يزل قائماً.
على ذلك أرسل إلى النمسا وبريطانيا كتبا يؤكد رغبته فى إقامة السلام،
وقبوله الحدود المقتضبة، التى أصبحت لفرنسا ، فلم تقبل إحدى الحكومتين
وعوده . الحقيقة أنه لو كانت هنالك فرصة لتغير موقف النمسا، فأن تلك
الفرصة ضاعت فى إبريل، لما قام يواقيم مورا ملك نابلى من تلقاء نفسه ،
وخرج من نابلى، وغزا الولايات البابوية، داعيا الأمة الإيطالية إلى
الثورة ، وإلى قبوله ملكا على إيطاليا كلها.

فُصل في النزاع بين نابليون وأوربا فى باجيكا ، حيث اجتمعت طلائع
جيوش الحلفاء ، المكونة من جنود إنجليز وهولنديين وبلجيكيين
وألمانيين تحت قيادة الدوق ولنجتن ، ومعها جيش بروسى بحت،
كان بلوخر مصدر قوته، وجنيسناو (Gneisenau) رأسه المفكر.
كان من المحتم أن يطلب نابليون عدوه فى البلجيك ، حتى ولو اضطر
إلى ذلك بجيش قليل العدد . إذ من الحمق من الوجهة الحربية ، ومن
الخطر من الوجهة السياسية ، أن ينتظر في وسط فرنسا ، حتى تعبر
جيوش الحلفاء الحدود. ولقد كان خير الطرق بلاشك أن يهزم نابليون

البروسيين والأنجليز ، قبل أن تتأهب جموع الروس والنمساويين للنزول إلى ميدان القتال . وعلى الرغم من أن القوة ، التى كانت معه ، لم تزد كثيرا على نصف عدد جنود العدو — إذا استثنينا الجنود التى خصصت للاحتياطى ضد قيام فتنة فى لافنديه ولحماية الحدود — فأن هذا الجيش على صغره كان مكونا من جنود لا يقلون في دربتهم ، ولا فى نفسيتهم ، عن أى جيش قاده نابليون . ولذلك لم يكن مستحيلا أن يهزم نابليون بذلك الجيش أعداءه هزيمة منكرة ، وأن يستولى على الأراضى المنخفضة ، وأن يثبت ثقة فرنسا به . لذلك أيضاً أعدت منشورات محررة فى بروكسل ، لأرسالها من هناك بعد الانتصار .

لم تنشر تلك المنشورات . غير أنه لو انتصر نابليون في واترلو ، لما أمكن تلافى النكبة ، التي لم يكن لوقوعها بد . ذلك أن الكتلة العامة لجيوش الحلفاء — وكانت القوات المرابطة فى بلجيكا جزءاً صغيراً منها — بلغت ٨٠٠,٠٠٠ مقاتل ، تظاهرهم قوات احتياطية لا حد لها من الأمم الأوربية الحاقدة ، حيث كان الشعور شديداً ، لدرجة أن فرنسا مهما تحافظ على حماستها المتأججة ، التى جاشت بها إبان الثورة الفرنسية ، ومهما يملك نابليون من النشاط النادر ، الذى ملأه في حداثته ، فمن المحتم أن يخسر الحرب . هذا وقد تغيرت الحال غير الحال ؛ ففى سنة واترلو كانت فرنسا (إذا استثنينا جيشها المنظم

الصغير) أمة زالت عنها الأوهام؛ وكان نابليون اليوم غيره بالأمس. نعم أنه ظل مدهشاً فى نشاطه وحسن تصريفه؛ لكنه كان أقل ثقة بنفسه ، وأقل شدة ، وأقل تدقيقا عنه من قبل . ثم لم يكن من المنتظر أن تشايعه أمة أصبح الرأى السائد بين الطبقات الوسطى فيها المناداة بالسلم والحرية بمثل ما كان يشايع به قديما من الثناء. ولم يكن الرديف ، الذى جنده بسرعة من البحارة والشرطة والحرس الأهلى وحرس الجمارك ، يصلح لأمداد جيش منظم - مع العلم أن نابليون لم يستطع ، على رغم ما بذل من المجهود، أن يحصل على أكثر من ٨٤٫٠٠٠ رجل . ظاهر إذن أن واقعة واترلو ليست إحدى الوقائع العالمية الحاسمة ، التى لو كانت نتيجتها غير ما كانت لتغير مجرى التاريخ . فإن نابليون كان رجلا مقهوراً قبل أن تدوى أول طلقة . غير أن الواقعة معروفة بحق بأنها الحادثة الوحيدة ، التى وجد نابليون نفسه فى مواجهة الأستاذ الأنجليزى العظيم فى حرب المشاة ، وبأنها الواقعة التي انتهت عندها سيادة فرنسا في أوربا ، والتي ختمت ذلك النزاع الطويل ، الذى قام بين مبادئ الثورة الفرنسية وبين التقاليد الأرستقراطية والكنيسة ، الموروثة عن القرون الوسطى .

كان التفوق العددى الهائل في جيوش الحلفاء هو العامل الأكبر فى واقعة واترلو ، حيث كان من المستحيل على الفرنسيين الانتصار

على قوات بلوخر وولنجتن مجتمعة . على ذلك كانت خطة نابليون أن يقطع وسط الخط البروسى الأنجليزى ، الممتد على طول الحدود البلجيكية ، وأن يقضى على ما يأتى فى طريقه من أيهما . امتازت الأدوار الأولى فى تلك الخطة بالسرعة والتكتم والدقة : ففى مساء ١٤ يونيه اجتمع الجيش الفرنسى بجوار شارلروا [1]، فى حين أن القوى الأنجليزية والبروسية ظلت مبعثرة على خط يبلغ طوله مائة ميل ، من ليبج إلى غنت . هنا حدث تأخير لم يكن بذى خطر كبير على آمال نابليون في النجاح ، إلا أنه كان ذا قيمة عظيمة لأعدائه . ذلك أن عبور نهر السامبر (Sambre) ، الذى وجب القيام به بعد ظهر يوم ١٥ ، لم يتم إلا ظهر اليوم التالى . والنتيجة أن نابليون لم ينزل للقتال فى اليوم السادس عشر ، حتى كان الحلفاء قد أحاطوا بالخطة علما . فأسرعت الجيوش الأنجليزية والبروسية للاتصال بعضها ببعض لمنع تقدمه ؛ ولم يحن ظهر ذلك اليوم إلا وقد جمع بلوخر عند لينى (Ligny) ثلاثا من الفرق الأربع المؤلف منها جيشه (البالغ عدده ٩٠٫٠٠٠ تقريباً) ؛ بينما أرسل ولنجتون الأمداد بسرعة إلى كاتربرا (Quatre Bras) ، على مسافة ستة أميال تقريباً غربى الخطوط البروسية ، الممتدة على طريق بروكسل – شارلروا . هـذا وكان الدوق قد قابل القائد البروسى فى

---

(١) انظر مصور رقم ٧ – البلجيك – للتحقق من ميادين آخر الحروب النابليونية .

الصباح ، ووعده بالتقدم لمساعدته إن هو لم يهاجَم .

من خصائص القائد العظيم أن يهيمن على حركات جيشه ، بحيث يتمكن بسرعة من أن يجعل مركزه ملائما لأى ظرف من الظروف الفجائية المحتمل وقوعها . رجع نابليون إلى معسكره عند شارلروا الساعة الثامنة مساء اليوم الخامس عشر منهوكا ، لبقائه على صهوة جواده سبع عشرة ساعة . غير أن قلبه دق طربا ، لعلمه أنه نجح في عبور نهر السامبر ، وأنه رد إلى الوراء المراكز العسكرية الأمامية، التابعة لفرقة زيتن (Zieten)البروسية، والتى أرسلت لستر موقف الحلفاء . وفيما عدا ذلك لم تكن لدى نابليون معلومات وثيقة ، سوى أن الفرق البروسية الأربع مبعثرة على مساحة واسعة ، وأنه لا يحتمل التئامها بسرعة للقتال فى اليوم التالى . ولذلك قسم جيشه قسمين ، نصب القائد ناى على الجناح الأيسر، والقائد جروشى(Grouchy)على الجناح الأيمن،وأبقى تحت قيادته احتياطيا يمد به أحد الجناحين حسبما تستدعى الظروف . صدرت الأوامر إلى القائد ناى ليكون على تمام الأهبة للتقدم نحو بروكسل عن طريق شارلروا ، وأعطيت تعليمات إلى الجناح الأيمن للزحف على فلوريس (Fleurus) ، ولمهاجمة من يجد هناك من البروسيين . اعتقد نابليون أن البروسيين لن يتيسر لهم الوقوف أمام زحف جروشى بأكثر من أربعين ألف مقاتل ، وأن ناى سيلقى صعوبة

قليلة في اختراق المراكز الأمامية الشرقية ، التابعة للجيش الانجليزى الهولندى . ومن ثم تتحول الحال العامة بطبيعتها إلى أحسن ما يرام . إذ بعد تحطيم الفرقة البروسية ذبر المحمية عندفلوريس ، بفضل تفوق الفرنسيين ، يتحول الامبراطور غربا لمساعدة ناى ، ويدخل بروكسل فى صبيحة اليوم السابع عشر ، ومن هناك يتقدم للقضاء على الجيش المختلط تحت قيادة الدوق ولنجتن .

وعلى الرغم من إخفاق ذلك التقدير إخفاقا تاما ، بسبب سرعة التئام جيش بلوخر ، فأن خطط نابليون كانت موضوعة بحيث يمكن تسويتها مع كفالة نجاحها أكثر فى الأحوال الجديدة . ذلك أنه لما وجد نفسه عند لينى أمام الجيش الرئيسى البروسى ، المؤلف من تسعين ألف مقاتل — لا أمام جزء منه مكون من أربعين ألفاً — قر رأيه على تطويق عدوه ؛ وأرسل إلى ناى يأمره أن يترك بجيشه ، أو على الأقل بجزء منه ، الطريق المؤدية إلى بروكسل ، وأن ينقض على جانب البروسيين ومؤخرتهم ؛ وقرر أيضاً أنه بينما يقوم ناى بذلك ، يشتبك هو على رأس ستين ألفاً مع البروسيين ليحيط بجناحهم الأيسر ، ثم ينقض على جناحهم الأيمن وقلبهم . بدأت تلك الخطة فى الساعة الثالثة ، حين قال الامبراطور لجيرار (Gérard)[1] : »من الممكن

---

(١) ولد الكونت إتين موريس جيرار (Comte Etienne Maurice Gérard) سنة ١٧٧٣ . دخل الجيش متطوعا وأظهر مهارة فائقة . ولما عاد نابليون من جزيرة إلبا ، قاد جيرار

أن يقرر مصير الحرب بعد تلك اللحظة بثلاث ساعات . وإذا نفذ ناى أوامرى بدقة ، فلن يفلت من يده مدفع واحد من مدافع الأعداء ،، .

كاد يتقرر مصير الحرب فى ميدان لينى ، الذى كان آخر انتصارات نابليون وأشدها فى العنف ، مما نقش فى قائمة الملاحم العنيفة التي اشترك فيها . إذ انجلى البروسيون عن مراكزهم فى الساعة العاشرة و، مدحورين اندحاراً لا يتصوره العقل،، ، كما تنبأ لهم الدوق ولنجتن. غير أنهم ظلوا قوة منظمة، قادرة على التقهقر بتماسك وانتظام . وعند الغروب وجه نابليون فرقة الحرس نحو قاب الجيش البروسى ، حتى أجلاه عن الميدان . لكنه لم يحرز النصر المنشود ، ويرجع السبب فى ذلك إلى سلسلة طويلة من الغلطات اضطرته إلى الاشتباك فى المعركة ، دون أن تصله مساعدة رجل واحد من مركز قيادة ناى . وأول تلك الغلطات أن القائد ناى الشجاع المملوء نشاطا ، الذى كان أركان حربه عبارة عن ياور عسكرى فقط — تقدم على طول طريق بروكسل بتأنيه المعهود ، الذى جر عليه تلك المرة النكبات . فبدلا من اقتحام مراكز العدو فى كاتربرا، في الساعة التاسعة أو الحادية عشرة،

فرقة فى لينى وجرح فى واترلو . وبعد سقوط نابليون، أبعدت الحكومة الجديدة جيرار عن فرنسا، ولم يتمكن من العودة إليها حتى عام ١٨١٧ .وظل جيرار حتى عين مارشالا فى الجيش الفرنسى سنة ١٨٣٠ ،واختاره الملك لوى فيليب وزيرا للحربية . وتوفى فى باريس عام ١٨٥٢ .

حين كان أمير أورانج لايملك سوى ٧٫٨٠٠ مقاتل تحت إمرته ، فإنه أجل القتال إلى ما بعد الظهر ، حين وصلت الأمداد لعدوه ، الذى بلغ عدده أربعة أمثال عدده فى المساء . ولذلك كان ناى غارقاً إلى منكبيه فى كاتربرا ، لايستطيع أكثر من منع ولنجتن عن مساعدة بلوخر. على الرغم من ذلك كان هناك عامل لو استخدمه نابليون لنال النصر الكامل الذى ابتغاه لتقرير مصير القتال . ذلك أن فرقة القائد ديرلون (D'Erlon) المؤلفة من عشرين ألفاً ، والتابعة لقيادة ناى ، كانت تسير متأخرة نحو كاتربرا ، حتى أتى فى الساعة الرابعة وربع الساعة ياور عسكرى من قبل نابليون بتعليمات مكتوبة، تأمر الفرقة بالسير فوراً نحو لينى . اتجهت الفرق الأربع شرقاً ، حتى أصبحت على مرأى من نابليون في مكان غير منتظر . إلا أن أمراً من ناى وصل إليها يلح فى طلب العودة فوراً إلى كاتربرا . أطاع ديرلون أمر رئيسه المباشر ، فدل بذلك على عدم تبصره ؛ وبذلك مضت تلك الفرقة ، المؤلفة من عشرين ألفا ، في طريقها جيئة وذهابا بين الميدانين ، دون أن تعمل شيئا ؛ وكان من المحتمل أن تقرر مصير القتال فى أحدهما .

كانت قيادة نابليون في الميدان حتى تلك النقطة ممتازة بعزم ومهارة. فقد أدهش أعداءه بالسرعة والتكتم فى زحفه ، وأصاب موضع الضعف فى مكان الاتصال بين الجيوش المعادية ، وأجلى البروسيين

بعد أن حملهم خسارة خمسة عشر الفا . إلا أن عدم التمكن من القضاء على بلوخر، قضاء سريعا مبرما، يرجع إلى أسباب لم يكن لنابليون عليها سلطان ، مثل زداءة التعاون بين فرق ناى ، وغلطة ديرلون ، وفساد أعمال أركان الحرب فى كلا الجناحين. لكن ، فى صبيحة ١٧، وقع نابليون فى غلطة خطيرة ، لاتقل عن تراخى ناى فى زحفه إلى كاتربرا ، أو غياب ديرلون عن ميدان لينى . ذلك أنه استنتج بناء على خليط من التهاون واعتلال الصحة والاعياء ، لابناء على تمحيص الحقائق تمحيصا كافيا، أن البروسيين لم تعد فيهم قوة للقتال ، وأنهم يجرون أذيال الخيبة في حيرة مرعبة تاركين ولنجتن ، متتبعين طرق مواصلاتهم عن طريق نامور ولييج . لذلك تخلل حركاته الحربية ساعات كلها سكون كان فيها حتفه : فمثلا طاف راكبا حول ميدان القتال لترويح النفس ، وتحدث مع قواده عن الحالة السياسية في باريس ، بل وفكر في تسريح جيشه للراحة يوما كاملا . ولم يصدر التعليمات النهائية إلى جروشى إلا عند الظهر ، ليتعقب البروسيين على رأس ٣٣٠٠٠ مقاتل و ٦٩ مدفعا ؛ ولم يذهب لنجدة ناى إلا الساعة الثانية بعد الظهر . فلو أنه قام بذلك الزحف قبل ذلك بأربع ساعات ، لأمكنه مهاجمة الدوق ولنجتن بجيش يبلغ ضعف عدد جيش الدوق. إنما الذى حصل أنه جاء متأخراً قليلا ليفسد حركة التقهقر ، الذى سببه المطر الهاطل

كالسيل ، وما قامت به الخيالة البريطانية من الأعمال الباهرة [1].

في تلك الليلة الممطرة من يوم السبت اتخذ الدوق مركزه على مون سان جان (Mont St. Jean)، وهي أكمة واقعة على مسافة أحد عشر ميلا جنوب بروكسل ، اختارها الدوق بثاقب نظره لصلاحيتها لأساليبه في الدفاع . وفي مواجهته ، على بعد ١٣٠٠ ياردة ، مرتفع معروف باسم لابل ألاايانس (Le Belle Alliance) — نسبة لاسم مزرعة واقعة على قمته — كانت تصل طول الليل كتائب متتالية من جيش متعب جائع يقوده نابليون . إلا أن الأمبراطور كان أثقل مدفعية وأكثر رجالا : إذ كان يمكنه أن ينصب ٢٤٦ مدفعا مقابل ١٨٤ ، وكان يمكنه أن يسير ٧٤٫٠٠٠ مقاتل مدربين مقابل ٦٧٫٠٠٠ منهم أربعة وعشرون ألفا فقط من الأنجليز .

حصل الاتفاق على الدفاع عن مون سان جان بعد التحقق من إرسال مساعدة بروسية . وفي باكورة يوم ١٧ ، تلقى ولنجتن خبرا مؤداه أن البروسيين يتقهقرون ، لا شرقا كما كان يتوقع نابليون، بل شمالا في اتجاه الواقر (Wavre) — وهي قرية على بعد ثلاثة عشر ميلا تقريبا من ميدان واترلو . رد الدوق على الضابط، الذي حمل إليه

---

(١) علم الدوق ولنجتن بواقعة ليني في الساعة السابعة صباحا . أما نابليون فلم يصله شيء من اخبار القائد ناي ، ولم يكن في مقدوره حينئذ ، بعد تلك الواقعة ، أن يتحرك قبل الساعة الثامنة صباحا . (المؤلف)

ذلك النبأ ، أنه إذا أمكن الاعتماد على المساعدة ، ولو بفرقة بروسية واحدة ، فأنه يظل فى انتظار نابليون عند مون سان جان ، ويشتبك معه في القتال ، وإلا يكون مضطرا لتضحية بروكسل ، وللتقهقر إلى ما وراء نهر الشلت . ثم وردت رسالة ، فى ساعة متأخرة من مساء السبت إلى مركز القيادة البريطانية العليا ، أدت إلى تقرير الانتظار . ومؤدى تلك الرسالة ، أن جيش بلوخر يتجمع عند الواقر ، وأن في أمكان الدوق أن يعتمد على مساعدته . وعلى ذلك لم يكن من سوء التقدير ، مع اعتبار الأوحال التى تملأ مفترق الطرق ، أن تصل المدافع البروسية حوالى الظهر ، فتصوب نيرانها علي الميمنة الفرنسية ، وتخفف الضغط الواقع على المراكز البريطانية .

كان ولنجتن هو المنتظر فى تلك اللعبة ، بينما كان الدور على نابليون . وكانت الخطة الانجليزية تنحصر فى الدفاع عن أكمة مون سان جان ، حتى تصل الفرقة البروسية الوحيدة ، التى انتظرها ولنجتون ، والتى قال بدقته المعهودة إنها الشرط الأساسى للنجاح . غير أن نابليون تأخر حتى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين صباحا لبدء الهجوم ، مع أن الحالة كانت تستلزم الاهتمام بالدقائق والثوانى . وقد عُلل ذلك التأخير بوصول بعض الأمداد الفرنسية بعد الأوان من جهة ، وبحالة الأرض ، التى جعلتها الأمطار أوحالا

تعذر معها نقل المدفعية والخيالة من جهة أخرى . ومهما تكن اهمية تلك الاعتبارات ، فأن نابليون لم يكن ليحفل بها ، لو أنه ظن أن تسعين ألفا من البروسيين ، على مسيرة أربع ساعات من معسكره ، قد عقدوا النية على الانضمام لولنجتن فى أثناء اليوم . إلا أن نابليون ، على الرغم من وصول خبر من القائد جروشى فى الساعة الثانية صباحا ينبئه باحتمال زحف البروسيين نحو الواڤر ، استبعد احتمال إفساد بلوخر عليه كل حركاته الحربية ، على اعتقاد أن الجيش البروسى قوة قهرت وخارت عزائمها ، لا تزيد على أربعين ألفا ، ولت الأدبار ، وشطرت شطرين : انساب الأول شرقا نحو ليبج ، والثانى شمالا نحو بروكسل . وعلى ذلك أرسل في الساعة العاشرة صباحا رسالة إلى جروشى لمهاجمة البروسيين عند الواڤر ، ولم يهلع كثيراً لما عرف ، عند الساعة الأولى بعد الظهر ، أن فرقة بولو القائد (Bülow) البروسية على مدى البصر : إذ عدها فرقة واحدة لا تزيد على ثلاثين ألف مقاتل ، وليس وراءها مايظاهرها ؛ فلو تحرك جروشى بسرعة من جمبلو (Gembloux) ، لأصبحت تلك الفرقة بين نارين ولقضى عليها القضاء الأخير . فى ذلك الوقت قال نابليون للقائد سولت : "كان بيدنا فى هذا الصباح تسعون بنطا فى صالحنا ، والآن لا يزال عندنا ستون مقابل أربعين" .

بذلك التفاؤل الذى يترتب طبعا على الشجاعة والحيلة ، والذى

يكون أحيانا حليف الرأى العنيد ، أزدرى نابليون ولنجتن ورجاله . فقد قال لسولت ، الذى أسف لفصل قوة كبيرة كتلك التى ذهبت تحت قيادة جروشى ، لأنه عرف الانجليز فى الحروب الأسبانية : ,, أؤكد لك أن ولنجتن قائد ردىء وجيشه ردىء مثله ،، . ثم أنه لم يصدق رىْ (Reille) ، وهو قائد آخر شهد الحرب الأسبانية ، في قوله أن المَشاة البريطانية لا يؤثر فيها الهجوم المباشر ، ولا يمكن التغلب عليها إلا بالخدع العسكرية ؛ بل عقد النية على استخدام خطط المفاجأة السريعة، التى خدمته فى كثير من وقائعه ، والتى توجت بالنصر حديثا عند لينى ؛ فيباغت الصفوف الانجليزية الضعيفة ، ثم يخترق قلب الجيش البريطانى بهجوم أمامى عام ، بعد أن يصليه ناراً حامية من مدفعيته المركزة . ولقد كان المزمع أن يستعين نابليون فى إنفاذ تلك الحركة بعملية تضليل قصيرة نحو مزرعة هوجومنت (Hougoumont) الواقعة بقرب خط تقدم الجناح البريطانى الأيمن . وبعد أن أتم نابليون كل شىء، جلس إلى خوان صغير وأمامه مصوراته ،وتوقع أن يوم الواقعة الستين من وقائعه سيكون يوما مجيدا .

اتخذت واقعة واترلو إجمالا شكل سلسلة من الهجمات الهائلة ، تظاهرها نار حاصدة من المدافع عن يمين قلب الخط البريطانى ويساره، وسلسلة من المقاومات المستبسلة من الجيوش البريطانية والألمانية .

حصل فى توجيه تلك الهجمات المشهورة غلطتان مهمتان ، ربما كان نابليون بريئا من ارتكابهما : ذلك أن الهجوم العظيم الذى بدأته فرقة القائد ديرلون على قلب الجيش الانجليزى، فى الساعة الواحدة بعد الظهر، كان مكونا من أربعة أقسام ضيقة الجبهة عظيمة الطول (بالنظر إلى أن القسم كان مكونا من ثمانية أورط مصطفة الواحدة تلو الأخرى) . فكانت فرقة ديولون هدفا بديعاً لنيران المشاة البريطانية ، في حين كانت قوتها على إجابة تلك النيران غير وافية . غير أنه جرت عادة نابليون أن يترك الحركات الحربية الصغيرة لقواده ، ولذلك فالنظام الردىء الذى سارت عليه هجمة ديرلون، غلطة يسأل عنها القائد دون رئيسه . أما الغلطة الثانية فكانت أشد خطراً من الأولى ، إذ ترتب عليها كل الأدوار التالية فى القتال . وتفصيل تلك الغلطة أنه فى منتصف الساعة الرابعة ، والمشاة البريطانية لم تتزعزع بعد من مراكزها ، أسرع ناى مخترقا عرض الوادى — لو صح أن نسمى المنخفض القليل العمق الواقع بين المرتفعين بذلك الاسم — على رأس قوة كبيرة من الفرسان لمهاجمة المشاة فى أرضهم . حين إذ ذاك ابتدأت سلسلة من الهجمات الراكبة العنيفة ، التى ضاعت سدى ، ضد البسالة المتينة التى أظهرتها المربعات البريطانية والألمانية . ومعنى ذلك أن الهجمة الأولى كانت بلا شك سابقة لأوانها ، ولم تعززها قوات كافية . إلا أن هؤلاء الذين

يعتبرون أن كلمة تخرج من فم نابليون ، أو حركة حربية يأمر بها ، منزهة عن الخطأ يعتقدون أن الهجوم ابتدأ بدون علمه .

كسبت الواقعة بفضل مهارة ولنجتن وشجاعته ، وثبات الجيوش الانجليزية والالمانية، وبفضل زحف البروسيين، الذين بدأوا يؤثرون في مراكز نابليون بعد الساعة الرابعة مباشرة، ولم تأفل شمس اليوم حتى حولوا ارتداد نابليون هزيمة منكرة . ولو أن جروشي توخى السرعة ، لامكنه تأخير الزحف البروسي ، غير أنه كان من المستحيل عليه منعه: إذ كان عند بلوخر ما يكفي لمحاصرته ، وفوق ذلك فرقتان لمساعدة ولنجتن. ولكن هل كانت تتغير نتيجة الحرب، لو أن نابليون اقتصر على إرسال ثلة من الفرسان بدل فرقة كاملة لتعقب العدو المتقهقر من ليني؟ أو لو أنه أرسل الحرس القديم أكثر تبكيرا ودفعة واحدة ؟ ذلك محتمل ، ولكن لا يمكن الجزم بما كان يحصل . ربما ارتكب نابليون غلطات ولكن عقله كان صافياً ونشيطا كعادته. وعلى رغم توعكه صبيحة يوم ١٧ ، كانت أعماله في أثناء القتال فوق طاقة رجل عادي: فأنه استيقظ يوم واترلو — وكان يوم أحد — الساعة الواحدة صباحا ، وطاف بالمواقف الأمامية ، ثم عاد في الساعة الثالثة، فسمع تقارير الكشافة والعيون ، وأصدر أوامر جديدة . وفي الساعة التاسعة ركب إلى ميدان القتال ، حيث بقي حتى الليل مشرفا على مجرى الحركات الحربية ،

ومُصَدِّراً الأوامر بمهارة وعزم ومثابرة . ولما انكسر الجيش انكساراً لا يجبر ، بذل كل ما فى وسعه سدى ليلم شعث الهاربين ؛ ثم ركب مسرعا ، حتى وصل إلى شارلفيل (Charleville) ، الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى . ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن نابليون لم يسترح أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وأنه بقى ممتطيا جواده أكثر من سبع وثلاثين ساعة ، أثناء أربعة الأيام الحرجة التى استغرقها القتال .

ظل نابليون يغالب القدر المحتوم حتى بعد واترلو ، وذلك من خصائص نفسه الوثابة . كتب من فيليبڤيل (Philippeville) إلى أخيه يوسف يقول إنه مازال من الممكن تعبئة ٣٠٠٠٠٠ رجل ، وإنه مع المثابرة والشجاعة يحتمل إنقاذ كل شيء . وفى النشرة التى حررها لجريدة المونيتور (Le Moniteur) يوم ١٩ يونيه ، صور النكبة كنتيجة فزع مجهول السبب فى ساعة الانتصار . ولما وصل باريس يوم ٢١ يونيه ، كان أول ما جال برأسه أن تمنحه الهيئة التشريعية سلطة ديكتاتورية لأنقاذ الدولة . لكنه لم يعد رجل أيام انقلاب برومير . ولما أصرت الغرفتان التشريعيتان على تنازله فى الحال لم يقو على الامتناع . وفى ٢٢ يونيه وقع على التنازل ؛ وبقى بضعة أيام فى باريس ، والرعاع تهتف له عند قصر الأليزيه (Elysée) ، يفكر هل يثير الروح اليعقوبية ، ويذكى نار فتنة داخلية . إلا أن النفس الأمبراطورية ، التى جعلته

قديما يزدرى الرعاع ، أنقذته من خاتمة غير مشرفة كهذه . وبينما هو ينسحب إلى قصر مالميزون (Malmaison) ، ابتدأ فكره يتحول إلى حياة جديدة فى أمريكا يصرفها فى الكتابة والانشاء . وفى ٢٥ يونيه كتب رسالة وداع إلى الجيش الفرنسى ، تعد من أعلى صحف الأدب ، إذ ضرب فيها بأسلوبه النثرى الجلى على نغمة الثقة بالنفس وعواطف الرجولة . ثم جاءت الأنباء ، بعد ذلك بأربعة أيام ، بأن الروسيين تحت قيادة بلوخر صاروا على مقربة من باريس ، فاتخذ طريقه نحو البحر ، بعد أن رفضت الحكومة المؤقتة بخشونة ما عرض هو عليها من خدمة فرنسا كقائد تحت أوامرها .

ولما رأى أخيراً أن الأرض لم تعد آمنة ، وأن البحر يموج بالطرادات الانجليزية ، أظهر فضيلة اقتضتها الضرورة ، وكتب إلى الأمير القيم فى إنجلترا كتابا يعلن « أنه أتى مثل ثيميستوكليز [1] ، ليحتمى بكرم الأمة البريطانية » ، وليطلب الحماية تحت قوانينها . قد يأسف قارىء التاريخ أن حياة حافلة بمختلف الأعمال وأبهرها ، مثل حياة نابليون ،

---

(١) ولد تيميستوكليز (Themistocles) فى أثينا حوالى ٥١٤ ق . م . وهو سياسى كبير ، أصبح الزعيم الأكبر فى أثينا ، وإليه يرجع الفضل فى إنقاذ البلاد من حكم الفرس . ثم تغيرت الحال ، وأصبح مكروها من قومه لصلفه وكبريائه . وفى عام ٤٧١ ق . م . اتهم بالاختلاس فى أموال الدولة ، فحكم عليه بالابعاد ، فرحل إلى بلدة أرجوس (Argos) ، حيث اتهم بالتآمر على الحكومة القائمة ، فهرب إلى آسيا خوفا على حياته ، ونزل على ملك الفرس فأكرم وفادته ؛ وعاش هناك فى رغد من العيش فى بلدة مغنيسيا (Magnesia) حتى مات .

لم تصادف خاتمة سارة بين الأشراف الانجليز ، أو فى جو الجمهورية الأمريكية الحرة . لكن الحكومة البريطانية، لما عليها من الواجب نحو السلام العام فى أوروبا، ولعهدها مع الحلفاء ، كانت مضطرة للعمل على ألا يعود نابليون لازعاج العالم بدوى مدافعه مرة أخرى. لذلك أرسل إلى جزيرة صخرية، فى مهب العواصف، فى أقاصى المحيط الأطلسى. وهناك في الخامس من مايو سنة ١٨٢١ ، كان نابليون ,, يرى كغليون هائل محمل بالكنوز، ناء بأثقاله ،قائمة أدقاله فى وجه الأفق الغربى ،، . وبعد مرض مبرح طويل تحمله بشجاعة ، استغفر نابليون الاستغفار الأخير عن تلك الخطيئة القديمة، التي لو بحثنا عن أصلها، لألفيناها ترجع إلى النزاع بين الثورة الفرنسية ، والنظام الأوربى القديم .وقضى وهو فى السنة الثانية والخمسين من عمره، وكان أكبر من ولنجتن بثلاثة أشهر.

يتمنى كل شخص لو أن نابليون وقع فى واترلو ، وهو يقود حرسه القديم ، وشفق الليل ينتشر في عرض السماء الصيفية . غير أن الأسر فى سنت هيلانة ، مع ماشف عن الجانب الحقير من حلق مختلط ، لم يخل من الأهمية التاريخية ، ولا من ثمرات السمو الفكرى . ذلك أن حياة نابليون العملية لم تنته بصعوده إلى ظهر السفينة بليروفون (Bellerophon) التى حملته إلى منفاه ، ولا بنزوله إلى ميناء جيمستون (Jamestown) في جزيرة سانت هيلانه ، بل بقيت فى رأسه سياسة

يريد اتباعها، ودور يريد أن يلعبه . قال في سانت هيلانه : "ستبرهن الأيام أن واقعة واترلو خطر على الحريات الأوربية ، كما كانت واقعة فيليبي (Philippi) [1] خطراً على حريات الدولة الرومانية" . وفى وسط الظلام الرجعي الذى تنبأ نابليون بحلوله ، أبصر من بعيد بارقة أمل للابن الصغير الذى لقبه يوما ملك روما . ولقد وضع أمله فى قيام فرنسا يوما ضد أسرة نصبت عليها بقوة الجيوش الأجنبية ، أسرة تميل إلى نظام بائد ومذهب عتيق ؛ واعتمد على أنه بمجرد بزوغ شمس ذلك العصر الحر، سيذكر الفرنسيون الامبراطورية وحكومتها ، التى قامت على أكتاف الشعب تدعمها الأنظمة الحديثة ، وتحيط بها هالة من الفخار . لذلك وضح نابليون فى محادثاته ومذكراته فى سنت هيلانه تلك الأوجه من حياته وسياسته، التى كانت أكثر قبولا فى عصر حر؛ وأملى ملخصات عن الحروب الأولى فى إيطاليا ومصر والشام ، حينما بنى أساس مجده فى خدمة الجمهورية ؛ وقال عن نفسه في بعض تلك المحادثات إنه الصديق المخلص للسلم والحرية والحقوق القومية . وكذلك كانت وصيته السياسية خليطاً من الحقيقة والرياء ، مكتوبة بروح عصر مستقبله قريب. ولقد عاش على اسم تلك الوصية ابن أخى

---

(١) فيليبي بلدة قديمة فى مقدونيا، بناها فيليب أبو الإسكندر الأكبر، وكانت مشهورة بمناجم الذهب والفضة وفيها انتصر أوكتافيوس وانطونيوس ، سنة ٤٢ ق . م ، على الثائرين الذين قتلوا سيدهم يونيوس قيصر ، فانتقما له ؛ وقبضا على أزمة الأمور من بعده .

نابليون ،الذى تولى إمبراطورا على الفرنسيين يوم ذكرى مرور السنة السادسة والاربعين على واقعة أُسترلتز ، وبعد ذلك بقليل كان من مؤسسى الوحدة الأيطالية .

حدث نابليون يوما عن نفسه فى سنت هيلانه فقال : ‹‹ انى جلمود صخر قذف فى الفضاء ›› ، فصوّر شروده الجنونى في التاريخ بشهاب ثاقب . ولا عجب فأنه لما استعرض بأعجاب حياته المدهشة ، اعتقد أنه ليس من المخلوقات التى تسلك المعابر الضيقة المحدودة ، بل قوة عنصرية من قوى الطبيعة ، مجردة عن الحب والكراهية ، أُخرجت للعالم ، وسيرت بحكم تنازع البقاء الكامن فيها . ورأى أن كثيراً ما علق صغار الرجال حياتهم على مبدأ واحد ، وتمسكوا بنظريات قديمة ، واحترموا تقاليد شعوبهم ، فكانوا نظريين مقيدين بوساوس الطبقات المفكرة التى عاشت بين ظهرانيهم . أما عظماء الرجال فيعملون كوميض البرق . ومن لوازم عظمتهم أن يسيروا إلى الأمام بقلب ثابت ، وأن يتجردوا من الاحساس بالتعب الناتج من المضي في الأمور ، وأن يكونوا ممن لا يشعرون بفعل الأرادة حتى فى أشد الحالات . قال نابليون فى ذلك الصدد : ‹‹ الرجل القوى هو الذى يكون كل شيء عنده معناه العقل والحركة فى وقت واحد ، بحيث يقرر بسرعة ما يرتأيه بعد تفكير عميق ؛ وحينئذ فشجاعته كلها قطعة واحدة ›› . ذلك

ماجعل حياة نابليون عجيبة ؛ لكن الذى يدعو إلى عجب أكثر أنه اعتقد في كثير من الأحيان أن حياته كانت من لزوميات العصر للقضاء بدقة وحزم على تقلب الظروف وشدة الاحوال .

دلت الماسات التى وجدت مخيطة بالمعطف ، الذى تركه نابليون فى عربته بعد واترلو ، على الروح التى سار بها فى حياته الجريئة ، وهو يشعر دائما ، حتى فى أوج عظمته ، أنه يمشى على شفا جرف . أجل ! يعرف كل مطالع كيف كان نابليون وهو إمبراطور ، ينسل من قصره ، ليتحدث إلى العمال وأرباب الحوانيت ، ليعرف الشعور السائد فى المدينة . وكذلك ما كان للقوة أن تنتج أمانا ، أو أن تهدئ الاحساس بالخطر الذى يأتى مع حياة منصرفة إلى الاشياء العظيمة . وهكذا ظل نابليون طول حياته كالقرصان يترقب أعداءه ، ويشتم أقل ريح للخيانة فى الجو .

ولقد ملئت كتب بذكر أعماله الطيبة وكلماته الحسنة ، وكلها تدور حول أن نابليون ، فيما عدا الظروف التى تضاربت فيها الاطماع ، كان دائما مملوءاً لطفا ونجدة . نعم إنه أراق دماء بلا حساب ، غير أنه لم يرقها جزافا ، بل استخدم القسوة بقدر ما استلزمت الظروف ، مع الاهتمام بوضع السيف فى موضع السيف . مثل ذلك أنه وافق متكرها ، وهو قائد صغير ، على إعدام ٢٥٠٠ أسير تركى ، سلموا لضباطه بشرط

ضمان حياتهم . ومن الغريب أن يدافع بعض النقاد عن ذلك العمل ، حتى في العصر الحديث ، على مبدأ استحالة الوثوق من الأسرى إذا أخلى سبيلهم ، واستحالة إطعامهم إذا أبقوا. ثم بمضى الزمن صيرت الحروب نابليون لا يهتز للمذابح ، يشهد بذلك أنه كتب في وصف المذبحة الشنيعة التي حدثت عند بورودينو يقول إنها «أبهى موقعة» رآها [1].

ما أوسع الفرق بين ذلك وبين وصف ولنجتن عندما حدث اللادى شلي (Lady Shelley) بعد موقعة واترلو ! قال: «أطلب من الله أن تكون هـذه آخر موقعة أشترك فيها . لما أكون في وسط المعمعة ، أكون مشغولا بدرجة أني لا أحس بشيء . لكني أشعر بالحزن بعد ذلك مباشرة ، حتى لا أستطيع التفكير في العز والفخار ، لأن العقل والعواطف تكون منهوكة . وأني أشعر بالشقاء حتى في ساعة الانتصار؛ وأعتقد أن أكبر شقاء بعد شقاء الهزيمة هو النصر » .

على رغم أن نابليون كون بعض أصدقاء مخلصين، وظل طول حياته قادراً على المصارحة والملاطفة في أحاديثه مع كل أصناف وطبقات الرجال، إلا أنه كان لا يعتمد عليه في حسن الذوق أو الصدق أو عمل الخير . كذلك لا يمكن اختياره كمثل للفضيلة في الأمور الداخليـة . وإن

---

(١) نقلا عن خطاب تحت يد اللورد كروفورد اقتبس المؤلف منه تلك العبارة : —
"C'est le champ de bataille le plus beau que j'ai encore vu."
(المؤلف).

قائمة المحبوبات ، اللائى كان يجرى وراءهن بدون احتشام وبدون عواطف في أوقات فراغه، تكفى للدلالة على أنه لم يكن أعلى أو أحط من المستويات المعتادة فى عصره بين أمثاله . على ذلك لم يكن نابليون طاهر الذيل ، إلا أنه لم يكن عبد شهواته ، ولم تقم السياسة الفرنسية على التنزه عن المحسوبية والدسائس مثلما قامت في أيامه ، منذ أيام سان لويس : أذ وقف نابليون يدير شئون الدولة ، ودليله أطماعه الهائلة ، لا يحيد قيد أنملة ، فى وسط ممتلىء بأحداث النعمة المتزاحمين النهمين .

ولقد كان قلب نابليون يتهيج لجمال الأماكن ذات الاتساع العظيم ، وللصوت الغامض الذى يصدر من تموج البحر ، وللجمال الصافى المنبعث من الليالى المتألقة بالنجوم . أما ماخفى من صغائر محاسن الطبيعة مثل ميل زهرة ، أو حسن لونها ، وتغريد طير ، ونقش الشتاء على شجرة ، فلم تسترع نظره ، وأن استرعت ، فأنها تنبذ كما تنبذ روايات راسين ، التى كان يعتبرها صالحة فقط للشبان . وتفسير كل ذلك أنه كان من ضروريات ذوقه في الجمال أن يكون الشيء عظيما ، ومن ضروريات ذوقه فى العظمة أن يكون الشيء مما يرفع الأخلاق ، ويقوى الأرادة أمام جلائل النيات . ذلك أيضا هو تفسير عدم ميل نابليون للخيال والفكاهة والطرب ، وخفة الروح ، وحب الجمال من أجل الجمال ، وغير ذلك من العناصر اللازمة لحياة الفنون وتقدمها . قال فى ذلك الصدد :

„آه ! أيها الذوق الجميل : توجد إحدى عباراتك القديمة لا أعتقد بها. إن ما يسمى أسلوبا سواء أكان حسنا أم رديئا لا يؤثر فيّ. إنى لا أتأثر إلا بقوة الفكر ". على ذلك لم يكن قياسه للآداب والفنون قياس الرجل الذى يحب الجمال، بل الذى يحب العمل، ويحكم على قصة بموضوعها وأشخاصها، وعلى صورة بمغزاها لا بفنها. قال عن صورة ترموبيلى (Thermopylae)[1] تصوير داڤيد[2] : „إن موضوعها ردىء. ألا ترى أن ليونيداس[3] هُزم ؟ ". ذلك أن نابليون لم يفهم بأى حق يخرج مصور عن حدوده، ويخلد هزيمة قائد عادى، فكان الأجدر فى نظره أن يكون ميدان الفنون والآداب مكافأة الجدارة وزينة النجاح.

وعلى الرغم مما تقدم، ليس من الحقيقة القول بأن الأشياء العظيمة فى الآداب لم يكن لها معنى عند نابليون، أو القول بأنه كان عاجزاً عن تحرير قطع أدبية ذات قيمة. فالرجل الذى قال بجمعية محبى الله والبشر،

---

(١) و (٢) و (٣) ترموبيلى ممر شهير بين إقليمى تساليا ولوكريس فى اليونان القديمة. وعند هذا الممر وقف ليونيداس ملك إسبارطه لصد الفرس سنة ٤٨٠ ق. م. نجح ليونيداس ؛ غير أن يونانيا بكره الأسبارطيين دل الفرس على طريق فوق الجبل، فسلكوه. وانقضوا على مؤخرة الجيش الأسبارطى، وأفنوه عن آخره، ماعدا واحداً تركته يد المقادير ليقص القصة. وقد خلدها المصور الفرنسى جاك لوى داڤيد (Jacques Louis David) الذى ولد فى باريس سنة ١٧٤٨. وهو من أشهر المصورين، وكان من أعوان الثورة، ومن أكبر المعجبين بنابليون وأقرب أصدقائه. فلما سقط نابليون نفى المصور، فذهب إلى بروكسل وأقام بها حتى مات سنة ١٨٢٥.

وهي طائفة سخيفة مدعية : « هل تبحثون عن السناء ؟ إذا كنتم، فأني أدلكم : اقرءوا صلاة الأله ». مثل ذلك الرجل كان يحس بلاشك بتأثير الجمال الساذج. ثم أن بعض نشراته ، التي كان يحررها بعد ثوران القتال مباشرة ، تعد نماذج بديعة فى الأسلوب الفرنسى ، الموجز المتوقد ، الملطف هنا وهناك بمس خفيف من الخيال الشعرى ، والمفخم فى بعض العبارات بنفثة بلاغة حقيقية . ولقد أخذ كثير من النقاد الممحصين على نابليون بعض سقطات فى علم البيان ، وحكموا على رسائله بالابتذال ، وقلة الذوق فى الزخرفة . لكن نابليون لم يطلب حكمهم . والواجب هنا ذكره أنه لم يقصد فى نشراته وإعلاناته مخاطبة الطبقة الوسطي ، ذات الأردية السوداء ، بل جنود فرنسا وعامتها . قال نابليون مرة : « ما نجح العظماء الذين غيروا العالم، بواسطة التسلط على الزعماء أبدا ، بل بالتأثير على العامة ». ولذلك كانت كتابات نابليون للعامة ؛ ولم يسبق أبداً أن ضربت تلك النغمة الجامعة بين الوطنية والفخار ، من أجل استهواء العامة، فى أى دولة قبل دولة نابليون. ومثل كتابات نابليون مثل فلسفة روسو ، كلاهما معدود في صف لغة قواد العامة . وعلى ذلك فنابليون أمير الصحفيين ، وأبو المراسلين الحربيين ، وممهد الطريق فى فن تكييف الرأى العام باستخدام الصحافة ؛ فهو أستاذ الشركات الصحفية العظيمة، التى تنشر فى العصر الحاضر غباوتها المطبقة على جيل متألم.

قال تاليران ، وهو ناقد قاس بسبب ما لحقه من الأذى ، إن نابليون ذو رأى ثاقب دائما في ساعة الروية ، وإنه فى حياته المفعمة بالحوادث ارتكب ثلاث غلطات سياسية خطيرة فقط ، وهى إسبانيا والبابا والروسيا . ولو سلمنا جدلا بأن بحث المؤرخين الحديثين سيضيف إلى قائمة الغلطات المتقدمة ، فلن نستطيع البخل بالأعجاب لمهارة نابليون فى استخدام الظروف ، تلك المهارة التى حلت مسائل كثيرة في السلم والحرب ، والتى قضت على كثير من الأخطار ، والتى حولت عدة مرات الهزيمة انتصارا . مع ذلك ستبقى مسألة ، إلى أى حد كانت نهاية أعمال نابليون متفقة مع سمو الأخلاق ، موضوع المناقشات : إذ لا يخفى أن الغزو من أجل الغزو هو المثل الأعلى في نفس المتوحش ، وأن الواجب قبل التماس الأسباب التى تدعو للحروب ، أو تكوين الأمبراطوريات ، إثبات الغرض الذى من أجله تنشب الحروب ، وتقام الأمبراطوريات ، أمام محكمة العدل العام . وإذا بحثنا الأمر ، فأى حكم أكثر شناعة وتوحشا من السيطرة على الدنيا بالسيف ، بصرف النظر عن هدر الدماء والشقاء والخراب الناتجين مباشرة عن تلك العملية ؟ أى نتيجة طيبة ، أو ذات قيمة ، يمكن الحصول عليها من إذلال شعب ؟ لا نعرف رأى نابليون هنا ، فهو لم يناقش هذا الموضوع . إلا أننا نعرف أن الفخار كان غايته ، وأنه وجد الطريق الموصل لتلك الغاية فى الفتح .

وأنه كان يميل غالباالقياس الفخار بمقدار ما يحدثه من الدمار . ولذلك فعلى الرغم من خدمات كثيرة وعظيمة فى القانون ، وطرق الأدارة ، وفي التقدم الأدبى والعقلى فى فرنسا ، سيبقى نابليون المثل الحديث العظيم لتلك الجرأة ، التى كانت السبب فى المآسى قديما ، والتى لا تتفق أبداً مع مناسبات الحياة البشرية .





نابليون في طريقه ألى المنفى

بعض كلمات نابليون

— القوة موضع الاحترام دائما .

— حب الوطن أول فضيلة فى الأنسان المتمدين .

— لا تصبح الأمم حكيمة ألا بالتجارب .

— المحنة مدرسة لتخريج العظماء ؛ فواجب الملوك إثارتها ونشرها ، لأنها تثير النفوس وتحرك القلوب ، وفى استطاعتها حقا تكوين الأبطال .

— الناس كالأرقام الحسابية ، قيمتها بأوضاعها .

— يجب أن يكون قلب السياسى في رأسه .

— تبيّن الأمر يتم لك بلا عناء .

— نقص نظمنا الحديثة في خلوها مما يثير الوجدان ، مع أن الأنسان لا يساس إلا من طريق الوجدان ، ولو أمكن سياسته من غير ذلك الطريق لكان حيوانا أعجم .

— اختيار الموضوعات للأحداث طريقة فاسدة ، وجدير بهم أن يقرءوا الكتب المطولة ، ليحيط خيالهم بجلائل الأعمال .

— التاريخ مرآة لعقول البشر .

ـــ الحب مشغلة الخامل ، ومضيعة الجندى ، وعثرة الملك .

ـــ التجنيد الأجباري أساس نشأة الأمم ، فبـه تقوم أخلاقها وتتكون عاداتها .

ـــ التعلم والتاريخ ألد أعداء الدين القويم .

ـــ لا أرى فى الدين سر تقمص الروح ، بل سر النظام الاجتماعي ؛ لأنه يقول أن الناس عند الله سواء ، وذلك يمنع الفقير من اغتيال الغنى .

ـــ وحدة القيادة أول لزوميات القتال .

ـــ أعد نفسى أجرأ رجل حربى ظهر فى الوجود .

ـــ أول صفة القائد العام التفكير الهادىء .

ـــ ما زلت مغرما دائما بالتحليل . واذا قدر ووقعت في شرك الحب ، أحلل عاطفتى بالدقة التامة ، فأن محاسبة النفس منفعة مهما تطل .

ـــ مهما تبلغ من الذكاء فلست بفاهم سر قلبك . وإن كل ماتعرفه عنه أنه قطعة من جسمك ، يخترقها عرق ضخم يجرى فيه الدم سريعاً إذا ركضت .

ـــ جلال الأشراف وسحرهم وليدا القدم والثبات ، وهما الشيئان الوحيدان اللذان عجزت عن خلقهما .

ـــ القائد العبقرى لابد أن يكون متصفا بالفضائل ، لأنها السبب

فى طاعة الجند واحترامهم اياه .

ـــ لندن هى مصدر شرور العالم وأضراره .

ـــ الضابط العظيم هو الذى يبلغ به الحرص أن يكون مستعداً لصد مفاجآت عدوه من أى جهة ، فاذا عجز عن ذلك دل على سوء مركز جيوشه .

ـــ لو نجحت لأصبحت إنجلترا من ملحقات فرنسا ، فان الطبيعة كونتها لتكون جزيرة فرنسية مثل أولرون [1] أو قرشقة .

ـــ الدستور الذى لا يعترف بالأشراف يشبه الكرة فى مهب الرياح .

ـــ قيام الأشراف (الأرستوقراطية) نظام ثابت ، فاذا قضى عليه بين النبلاء ، تحول مباشرة إلى البيوتات الغنية ذات الجاه والنفوذ من الطبقة الوسطى ، وإذا قضى عليه من بين هؤلاء ، بقى واجتمع فى ظل زعماء المصانع والشعب .

ـــ العمل ديدنى . ولدت وربيت للعمل . لقد أخطت بوظيفة رجلى وعرفت مدى بصرى ، ولكنى لم أدرك بعد حدود عملى .

ـــ كان غرامى فى التأسيس لا فى الامتلاك . إنما أردت امتلاك ناصية الفخار والشهرة .

ـــ العالم اثنان : الشرق والغرب ، والدليل على ذلك أن فرنسا وإنجلترا متماثلتان فى العادات والدين والأفكار .

---

(١) جزيرة أولرون (Oléron) واقعة قرب الساحل الفرنسي شمال خليج بسكاى .

ـ فلان كذوب، ولا حرج عليه أن يكذب أحيانا إن لا يكذب دائما.

ـ إراقة الدماء تدخل فى عناصر الأدوية السياسية .

ـ فكرت كثيراً فى مشروع تقسيم فرنسا إلى عشرين أو خمس وعشرين أقليما حربياً كل بجيشه .

ـ أنا لا أعرف بالضبط معنى تدخل الحب فى السياسة .

ـ خطابك يدل على حذق عظيم ، وهذا ليس ضروريا فى الحرب ، وإنما الضرورى الدقة ومتانة الخلق والنشاط .

ـ الديانة مادة مهمة فى النظم العامة لتهذيب الفتيات ، إذ الواجب تدريبهن على الاعتقاد والطاعة.

ـ العلماء وأولو النهى كالنساء المتدللات فى نظرى . انظر إليهم وحدثهم ؛ ولكن إياك أن تستوزر أحداً من العلماء ، أو تتزوج إحدى أولئك النساء .

ـ إذا كنت حاكما فلا تنقض ما أبرمت.

ـ هناك أناس يجيدون القول ، ولكنهم يعجزون عن أضعف الأعمال .

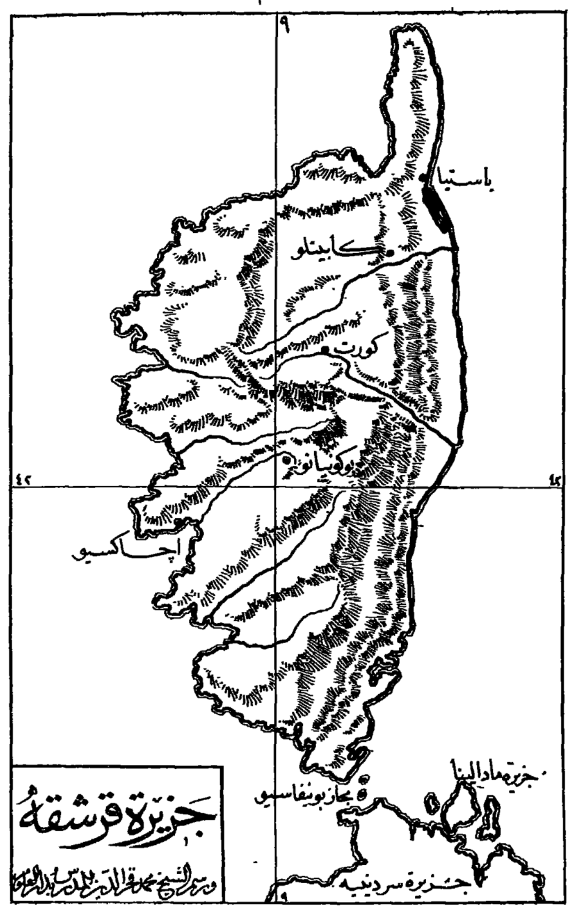
ـ يعتبون على فقرنا فى الأدبيات ، ولكن ذلك ليس من شأنى.

ـ إذا اتصف ملك بالرحمة فنصيب حكمه الفشل .

فهرس الأعلام والبلدان المهمة

مرتبة بترتيب الحروف الهجائية

مصوّر رقم (١)



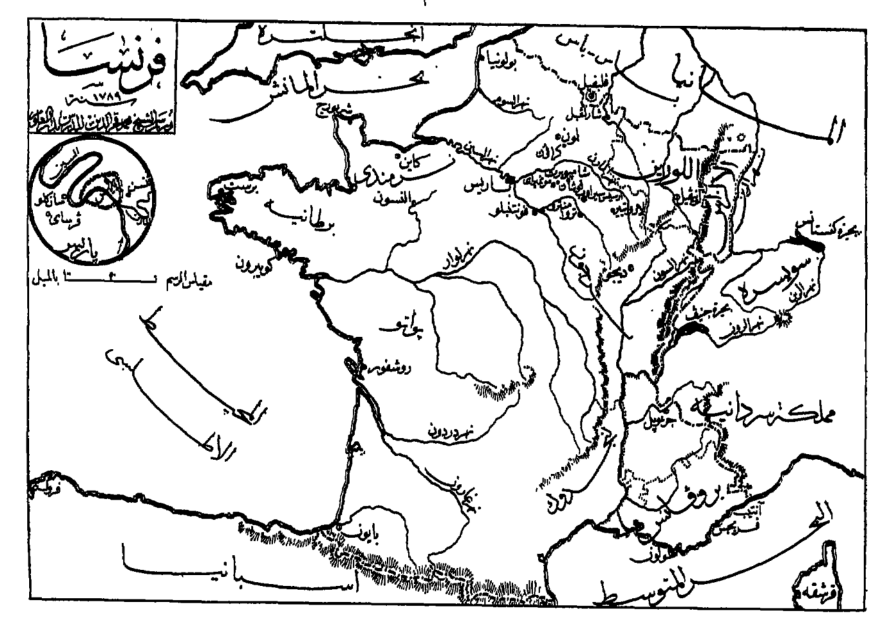
٩
باستيا
كابينلو
كورت
بوكونيانو
٤٢
٤٢
اجاكسيو
جزيرة مادالينا
بحاز بونيفاسيو
جزيرة سردينية
٩
جزيرة قرشقة

مصوّر رقم (٢)



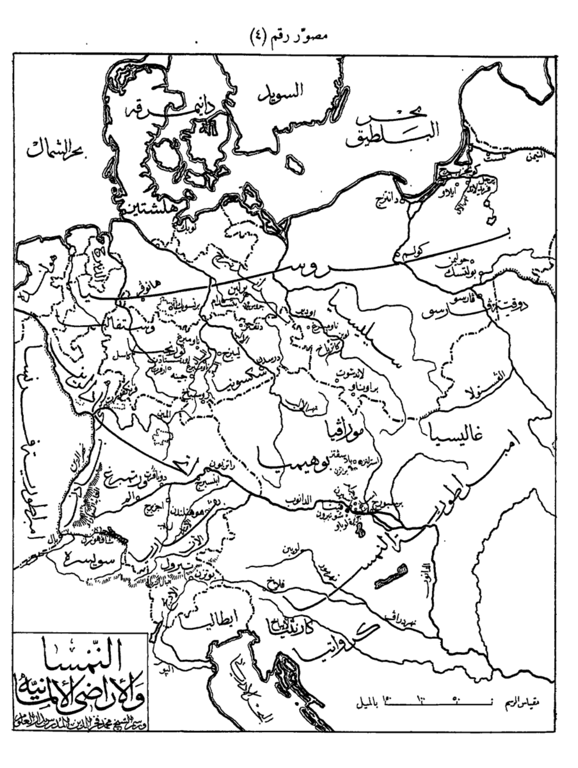
ايطاليا
رسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
سويسرة
فرنسا
بيدمنت
ميلان
البندقية
تسكانيا
مملكة البابا
مملكة نابلي
بولونيا
پارما
فلورنس
روما
نابلي
صقلية
سردينيا
قورسيقة
البحر الأدرياتيكي
دلماشيا
البحر الأبيض المتوسط
بحر الترانة
مقياس الرسم ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ بالميل

مصوّر رقم (٣)

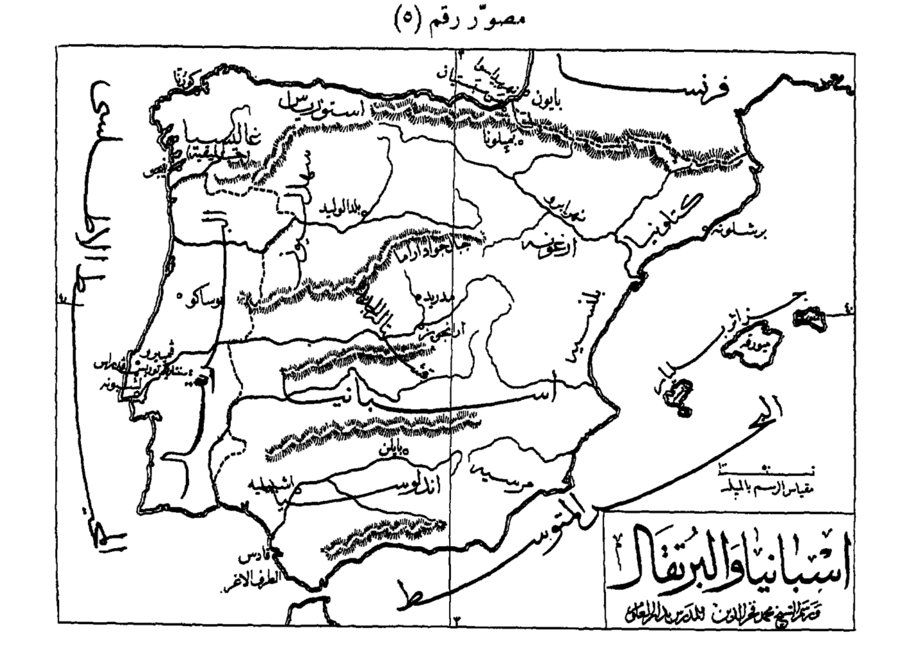


فرنسا
سنة ١٧٨٩
بحر المانش
انجلترا
بولونيا
بلجيكا
نورمندي
كاين
باريس
برطانيه
اللورين
سويسره
بحيرة جنيف
بواتو
روشفور
نهر دردون
بايون
اسبانيا
البحر المتوسط
مملكة سردانيه
بروفانس
قرشقه

مصوّر رقم (٤)

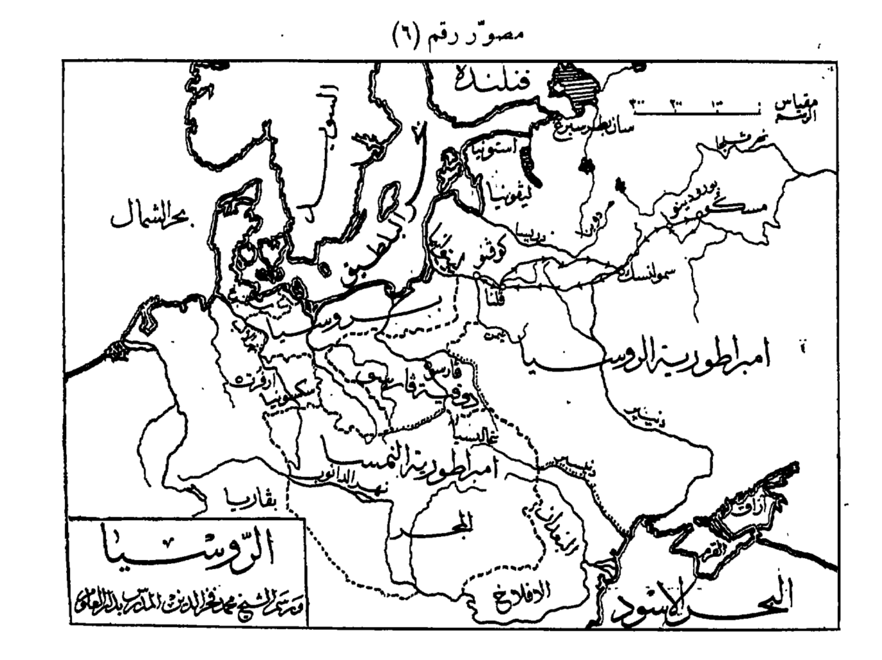

النمسا
والأراضي الألمانية
بحر الشمال
السويد
دانيمرقه
بحر البلطيق
هلشتاين
بروسيا
هانوفر
وستفاليا
سكسونيا
بوهيميا
موراڤيا
سيليسيا
غاليسيا
امبراطورية النمسا
سويسرا
تيرول
ايطاليا
كارنثيا
كرواتيا
ڤارسو
الدانوب
ڤينا
مقياس الرسم بالميل

مصوّر رقم (٥)



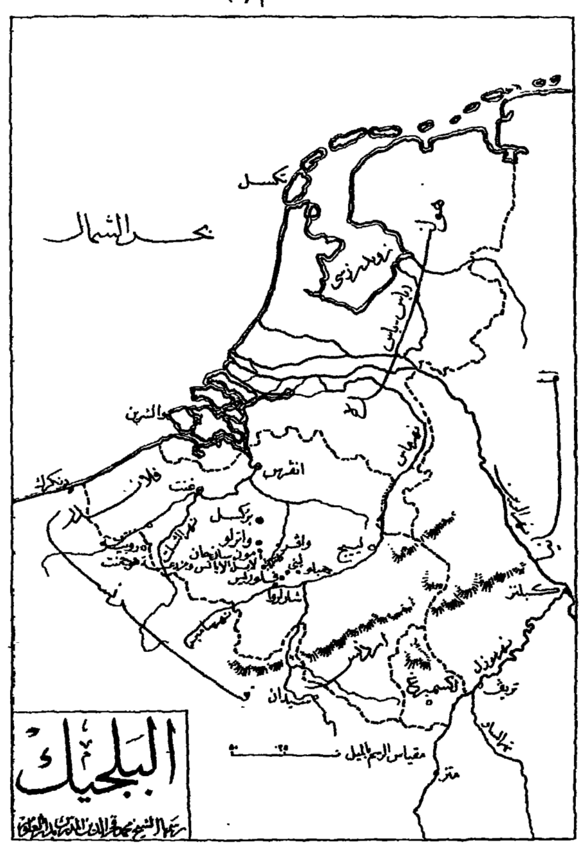
اسبانيا والبرتغال
فرنسا
بايون
بمبلونا
بلد الوليد
نهر ابرو
برشلونة
اراغون
مدريد
بلنسية
اسبانيا
ميورقة
بايلن
مرسية
اندلوس
اشبيلية
قادس
الطرف الاغر
مقياس الرسم بالميل

مصور رقم (٦)



الروسيا
ورسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
فنلندة
السويد
بحر البلطيق
بحر الشمال
بروسيا
استونيا
ليڤونيا
سانت بطرسبرغ
مقياس الرسم
كورلندا
كوڤنو
ڤلنا
سمولنسك
موسكو
امبراطورية الروسيا
امبراطورية النمسا
غاليسيا
نهر الدانوب
بڤاريا
سكسونيا
المجر
الافلاخ
البحر الاسود
القرم
بحر ازاق
ڤارسوڤيا
دوقية ڤارسوڤيا

مصوّر رقم (٧)




Bibliotheca Alexandrina
03779492